fayard
الدار العربية للعلوم . ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

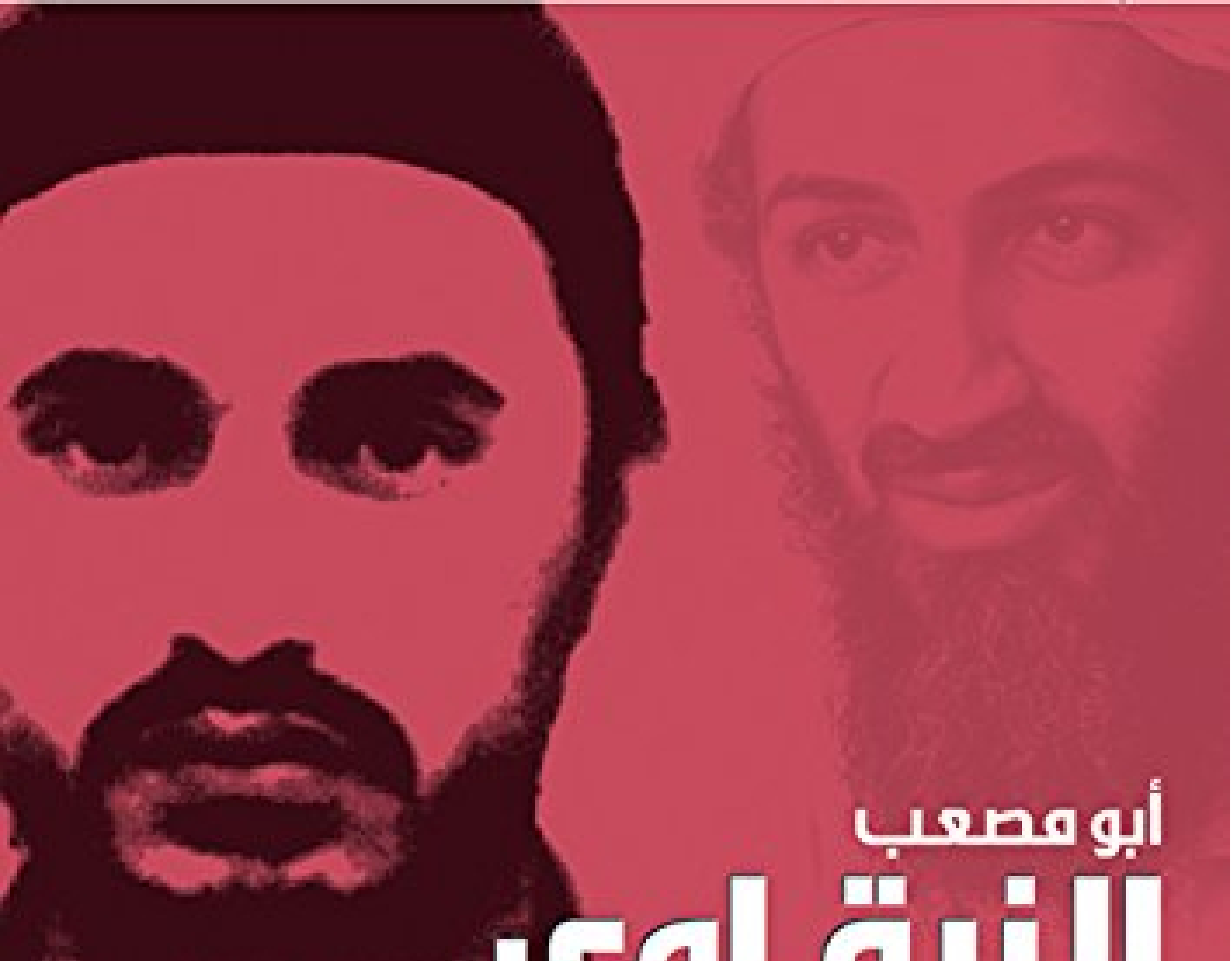

أبو مصعب الزرقاوي

1966 - 2006

الوجه الآخر لتنظيم «القاعدة»

جان - شارل بريزار
بالتعاون مع داميا مارتينز

أبو مصعب
الزرقاوي
2006 - 1966
الوجه الآخر لتنظيم «القاعدة»

جان - شارل بريزار
بالتعاون مع داميا مارتينز

ترجمة
هالة صلاح الدين لولو

الدار العربية للعلوم - ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

أبو مصعب
الزرقاوي

1966 - 2006

بسم الله الرحمن الرحيم

يضم هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
Zarkaoui: Le nouveau visage d'Al-Qaida
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
Fayard
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم
Copyright © 2005 Librairie Arthème Fayard
All rights reserved
All rights published by arrangement with the publishers
Fayard

Arabic Copyright © 2006 by Arab Scientific Publishers

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

ردمك 9953-29-200-0

الطبعة الأولى

1427 هـ - 2006 م

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم - ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 860138 - 785108 - 785107 (1-961)

ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان

فاكس: 786230 (1-961) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611)

يسر الدار العربية للعلوم والمترجمة هالة لولو تقديم هذا العمل للقارئ العربي علماً أن مادة هذا الكتاب لا تعبر عن رأي الناشر العربي أو المترجم.

لقد عمد الناشر العربي إلى حذف بعض من المادة التي قد تسيء إلى الأشخاص الطبيعيين أو الاعتباريين الوارد ذكرهم في الكتاب وذلك تجنباً لكل ما قد يمسّ السلم والتعايش في المنطقة.

المحتويات

ملحق 9

مقدمة 19

القسم الأول

منشأ الإرهابي

الفصل الأول: مدينة الزرقاء وعشيرة الزرقاوي 25

الفصل الثاني: "الرجل الأخضر" 33

الفصل الثالث: الانطلاق الكبير 39

الفصل الرابع: العودة إلى الأردن 53

الفصل الخامس: في "سواقة"، سجن الصحراء 71

القسم الثاني

مقاتل في كل الأوقات

الفصل الأول: رحيل جديد 85

الفصل الثاني: الانضمام إلى"القاعدة" 93

الفصل الثالث: في أصول شبكة الزرقاوي 103

الفصل الرابع: إرهابي محلي 113

الفصل الخامس: الهروب 125

القسم الثالث

عراق الزرقاوي

الفصل الأول: الإرهاب في العراق: من الأسطورة إلى الحقيقة 135

الفصل الثاني: طالبان في كردستان 143
الفصل الثالث: أمير حرب في كردستان........................ 151
الفصل الرابع: لعبة إيران الغامضة 161
الفصل الخامس: التوحيد والجهاد 167
الفصل السادس: الرعب 175
الفصل السابع: استراتيجية الرهائن 181
الفصل الثامن: خضوع القاعدة 187

القسم الرابع
شبكة عالمية

الفصل الأول: من كردستان إلى ألمانيا 197
الفصل الثاني: مجموعة "الإيطاليين"........................ 209
الفصل الثالث: التهديدات الكيماوية لأوروبا........................ 219
الفصل الرابع: ظل قاتم على مدريد 225
الفصل الخامس: سوريا، القاعدة الخلفية........................ 235
الفصل السادس: فرنسا في الفخ الإسلامي 245

خاتمة: خليفة لابن لادن؟ 251
تسلسل الأحداث........................ 255
ملاحق........................ 265

ملحق

في الخامس من شباط 2003 بدأ كل شيء عندما ذكر اسم الزرقاوي من قبل كولين باول عندما كان يحاول تبرير غزو العراق أمام مجلس الأمن الدولي وفي التاسع من حزيران 2006 انتهى كل شيء عندما أعلن رئيس الوزراء العراقي نوري المالكي مقتل زعيم تنظيم قاعدة الجهاد في بلاد الرافدين.

في أجواء تعيد للأذهان أنباء إلقاء القبض على الرئيس العراقي صدام حسين، ووسط تصفيق حاد، أعلن رئيس الوزراء العراقي مقتل الزرقاوي بغارة أميركية شمالي بعقوبة، وذلك في خطوة أوضحت القوات الأميركية أنها نتيجة عملية عسكرية استخبارية استندت بشكل أساسي إلى ملاحقة مرشده الروحي عبد الرحمن العراقي الذي قتل معه. وأوضح المالكي أن "عدد الذين قتلوا في تلك العملية سبعة بينهم اثنتان من النساء العاملات ضمن فريق الزرقاوي. كانتا تتجسسان وتقدمان المعلومات لحركة الزرقاوي".

أما قائد قوات الاحتلال في العراق الجنرال كايسي فقال "إن قواته قتلت الزرقاوي وأحد كبار مساعديه، ومستشاره الروحي الشيخ عبد الرحمن، أمس السابع من حزيران عند الساعة 18:15 في غارة جوية على منزل تم تحديده وعزله" وأضاف كايسي "إن معلومات قادت قواته إلى الزرقاوي الذي كان يعقد اجتماعاً مع بعض معاونيه في قرية هبهب على بعد حوالى ثمانية كيلومترات شمالي بعقوبة".

وفي وقت لاحق عقدت قوات التحالف مؤتمراً صحفياً عرضت فيه صورة لجثة الزرقاوي تظهر رأسه بالإضافة لشريط مصور للغارة الجوية على المنزل. وقال المتحدث باسم قوات الاحتلال الجنرال كاردويل "تم التعرف على الجثة من خلال وشم وبصمات الأصابع" وقال كاردويل مضيفاً "إننا نقوم الآن بتحليل الحمض النووي الريبي ونأمل الحصول على النتائج في غضون 48 ساعة بالرغم من أننا متأكدون أنه هو الزرقاوي".

وكانــت طائرة أف - 16 قد ألقت قنبلتين زنة كل واحدة منهما 250 على المنـــزل الذي كان الزرقاوي يتواجد فيه.

وفي بـــيان بثّ على الإنترنت أكدت الهيئة الإعلامية لمجلس شورى المجاهدين استشهاد أبي مصعب الزرقاوي وتعهدت مواصلة الجهاد حتى تكون كلمة الله هي العليا وإقامة شرعه على أرض الرافدين.

وجاء في البيان:

﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِـــيَعْلَمَ اللَّـــهُ الَّـــذِينَ آمَـــنُوا وَيَـــتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (سورة آل عمران: 140).

"من أبي عبد الرحمن العراقي إلى أمة الحبيب عليه الصلاة والسلام. إنا نبشرك باستـــشهاد شيخنا المجاهد - بإذن الله - أبي مصعب الزرقاوي على أرض الرّافدين التي فتحها عمر الفاروق - رضي الله عنه - وجُلّلت بدماء الصحابة والتابعين، ثمّ جلّلت بدماء المهاجرين والأنصار طوال ثلاث سنوات منهم الشيخ أبو أنس الشامي والشيخ أبو عزام العراقي، وها هو اليوم شيخنا أبو مصعب رحمه الله.

إنـــنا نؤكّد لأمّتنا أنّ ما أصابنا كرامةٌ لك يا أمّتي، وإنّ الفتح بإذن الله قريب، فإن أمـــة الحبيب ولودةٌ والأمل باقٍ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وما أُصيبت الأمّة بمثل موت نبيها عليه الصلاة والسّلام، ولكن استمرت بالعطاء والفتوحات والقتال حتّى تكون كلمة الله هي العليا، واستمرت الأمة بإنجاب الرّجال تلو الرّجال حتّى يومنا هذا، فأنجبت الأمّة في العقود الماضية شيخنا أسامة بن لادن والشيخ أيمن الظواهري (حفظهما

الله) والـــشيخ أبا مصعب الزرقاوي (رحمه الله)، وستنجب الأمّة بإذن الله تعالى الرّجال الرّجال، وإنّ هذا الدّين محفوظ كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (سورة الصف: 9)، والله متمُّ نوره ولكنّ الصليبيين والروافض والمرتدين ومن معهم لا يعلمون.

إنّ الله وعـــدنا وعـــداً وهو وعدُ الحق، إمّا التّمكين وإمّا الشهادة ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّــصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ (سورة التوبة: 52).

إنّ موت قادتنا حياةٌ لنا ولا يزيدنا إلا إصراراً على مواصلة الجهاد حتّى تكون كلمـــة الله هـــي العُليا، فإنّنا نجاهد طاعةً لله عزّ وجل وتعبّداً إليه فإنّها من أعظم الطاعات في مثل هذه الأيام.

وإنّ الله أكـــرمنا في الأشـــهر الأخيرة بالاجتماع مع إخوتنا بتشكيل مجلس شـــورى المجاهـــدين بإمرة شيخنا عبد الله بن رشيد البغدادي (حفظه الله) وكان لـــشيخنا (رحمـــه الله) الأثر الطيب في إنشاء هذا المجلس ليكون النّواة الأولى لدولة الإسلام الّتي ستقام بإذن الله على أرض الرافدين.

إنّـــنا نعاهـــدُ الله على المُضيّ لإقامة شرعه على هذه أرض الرافدين أو نَهلكَ دونه، ونقول الله لأمّتنا لن تُؤتَى بإذن الله من قبلنا، ونقول لشيخنا وأميرنا أسامة بن لادن (حفظه الله) إنّ جندكَ في تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين ماضون على نفس الخطّة الّتي رسمتها لشيخنا أبي مصعب، وسنُكملُ مسيرة شيخنا وأميرنا أبي مصعب رحمه الله) وبيننا وبينهم حربٌ سجالٌ وسيرى الذين كفروا لمن عاقبةُ الدّار.

والله غالب.

رحـــم الله الـــشيخ المجاهـــد أبا مصعب الزّرقاوي ومن سبقه من إخوانه في ساحات الجهاد.

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (سورة آل عمران: 173).

أبي

عبد الرّحمن العراقي

وفور شيوع نبأ مقتل (استشهاد) الزرقاوي تفاوتت ردود الفعل.

فوصف رئيس الوزراء البريطاني توني بلير مقتل الزرقاوي "بالصفعة المدوية التي تلقاها تنظيم القاعدة في كل مكان".

أما الرئيس الأميركي جورج بوش فقال: "إن مقتل الإسلامي المتشدد ضربة قوية للقاعدة ونصر على الإرهاب كما أنه فرصة للحكومة العراقية الجديدة...".

أما المتحدث باسم مكتب رئيس الحكومة الإسرائيلية أيهود أولمرت، رعنان غينسين فقال: "هذا نصر عظيم للديمقراطيات الغربية والأنظمة العربية المعتدلة في الشرق الأوسط. إن منظمته الإرهابية التي لا يزال أسامة بن لادن زعيمها هي الأكثر إجراماً".

أما الناطق باسم البنتاغون براين ويتمن فقال: "نميل دوماً في البنتاغون إلى التعامل بحذر مع تأثير أشخاص معينين... الزرقاوي نصّب نفسه زعيماً للقاعدة في العراق، إنه فرد ونحن لا نتوقع أن ينتهي العنف في العراق". وأوضح أن وزارة الدفاع "تحاول ألا تبالغ في تقدير تأثير وفاة الزرقاوي ولا أن تقلل من شأنه. إنه حدث مهم اليوم".

أما المستشار النمساوي فولفغانغ شويشل الذي تتولى بلاده الرئاسة الدورية للاتحاد الأوروبي فقد شدّد على "وجوب مواصلة مكافحة الإرهاب".

ووصف رئيس المفوضية الأوروبية خوسيه مانويل دوراو بارسو مقتل الزرقاوي بأنه "هزيمة كبرى لتنظيم القاعدة".

أما الناطق باسم حلف شمالي الأطلسي فقد رحب بالعملية وقال: "لن يفتقده أحد".

وقد صدر عن وزارة الخارجية الفرنسية ما يلي: "نأمل في تراجع أعمال العنف في العراق وفي عودة الاستقرار والأمن إلى هذا البلد في إطار استعادته السيادة الكاملة".

وقد ذكر حامد كرزاي الرئيس الأفغاني أن مقتل هذا الرجل "ضربة قاسية للإرهاب وانتصار كبير في الحرب الدولية على الإرهاب".

أما رئيس الوزراء الياباني جونيتشيرو كويزومي فقال: "إن مقتل الزرقاوي هو خطوة في اتجاه تحسين الوضع الأمني في العراق ودليل على تعاون الشعب العراقي في القضاء على المجموعات الإرهابية".

وفي نفس السياق اعتبر رئيس الوزراء الأسترالي جون هوارد مقتل الزرقاوي على أنه خبر رائع للشعب العراقي وقال: "إن مقتله هو نهاية لإرهابي قاسٍ وتعزيز كبير لقوى مناهضة الإرهاب في العراق".

أما الأمين العام للأمم المتحدة كوفي أنان فقد صرّح: "إن مقتل الزرقاوي يبعث على الارتياح لكنه نبّه إلى أن هذا الأمر لا يعني نهاية العنف في العراق".

أما سنان بيغلي شقيق كينيث بيغلي الذي قتل عام 2004 في العراق فأعرب عن سروره لمقتل الزرقاوي ووصفه بأنه كان وحشاً مسؤولاً عن مقتل شقيقه والعديد من الأبرياء.

وفي سياق آخر أبدى مايكل بيرغ والد نيكولاس بيرغ الذي قطع الزرقاوي رأسه في أيار من العام 2004 ارتياحه الحذر إلى مقتل الزرقاوي معرباً عن مخاوفه من أن يكون مقتله سبباً لشنّ موجة من العمليات الانتقامية وقال: "إن الرئيس بوش مسؤول عن العنف أكثر من المتشدد الأردني وإنه إرهابي أكثر من الزرقاوي. فالزرقاوي تسبب بموت نحو 200 شخص بينما يتحمل جورج بوش مسؤولية مقتل 150 ألف شخص".

وفي سياق آخر تماماً شذّت حركة المقاومة الإسلامية حماس عن الترحيب الواسع بمقتل الزرقاوي فعبّرت عن حزنها ووصفته بضحية الحملة الصليبية على العرب والمسلمين وقد أشارت حماس في بيان صادر عنها أنها تنعي شهيد الأمة وجاء في بيان النعي:

"بقلوب مؤمنة بقضاء الله وقدره تنعي حركة المقاومة الإسلامية إلى جماهير شعبنا الفلسطيني وجماهير أمتنا العربية والإسلامية الأخ المجاهد البطل المرابط أحمد فضيل نزال الخلايلة الذي استشهد على أيدي عناصر الحملة الصليبية الشرسة التي تستهدف جميع ربوع الوطن العربي بدءاً من أرض الرافدين".

أما باسل أبو صبحة طبيب سجن الجفر حيث أمضى الزرقاوي عقوبة سجن حتى أيار 1991 فقال: "كان الزرقاوي شخصاً خطيراً وكان السجناء يخافونه فقد كان يفرض النظام على مجموعته من نظرة واحدة". وبالرغم من ذلك يتابع الطبيب: "يبقى الوفاء أحد خصال الزرقاوي فقد كان يحمل السجين صالح الجهادين بيديه ويقوم بغسله لأن الأخير فاقد لساقيه نتيجة انفجار قنبلة"، ويتابع الطبيب قائلاً "بعد إطلاق سراحه عام 1999 توجه الزرقاوي لزيارة عائلته لكنه عاد في ساعة مبكرة في اليوم التالي إلى سجن الجفر الذي يبعد مسافة 5 ساعات بالسيارة ليزور السجناء الذين لم يطلق سراحهم".

أما شقيقة الزرقاوي المفضلة أم قدامة فسألت طاقم قناة الجزيرة الذي كان يستعد لإجراء مقابلة مع زوجها: "هل أنتم متأكدون من وفاته؟" وأضافت وهي تبكي: "لم يكن هناك اتصال مباشر معه" إلا أنها سرعان ما التقطت أنفاسها لتقول: "إذا كانت المعلومات صحيحة فلا يمكنني إلا أن أتوسل الله كي يرسل للمجاهدين أحداً أفضل منه".

وفي شريط مصور نعى الظواهري الزرقاوي ووصفه بأنه "أمير شهداء الأمة الإسلامية".

وقال الظواهري "ننعي للأمة المسلمة جندياً من جنودها وبطلاً من أبطالها وإماماً من أئمتها". وابتهل إلى الله تعالى أن يعوض "المجاهدين" عن مقتله ويجعل "استشهاده" "ناراً على أعداء الله من الصليبيين وأعوانهم".

وفي هذا السياق طالب "المجاهدين" في العراق بعدم إلقاء السلاح وحثهم على الموت كالصحابة وعلماء الأمة ومجاهديها السابقين. وقال إن الزرقاوي لم يكن أول شهيد بمعركة الإسلام ولن يكون آخر شهيد، مضيفاً "إذا كنتم تقاتلون من أجل أبي مصعب فإن أبا مصعب قد مات وإن كنتم تقاتلون في سبيل الله ودفاعاً عن ملة رسوله صلى الله عليه وسلم فلا تلقوا سلاحكم حتى يحكم الله لكم بالنصر أو الشهادة".

ووصف الظواهري مصرع الزرقاوي بأنه قتل تحت القصف "ولم يكن مختبئاً في السراديب المظلمة ولم يكن هائماً بطائرته في الجو لساعات طوال كما فعل بوش حتى نهرته أمه وأمرته أن يرجع إلى مكتبه" في إشارة إلى وضع الرئيس الأميركي جورج بوش أثناء هجمات 11 سبتمبر/أيلول 2001.

العمليات التي تبنتها جماعة الزرقاوي لحين وفاته

تبـــنت جماعة أبي مصعب الزرقاوي، أو اعتبرت مسؤولة عن عدد كبير من العمليات منذ سقوط نظام الرئيس العراقي السابق صدام حسين في نيسان (أبريل) 2003.

- آب (أغسطس): 22 قتيلاً بينهم ممثل الأمم المتحدة في العراق سيرجيو فييرا دي ميلو ونحو مئة جريح في هجوم انتحاري على مقر المنظمة الدولية في بغداد.
- آب: مقـــتل 83 شخـــصاً على الأقل بينهم محمد باقر الحكيم رئيس "المجلس الأعلـــى للـــثورة الإسلامية" و125 جريحاً في هجوم بسيارة مفخخة استهدف مسجد الإمام علي في النجف.
- 12 تـــشرين الثاني (نوفمبر): مقتل 19 إيطالياً وتسعة عراقيين في هجوم على قاعدة إيطالية في الناصرية.
- 27 كانون الأول (ديسمبر): اعتداء بسيارة مفخخة في كربلاء: 19 قتيلاً بينهم سبعة من جنود التحالف وحوالى 200 جريح.

- عام 2004

- 2 آذار (مارس): مقتل أكثر من 170 شخصاً وإصابة 550 آخرين في اعتداءات متـــزامنة اســـتهدفت الـــشيعة في كربلاء وفي أحد مساجد بغداد في ذكرى عاشوراء.

- 11 أيار (مايو): بث شريط فيديو على موقع إنترنت يظهر قطع رأس الأميركي نـــيكولاس بيرغ الذي اختفى منذ بداية نيسان (أبريل) في بغداد، بيد رجل ملثم قدِّم على أنه الزرقاوي.
- 17 أيار (مايو): مقتل الرئيس الدوري لمجلس الحكم الانتقالي عبد الزهرة عثمان محمد المعروف بعزّ الدين سليم، في هجوم بسيارة مفخخة في بغداد.

- 22 حزيــران (يونــيو): قناة "الجزيرة" تعلن قطع رأس مواطن كوري جنوبي يدعى كيم سان - إيل احتجزته مجموعة الزرقاوي.
- 24 حزيران: سلسلة هجمات ضد الشرطة تلتها أعمال عنف أوقعت أكثر من مئة قتيل و300 جريح في معاقل السنة في شمال وغرب بغداد (الموصل وبعقوبة والرمادي).
- 13 تمــوز (يولــيو): قطع رأس بلغاري هو غورغي لازوف. وانتشلت جثة مقطوعة الرأس لرهينة بلغاري آخر من نهر دجلة.
- 2 - 13 أيلول (سبتمبر): مجموعة الزرقاوي تتبنى مسؤولية قتل أربعة رهائن أتراك.
- 14 أيلــول: اعتداء بالسيارة المفخخة على مقر عام للشرطة في بغداد يوقع 49 قتيلاً و131 جريحاً.
- 20 أيلــول (ســبتمبر): قطع رأس يوجين أرمسترونغ وهو أميركي خطف في بغداد مع أحد مواطنيه جاك هانسلي والبريطاني كينيث بيغلي. وفي اليوم التالي أعلنت المجموعة قتل هانسلي ثم قتل بيغلي في 8 تشرين الأول (أكتوبر).
- 23 تشرين الأول (أكتوبر): قتل 49 مجنداً في الجيش العراقي وثلاثة مدنيين في مكمن في شمال بغداد.
- 6 تشرين الثاني (نوفمبر): قتل 36 شخصاً بينهم 26 شرطياً في سلسلة هجمات في سامراء (شمال بغداد). وفي اليوم التالي، قتل 21 شرطياً عراقياً بدم بارد بيد مسلحين هاجموا مركزين للشرطة في محافظة الأنبار (غرب بغداد).
- 9 كانون الأول (ديسمبر): هجومان يهزان النجف وكربلاء ويسفران عن 66 قتيلاً وحوالى 200 جريح.

• عام 2005

- 4 كانــون الــثاني (يناير): مقتل محافظ بغداد علي راضي الحيدري واثنين من حراسه الشخصيين في مكمن في شمال العاصمة.
- 28 شباط (فبراير): عملية انتحارية تقتل 118 شخصاً وتجرح 147 آخرين في الحلة وهو الاعتداء الأكثر دموية في العراق منذ سقوط نظام صدام حسين.

- 20 نيـــسان (أبريل): نجاة رئيس الوزراء المنتهية ولايته أياد علاوي من محاولة اغتيال عندما انفجرت سيارة مفخخة لدى مرور موكبه في بغداد.
- 7 تموز: قتل القائم بالأعمال المصري في بغداد إيهاب الشريف.
- 29 أيلول (سبتمبر): ثلاثة اعتداءات توقع 99 قتيلاً و124 جريحاً في بلد شمال بغداد.
- 11 - 12 تـــشرين الأول (أكتوبر): مقتل 60 شخصاً وجرح أكثر من ستين آخـــرين في هجومين في سوق ووسط تجمع للجيش والشرطة في تلعفر (450 كلم شمال غربي بغداد).
- 9 تـــشرين الـــثاني: ثـــلاث عمليات انتحارية تستهدف فنادق فخمة نفذها انتحاريون عراقيون توقع ستين قتيلاً وأكثر من 100 جريح في عمان.
- 10 تشرين الثاني (نوفمبر): مقتل 31 شخصاً في عملية انتحارية ضد مطعم في وسط بغداد(1).

عقـــب إعـــلان مقتل الزرقاوي سارع أنصاره إلى مبايعة نائبه أبي عبد الرحمن العراقي وسط حالة من الغموض أثارها الإعلان عن مقتل رجل بالاسم نفسه في الغارة على المنـــزل الذي قتل به الزرقاوي وتم التداول باسم آخر لخلافة الزرقاوي وهو أبو أيوب المصري أما الجيش الأميركي فأعلن أن المصري هو الاسم الأكثر منطقية لخلافة الـــزرقاوي الـــذي عرف على أنه أقرب مساعديه. غير أن تنظيم القاعدة عاد وحسم الأمـــر بمبايعة أبي حمزة المهاجر خلفاً لأبي مصعب الزرقاوي وذلك في بيان نشر على موقع الحسبة الذي غالباً ما ينشر بيانات القاعدة على الإنترنت.

"اجـــتمعت كلمة مجلس الشورى (المؤلف من سبع مجموعات مسلحة بينها تنظـــيم القاعـــدة) وتنظيم القاعدة في بلاد الرافدين على الشيخ أبي حمزة المهاجر لـــيكون خلفـــاً للشيخ أبي مصعب الزرقاوي في إمارة التنظيم". وأضاف البيان أن "الشيخ أبو حمزة المهاجر أخ مفضال صاحب سابقة جهادية وقدم راسخة في العلم، نسأل الله تعالى أن يسدد أمره وأن يتم على يديه ما بدأه الشيخ أبي مصعب".

وفي بـــيان صدر عن مسؤول عسكري أميركي كبير بتاريخ 15 حزيران/يونيو

---

(1) المصدر: جريدة الشرق الأوسط.

2006 بـــدا واضـــحاً أن حقـــيقة هوية خليفة الزرقاوي ستشكل لغزاً محيراً للقوات الأميركـــية وسيكتنفها الغموض إلى حدّ كبير قبل أن يكشف عنها التنظيم إن كشفها أصـــلاً. واعتبر الجنرال كارترهام نائب مدير العمليات في هيئة الأركان المشتركة أن الزعيم الجديد للقاعدة في العراق يمكن أن يحاول إخفاء هويته خوفاً من اعتقاله. وتشير المعلومات المتوفرة حتى الآن لدى الجيش الأميركي إلى أن المهاجر قد قام مع الزرقاوي بقيادة معسكر الفاروق لتدريب عناصر القاعدة خلال العام 2001 و2002 ويعتقد أنه قـــدم إلى بغـــداد عام 2003 قبل أن يؤسس الزرقاوي الخلية الأولى لتنظيم القاعدة في العراق ولكن لم يلبث أن شكك مستشار الأمن القومي في البيت الأبيض ستيفن هادلي في إعـــلان الجيش الأميركي أن المهاجر هو المصري وقال: "لسنا متأكدين بالفعل إن كـــان المصري الذي يتحدث عنه الجيش الأميركي هو الشخص الذي سيتقدم لقيادة هذا التنظيم، لا تزال توجد بعض الشكوك في هذا الشأن...".

وتـــردّد فـــيما بعد في بغداد أن أبا حمزة المهاجر هو العراقي سليمان حداد الـــضابط الـــسابق في الجـــيش العراقي الذي أرسله صدام حسين قبل الحرب إلى أفغانستان للاتصال بتنظيم القاعدة، فصار من أعضاء القاعدة.

وبتاريخ 30 حزيران/يونيو 2006 بث موقع إسلامي على الإنترنت يستخدم عـــادة من قبل تنظيم القاعدة تسجيلاً صوتياً جديداً منسوباً لزعيم تنظيم القاعدة أســـامة بـــن لادن. ونعـــى التسجيل زعيم القاعدة في بلاد الرافدين أبو مصعب الـــزرقاوي معتبراً إياه شهيداً. وطالب التسجيل الصوتي الرئيس الأميركي جورج بـــوش والعاهـــل الأردني عبدالله الثاني بتسليم جثمان الزرقاوي إلى عائلته. وشدد المتحدث في التسجيل المنسوب لبن لادن على أنّ الجهاد في بلاد الرافدين لن يتوقف بمـــوت الـــزرقاوي. كما توعد بمواصلة الحرب على الأميركيين وحلفائهم في أي مكـــان. وقال التسجيل إن المعركة ستستمر ضد الأميركيين في العراق وأفغانستان والصومال والسودان متوعداً بهزيمتهم.

ومما يبدو فإن كانت صفحة الزرقاوي قد طويت فإن صفحة جديدة في تاريخ التنظـــيم قـــد فتحت بعنوان أبي حمزة المهاجر، إلا أن متن الصفحة لا يزال يكتنفه الغموض.

مقدمة

إذا كانت الظروف تصنع الشهرة، فالعراق لأبي مصعب الزرقاوي ما كانت عليه أفغانستان لأسامة بن لادن، ولا يزال العنف الهمجي في ازدياد.

إن أفغانستان والعراق، هما رهانان عالميان، وساحتا جهاد. في الساحة الأولى، جعل أسامة بن لادن لنفسه القبول بفضل ذكاء استراتيجي، وفي الساحة الثانية، يفرض الزرقاوي نفسه بالقوة البدائية. إن الأول أعدّ خطاباً عملياً، والثاني يشيد بسياسة الفوضى. إن الأول أراد أن يكون مجمِّعاً، أما الثاني فقد اقتصر على نفسه.

في مضمار العنف، يُعيد الزرقاوي الإرهاب إلى معناه الأول، وهو الرعب. كان متأخراً دائماً عن خوض الحرب، ولم ينجح قطّ في عمل باشره إلى أن وجد في النزاع العراقي متنفساً لإحباطاته، وعقده، وإخفاقاته. لقد أعلن، متدثراً...، الحرب على الناس، وعليهم جميعاً. وأكد قائلاً: "أنا عالميّ"، لئلا يعترف أنه لم يكن لديه خيار آخر سوى سياسة إيجاد الوضع الأسوأ ليوجد نفسه أخيراً، إنه لم يكن أبداً إلا ظل أسياده الدينيين أو العسكريين - بدءاً من أسامة بن لادن - لقد كان على الدوام حبيس سجون بلاده أو حبيس إرهاب الحي.

إن تفاهة معاركه توضّح أن الرجل المطلوب الأول في العالم لم يكن، طيلة سنين، إلا اسماً يضاف إلى لائحة لانهاية لها من مرشحي الجهاد، وأن ما من أحد أدرك تكوُّن...، من الأردن إلى الولايات المتحدة. لقد أُطلق سراحه، اعتقاداً أن السجن جعله معتوهاً. وما حدث حقيقة أنه تمّ إخراج...، مهووس بالموت. إن عمى البصيرة ذاك استمر طويلاً: ففي بداية شهر تشرين الثاني في العام 2004، لم يكن الزرقاوي دائماً موضوع التنبيه الأحمر (أي مذكرة دولية بالقبض) من جانب الشرطة الدولية.

خلف قناع...، يروِّع الزرقاوي العالم بواسطة إنترنت مسخَّر له، إنه إرهابي ذو مسار لا نموذجي وفوضوي استفاد من اندحار القاعدة ليجعل من نفسه شخصية بارزة وليبني تنظيمه الخاص، ليحلّ محل شبكات أسامة بن لادن في الكثير من البلدان.

لقد أصبح الزرقاوي محترفاً، قاتلاً بدم بارد ومتعلماً الكثير من الآخرين، بدءاً من القاعدة التي أعطته وسائل لطموحاته والتي جعلت منه واحداً من زعمائها قبل أن تدعه ينال استقلاله الذاتي. لقد استفاد من ضعف دول عدّة أو من التباسها بخصوص الإرهاب والنزعة الإسلامية الراديكالية ليفرض نفسه، وليحمي نفسه؛ ولينتشر في الوقت الحاضر.

إنه ليس أداة صدام حسين كما استطاع الأميركيون أن يؤكدوا، ولا هو مرؤوس أسامة بن لادن، بل إنه نتاج... مظلم أفادته الظروف أكثر من أي شخص آخر.

لم يُفلح الزرقاوي في مهنة، وأراد أن ينتقم لنفسه من الحياة. وأراد ألا يرضخ لأي منطق، اللهم إلا منطق العنف الذي يتخذه أفراد طالبان المعروفون بأنهم عصابة فرحة ترتدي العمائم. إن الزرقاوي يلقّن دروساً في الطرق الجهنمية، إن أردنا استعادة تعبير آندريه مالرو، ويصنع منافسين لها. إن العراق يمكن أن يكون قبراً له، لكنه هو نفسه يجعل منه وسيلة. لقد حان الوقت لأن نفهم هذا الأمر.

سأوضح الآن، كيف ولماذا ثابرت على فهم شخصية وعمل أبي مصعب الزرقاوي.

نحن في تشرين الأول من العام 2002، وقد مضت أربعة أشهر على اختياري من جانب محامي عائلات ضحايا اعتداءات الحادي عشر من أيلول - أي 10000 من آباء الضحايا - مسؤولاً عن تحقيق دولي يهدف إلى الكشف عن الأشخاص الاعتباريين أو الماديين، الذين دعموا القاعدة. إن فريقي يلاحق باستمرار المموّلين وموفري الدعم اللوجستي[1] للجماعة الإرهابية. من الجبال الأفغانية إلى الصحراء

(1) الفن العسكري المتعلّق بتموين الجيوش ونقلها وإيوائها. (المترجمة).

اليمنية مروراً بالشيشان والبوسنة والهرسك، إنهم أكثر من خمسة عشر محققاً يجلبون يــوماً إثــر يــوم معلومات عن الإرهاب، وأحياناً بالتعاون مع أجهزة المخابرات الرسمية.

أحــد محققيــنا في أفغانستان، ذاك الذي، وقبل بضعة أسابيع، كان قد طلب لحمايــته مــسدسات آلية، ورشاشات وحوالى عشرة حراس شخصيين، أسرّ لي، ذات صــباح مــن تــشرين الأول، أن علــبة من الكرتون مطبوع عليها عبارة "SECRET-AFG" (أفغانستان - سريٌّ) تحوي كمية وثائق لم يسبق نشرها، والتي حصل عليها من أماكن إدارية لمعسكر تدريب هُجر عقب الهجوم الأميركي. إنني أجــد فيها، أشياء مختلطة، بطاقات عسكرية شخصية، كتيب لصنع مواد كيماوية وجــرثومية، مقالة ناقدة مناوئة للغرب، ودليل عملي للقاعدة في أفغانستان موجّه للمجــندين الجدد. إن تلك الوثيقة الأخيرة، ذات الثلاثين صفحة، هي حقاً منجم غني. إنها تحتوي على أرقام هاتف هامة، وتورد بالتفصيل طرق الاتصال، والأسماء الرمــزية المــستخدمة، وقائمة بالأشخاص المتصل بهم، والذين هم زعماء دينيون، وقــادة عــسكريون أو مسؤولو ضيافة... لقد لاحظت إضافة إلى أعضاء التنظيم الــذين حُدّدت هويتهم سابقاً، اسماً لم يكن قد استرعى انتباهنا أبداً، "أبو مصعب الزرقاوي". كان من الممكن أن يكون لا معنى له لو أنه لم يندرج في تلك اللائحة، حــيث يــرد ذكــره ما بين قائد عسكري في القاعدة ومسؤول عن معسكرات التدريب لابن لادن.

بعــد بضعة أيام من البحث، ظهر أن المدعو الزرقاوي، واسمه الحقيقي أحمد فــضيل نــــزال الخلايله، مطلوب في الأردن ومذكور في لائحة تتضمّن أعضاء القاعدة الهاربين في إيران.

مــنذ شــهر كانــون الثاني 2003، أُسند إلى أحد مساعديَّ، وهو مكلّف بالتحــري حــول قادة القاعدة الجدد، ملف "AMAZ"[1] وقد باشر البحث عن معلومات حول الزرقاوي، وحول شبكاته، ومحطاته، ورجاله. ومنذ ذلك التاريخ،

(1) وهي الأحرف الأوائلية من اسم "أبي مصعب الزرقاوي". (المترجمة).

تمّ جمــع أكثــر مــن 10000 صفحة من الوثائق الصادرة عن الأجهزة القضائية، والــشرطة، والمخابــرات في أكثــر مــن عشرة بلدان تتناول تصرفات "شبكة الــزرقاوي". وتمّ سؤال أكثر من ألف شاهد: قضاة، أفراد في الشرطة والمخابرات، وأيــضاً أهل ومقرّبون من الزرقاوي من أجل الإحاطة بمسار هذا الرجل وحقيقة شــبكته. وكان لا بد من القيام بأكثر من عشر رحلات إلى الشرق الأوسط، لا ســيما إلى الأردن، لجمــع عناصر التحقيق المقدمة في هذا الكتاب. إن غالبيتها لم يسبق نشرها وبعضها كان لا بد من تنقيته لئلا يضر بالتحقيقات الحكومية الجارية حول ذاك الرجل الذي أصبح المطلوب الأول في العالم.

15 تشرين الثاني/نوفمبر 2004.

القسم الأول

منشأ الإرهابي

إن الطموح بلا موهبة هو جريمة.

رونيه دو شاتوبريان

الفصل الأول

مدينة الزرقاء وعشيرة الزرقاوي

جالت العالم صورة طائرتين الأولى "للخطوط الجوية السويسرية" والثانية "للخطوط الجوية حول العالم TWA"، لقد خطفتا في السادس من أيلول عام 1970 وأرغمتا على الهبوط في مطار سُمي "بمطار الثورة"، وهو مطار عسكري سابق في الزرقاء، في الأردن. وبعد مرور ثلاثة أيام، خطفت طائرة بريطانية إلى المطار نفسه. وما إن تمّ تحرير المسافرين حتى قام فدائيان فلسطينيان، هما وديع حداد وليلى خالد، بتفجير الطائرات. إن مفخرة FPLP[1] تلك قد أدّت إلى انطلاق "أيلول الأسود"، الذي يقصد به ذلك القمع العنيف الذي انتهجه الملك حسين ضد الفدائيين الفلسطينيين اللاجئين في الأردن.

إن عمل القرصنة ذاك، غير المسبوق والخاطف للأبصار، أفزع الرأي العام العالمي. كما أن شريط صور الطائرات المفجَّرة، الذي هو أول عروض هذا النمط من القرصنة، أعطى وزناً غير متوقّع لمشهد الرعب. ومنذ ذلك الحين، صار الإرهابيون الأكثر حذقاً يستخدمون وسائل الإعلام لنقل رسالتهم عن الموت. رسائل ستتطوّر على مرِّ الأيام، إلى أن تصل - بعد ثلاثين عاماً - إلى تلك الصور الهمجية في قساوتها المبثوثة عبر الأقنية التلفزيونية الرقمية الجديدة.

في الزرقاء، عام 1970 كانت الطائرات خالية من ركابها. وفي بغداد، عام 2004، هنالك رجل وُلد في الزرقاء... الناس واللقطات التصويرية لا تطاق ولا نهاية لها.

إن المملكة الأردنية، وعلى الرغم من جهودها المستمرة في مقاومة الإرهاب،

---

(1) الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، حركة ذات اتجاه ثوري وإلهام ماركسي، أسّسها جورج حبش عام 1967.

لم تستطع أن تستبق الخطر الإسلامي المتشدّد والمتنامي بدءاً من التسعينيات. لقد عانى الأردن مباشرة، وهو بلد على مفترق الطرق في قلب منطقة متأزمة، من الهجمات المتكررة من مختلف الحركات المتطرفة. وخارج محيط العاصمة عمان أصبحت مدن مثل معان أو الزرقاء ملاذاً للقضايا الإسلامية الأكثر تشدّداً. في تلك المدن نمت جماعات إسلامية وانحلّت، كما ترسّخت تحالفات. لقد اعتُقل المتطرفون وحوكموا، وحُكم عليهم وغالباً ما أُفرج عنهم، كما تفشت فيها العقيدة السلفية، التي تمجد العودة إلى أصول الإسلام، وترى في إقامة دولة إسلامية في الأردن هدفاً أخيراً لها.

في معان أو في الزرقاء، وهما كبرى مدن المملكة بعد عمان، يجعل البؤس السكان سريعي التأثر بإغواءات المتطرفين. بينما يتكدّس الفلسطينيون في الزرقاء منذ الخمسينيات، ويعيشون حياة مقلقلة إلى حدٍّ كبير. ورغم أن المدينة تتمتّع بحوض اقتصادي هام على مستوى الأردن، إلا أن معدل البطالة فيها هو أيضاً من أعلى معدلات البطالة في المملكة[1]، ويحطم معدل الإجرام فيها الأرقام القياسية، بدليل أن الزرقاء غالباً ما توصف على أنها "شيكاغو" الأردن. أما البنى التحتية العامة فهي مهملة، خلافاً لعمان العاصمة، حيث يتمّ كل شهر بناء أبنية جديدة.

إن تلال الزرقاء المعفَّرة تمتدّ على مدِّ البصر حول عمان. وتأوي الزرقاء أكبر مجموعة من فلسطينيي الأردن: ففي مخيم "شنيلار" (ويسمى أيضاً مخيم حطين)، أو في مخيم "مُشيريفة" يعيش لاجئون في الغربة منذ العام 1948، عام قيام دولة إسرائيل. أما فيما يتعلّق بالمخيمات، فإنها أحياء حقيقية دُمجت بالكتل السكانية. وتتراكم الأحقاد في شرق نهر الأردن، منذ ما يقارب خمسين عاماً، ضد الدولة الأردنية وإسرائيل في آن معاً. إن تلك الهوية الفلسطينية تشكّل رباطاً اجتماعياً قوياً، وأيضاً ناقلاً ملائماً لتسييس الإسلام. منذ العام 1948، والمملكة الهاشمية تحاول الحفاظ على توازن هشّ بين العشائر البدوية واللاجئين الفلسطينيين. لكن، وعلى الرغم من برامج الاندماج التي تطبّقها الدولة، إلا أن فلسطيي الأردن ما

(1) مارك لافيربي، "الأردن: تشقّق اجتماعي وتقطيع مكاني خلال تطوّر العاصمة. حالة عمان"، "إنسانيات"، الجزائر، الفصلية الثانية، 2004.

زالـــوا في معزل عن البنى السياسية الإقليمية والدولية، وإن كانوا – على الورق – يتمتّعون بجميع صفات المواطنة الأردنية، وبخاصة جواز السفر الهاشمي.

مـــنذ بدايـــة تسعينيات القرن الماضي، تفاقم استياء سكان الزرقاء. واتخذت التكـــتلات الفلـــسطينية الكبرى في الأردن منحى التطرف على نحو موازٍ للتطوّر الـــسياسي في بعض الدول المجاورة، ومنها سوريا والسعودية، ومواز أيضاً لتصلّب النـــزاع الإســـرائيلي – الفلـــسطيني. إن التعصب ينتشر شيئاً فشيئاً في المجتمع الأردني. ونلاحـــظ اليوم أن جرائم الشرف التي تعاقب النساء في ازدياد، وخطب الأئمـــة المتطرفين تملأ المساجد، والحركات الإرهابية تجنّد مرشحين يتزايد عددهم علـــى الدوام للقيام بعمليات استشهادية في إسرائيل. إن المجاهدين الأفغان يمجّدون تـــسلّم الدولـــة الإســـلامية للـــسلطة (الخلافة)، و"الإخوان المسلمون"يستثمرون الجامعات ومراكز السلطة الوطنية، ويُنظم المسؤولون السياسيون المتدينون "مسيرات الغـــضب" ضـــد السياسة الإسرائيلية. وتقوم "حماس" بزرع خلاياها في الأماكن الفلسطينية المحصورة في الأردن.

يشهد الكثيرون على تنامي ذلك التعصب، وبشكل خاص في الزرقاء. فقبيل اعـــتداءات الحـــادي عشر من أيلول عام 2001، ذهب شاب فلسطيني من الأردن واسمـــه ســـيد حوتـــري إلى إسرائيل لكسب العيش، كان عمره 22 سنة، ويصفه أقـــرباؤه بالشاب الهادئ والرصين. وفي الأول من حزيران عام 2001، فجَّر نفسه أمام مرقص "دولفيناريوم" في تل أبيب، ليقتل واحداً وعشرين شاباً إسرائيلياً. كان سيد حوتري قد ترعرع في الزرقاء مثله مثل كثير من أعضاء "حماس"، وهو التنظيم الذي تبنّى ذلك الاعتداء الدموي[1].

إن الجماعـــات المسلحة الأخرى ليست بمنأى عن ذلك، بدءاً من "القاعدة". وهكذا فإن شاباً فلسطينياً من الأردن، وأصله من الزرقاء، هو محمد سلامة، حُكم عليه بالسجن المؤبد مع الأشغال الشاقة في الولايات المتحدة الأميركية لمشاركته في الاعـــتداء الأول الذي شُنَّ على "مركز التجارة العالمي"، في نيويورك، عام 1993.

---

(1) "الأخبار الخارجية الرئيسية"، وكالة الأنباء الكندية، 3 حزيران 2001.

لقـــد دخـــل إلى الولايات المتحدة الأميركية في السابع عشر من شباط عام 1988 بتأشـــيرة ســـياحية. وكـــان قد حاول أن يستوفي، في يوم الاعتداء نفسه، كفالة الشاحنة الصغيرة التي استخدمت في الهجوم. لقد أثبت القضاء الأميركي أنه ينتمي إلى الحلقـــة الأولى مـــن تنظـــيم "عمر عبد الرحمن"، الذي كان قد خطّط لتلك الاعتداءات(1). إن عائلة محمد سلامة، في الزرقاء، كانت قد اقتصدت في معيشتها ليتمكن من الحصول على تأشيرته.

إن أقـــدار مئات من أولئك الفلسطينيين غالباً ما تتشابه، فهم ينضوون تحت لـــواء "حمـــاس "أو "كتائب شهداء الأقصى". وكانت مدينة "الزرقاء" قد دفعت ضـــريبة ثقيلة للتنظيمات الإسلامية قبل أن يظهر على الساحة الإعلامية الدولية أبو مـــصعب الزرقاوي، ويعني اسمه، حرفياً، أنه من الزرقاء. لكن لا جامع بين جهاده وبـــين التطرّف السياسي للشبان الفلسطينيين. إن الزرقاوي... محترف، ... يقتل بـــيديه. إنـــه رجـــل خـــارج عن المقاييس، يتعذّر الإمساك به، ويفلت من جميع سيناريوهات أجهزة مكافحة الإرهاب، بما فيها تلك الأردنية.

بيد أن "دائرة المخابرات العامة" (GID) الأردنية المرهوبة الجانب، وفي بداية تـــسعينيات القرن الماضي، كانت قد باشرت في مراقبة منظمة ومنهجية للحركات الأصـــولية الناشطة في الأردن، وكانت تهتم على نحو خاص بحركة الزرقاوي. لقد كـــان الـــبلد يجتاز وقتذاك واحدة من أخطر الأزمات السياسية في تاريخه المعاصر. وكانـــت المملكـــة الأردنـــية وقد زعزعها تيار إسلامي كبير، يؤجّجه "الإخوان المسلمون"، قد تصرّفت بحزم واتخذت تدابير قمعية ضد مختلف الجماعات الإسلامية الـــتي كانـــت تؤجّج ضواحي عمان. لكن هذا المنهج القمعي لم يتغلّب على أبي مـــصعب الزرقاوي الذي وبعد أن تمّ اعتقاله، أُطلق سراحه بفضل قانون عفو عام شمـــل السجناء السياسيين. وهكذا خرج أحد... الأكثر رمزية بعد أسامة بن لادن من السجون الأردنية في التاسع والعشرين من آذار عام 1999، والتي لن يعود إليها بعد ذلك أبداً.

(1) "جميع المتهمين بالتفجير هم من المسلمين المتدينين"، وكالة أنباء رويترز، 25 أيار 1994.

وعلى النقيض من بلاد عربية أخرى، لقد سمح الأردن بشكل قانوني، بوجود عـدّة أحزاب سياسية إسلامية بدءاً من عام 1989. وأهم تلك الأحزاب، "حزب العمل الإسلامي" ("Islamic Action Front", IAF) وهو تعبير مباشر عن جماعة "الإخـوان المسلمين". لقد تولى حزب العمل الإسلامي مسؤوليات سياسية على أعلـى المستويات، لا سيما حقائب وزارية عديدة[1]. وفي مناسبات عدّة، حاول هـذا الحـزب تعديل الخط السياسي للمملكة باتجاه الأصولية. لقد تدخل حزب العمـل الإسـلامي في تعـديل الكتب الدراسية، وسيطر على عدّة مجالس بلدية، ليفـرض نفسه، خلال التسعينيات، شريكاً لا غنى عنه للنظام الملكي الأردني. فهو ليس إذاً إلا واجهة شرعية "للإخوان المسلمين".

إن حـزب العمل الإسلامي الذي ضعفت شوكته خلال انتخابات تشرين الـثاني عام 1993، قد عاد بقوة بعد اتفاق السلام الموقّع في تشرين الأول عام 1994 بـين الأردن وإسرائيل، والذي رفضه الإسلاميون باعتباره "خيانة". إن هـذا الحـزب يُعمّق تأثيره في المدن الفلسطينية الكبرى في الأردن، لا سيما في "الـزرقاء "منطقة نفوذه. أما محافظ تلك المدينة، ياسر العمري، فهو ذو مركز هام في حزب العمل الإسلامي[2].

لقد انتقد حزب العمل الإسلامي بشدة معاهدة السلام والدور الحاسم الذي لعبـته الولايات المتحدة الأميركية للتوصّل إلى إبرامها. وفي الوقت نفسه، تُشجِّع جماعات متطرفة أخرى، مثل "حزب التحرير الإسلامي" أو "جيش محمد" مجاهديها علـى ارتكـاب أعمال عنف إزاء اليهود والغربيين. إن كثيراً من رفاق سلاح أبي مـصعب الزرقاوي من جماعته الإسلامية الأولى "بيعة الإمام"، كانوا قد انضمّوا في وقـت ما، إلى تلك التنظيمات التي هي مع ذلك منظمات غير قانونية في الأردن. إنهـم في غالبيتهم محاربون سابقون في أفغانستان. لقد أطلق هؤلاء الإرهابيون من

(1) "هل يمكن للإسلاميين أن يصبحوا ديمقراطيين؟ حالة الأردن"، صحيفة الشرق الأوسط، 1 تموز 1997.

(2) "عـشائر مديـنة الـزرقاء في حـال من الفوضى وهي على أبواب الانتخابات بينما يتصارع المرشحون لكسب أصوات النساء"، صحيفة التايمز الأردنية، 11 تموز 1999.

نوع جديد في الأردن على أنفسهم اسم "الإمام"، دون أن يكون بوسعهم أن يثبتوا صحة لقبهم. فمعظمهم لم يتلقَ سوى تعليم ديني مشوش.

هكذا نجد أن السياق السياسي الأردني في تسعينيات القرن الماضي كان يشبه بيئة ملائمة لزرع الميكروبات حيث تكاثرت فيه المنظمات الإسلامية والتيارات المتطرفة، لا سيما تلك ذات الاتجاه السلفي. إن السلفية، وبعد انتهاء حرب أفغانستان ضد السوفيات بقليل، هي الهوى السائد في أحياء مدينة الزرقاء. وفي هذه المدينة وحدها، حصل ثلاثة مرشحين من حزب العمل الإسلامي على 85% من الأصوات أثناء انتخابات العام 1993، وذلك عقب حملة مناوئة لإسرائيل على نحو جلي. إن التيار الإسلامي الأردني يشارك فلسطينيي الأراضي المحتلة مصالحهم[1]، في حين، أنه وطيلة العشر سنوات، غرقت مدينة الزرقاء في أزمة اجتماعية واقتصادية تعمّقت أكثر فأكثر[2].

ولد أبو مصعب الزرقاوي (المعروف أيضاً بأسمائه التالية: أحمد فضيل الخلايلة، أحمد فضيل نزال الخلايله، أبو أحمد، أبو محمد، أبو مهند، المهاجر، مهند، صقر أبو سويد، غريب) في 20 تشرين الأول عام 1966، باسمه الحقيقي، أحمد فضيل نزال الخلايله، في مدينة الزرقاء، في الأردن.

إنه ينتمي إلى عشيرة الخلايله، التي يحمل اسمها. وهذه العائلة الكبيرة ذات الأصل البدوي انتقلت إلى المعيشة الحضرية في الأردن منذ ما يزيد على قرنين من الزمن، وتشغل أحد أبرز المواقع على مسرح الزرقاء السياسي. نلاحظ على الفور أن الزرقاوي لم يكن إذاً من عائلة فلسطينية في الأردن، كما كان يزعم، كولين باول، في 5 شباط عام 2003، أثناء مداخلته في الأمم المتحدة. إن مجموع الوثائق والشهادات المتوفرة حول الزرقاوي لا تدع أي مجال للبس حول هذه النقطة[3].

(1) "هل يمكن للإسلاميين أن يصبحوا ديمقراطيين؟ حالة الأردن". مقال سبق الاستشهاد به.

(2) "عشائر مدينة الزرقاء في حال من الفوضى وهي على أبواب الانتخابات بينما يتصارع المرشحون لكسب أصوات النساء". مقال سبق الاستشهاد به.

(3) (وبخاصة) المقابلة التي أجريناها مع مهند حجازي، المدعي العسكري في المملكة الأردنية الهاشمية، 16 أيلول 2004.

وفــضلاً عن ذلك، قرّرت الدولة الأردنية، عام 2004، سحب جنسيته، كما سبق أن فعلت، السعودية عام 1994، مع أسامة بن لادن.

إن عشيرة الخلايله التي تتألّف من عدّة آلاف من الأفراد، تسكن قسماً كبيراً جــداً مــن مدينة الزرقاء، بالإضافة إلى تجمعات سكانية مختلفة أيضاً في ضواحي عمــان. ولأجل التخلص من تصرفات ابنها، أرسل ممثلو العشيرة رسالة إلى الملك عــبد الله الثاني، في 29 أيار عام 2004، يدينون فيها تصرفات الزرقاوي، ويردّدون يمين ولائهم للملك وللمملكة[1].

تنتمــي عــشيرة الخلايله إلى قبيلة "بني حسن" البدوية، وهي إحدى القبائل الأردنــية الأكثــر عدداً فأفرادها يزيدون على 200 ألف[2]. وهي تمتدّ إلى بلدان أخــرى في الــشرق الأدنى والأوســط، ومنها العراق. إنها إحدى القبائل البدوية الأكثر نفوذاً في المملكة. وهي تتقاسم السلطة القبلية مع بني حميدة والحدوان.

رغم أن قبيلة بني حسن متأصلة في مناطق شتى موزعة في بلدان عدّة، إلا أنها تتمتّع بوحدة وقدرة سياسية خاصتين، بدليل أن ممثل القبيلة في 16 تموز عام 2002 أدان بحــزم "الــسياسة الــشيطانية للولايات المتحدة" ضد العراق. وادّعى ممثلون آخــرون لبني حسن أنهم "عازمون عزماً حازماً على حماية العراق والحقوق العربية في كــل مكــان" وعلى "استمرار التضحية إلى أن تفشل المخططات الأميركية – الصهيونية في المنطقة"[3]. إن تلك المجموعة منظّمة على نحو استكفائي بقصد الدفاع عــن مــصالحها الخاصة. وهكذا توجد في الزرقاء منظمة خيرية تسمى "جمعية بني حــسن الإســلامية"، وهي مكرّسة لمساعدة أفراد القبيلة الأكثر فقراً. يشكّل بني حسن حلقة مركزية في الجهاز السياسي – الاجتماعي الأردني.

(1) "عشيرة الزرقاوي ترسل إلى الملك عبد الله تعاهده على الولاء"، صحيفة الرأي، 29 أيار 2004.

(2) غــازي بــن محمد، قبائل الأردن على أعتاب القرن الواحد والعشرين، عمان، صحيفة تراب، 1999.

(3) "القــبائل الأردنية تُعبّر عن التلاحم مع العراق" IPR، مركز المعلومات الاستراتيجية، 16 تموز 2002.

الفصل الثاني

"الرجل الأخضر"

نشأ أبو مصعب الزرقاوي في حي "معصوم"، بصحبة محمد، أحد أخويه وأخواته السبعة[1]، في بيئة متواضعة تشرّبت الإسلام المحافظ. إن حي "معصوم" مدينة - مهجع[2] وفيه الثقافة البدوية التقليدية تحاذي الحداثة. بينما نجد أبنية العاصمة المرتفعة ليست إلا على بعد دقائق بالسيارة. إن هذا الحي هو مهد قبيلة بني حسن. وهذا الحي الواقع في قلب الزرقاء، هو حي فقير (لكنه ليس مزرياً) ويمتدّ فوق مختلف الروابي المشرفة على المدينة. أما الطبيعة القاحلة فتسحقها حرارة لاهبة.

ولد أحمد فضيل في حي "معصوم" في 20 تشرين الأول عام 1966. ويشرف البيت الكبير البورجوازي ذو الطابقين الذي سكنته العائلة على مقبرة مهدمة للبلدة، حيث القبور لم تعد مصانة منذ زمن طويل. ومثل كثير من أفراد عشيرة "الخلايله"، فإن والد الزرقاوي، فضيل نزال محمد الخلايله، المولود عام 1926، هو محارب قديم متطوع في حرب عام 1948، كان موظفاً في بلدية الزرقاء حيث كان "مختاراً"، بمعنى آخر، مُصالحاً (conciliateur)، أي ذاك الذي يتوجّه إليه الناس

---

(1) إخوة وأخوات الزرقاوي هم: عائشة، ولدت في 1963، متزوجة، تسكن في الزرقاء؛ عليا، ولدت في 1968، متزوجة بخالد العاروري، تسكن في الزرقاء؛ فاطمة، ولدت في 1961، متزوجة، مقيمة في عمان؛ انتصار، ولدت في 1970، متزوجة، ومقيمة في عمان؛ مريم، ولدت في 1968، متزوجة بهيثم مصطفى عبيدات؛ رابية، ولدت في 1975، متزوجة، مقيمة في عمان؛ آمنة، ولدت عام 1973، متزوجة، مقيمة في عمان؛ محمد، ولد في 1965، متزوج، مقيم في الزرقاء وصايل، ولد عام 1959، متزوج ومقيم في السعودية. المصدر: تقرير شامل من BKA الشرطة الجنائية الألمانية) حول أبي مصعب الزرقاوي، 2004، وثائق الكاتب.

(2) Cite-dortoir، والمقصود بها حارات سكنية مملة، ليس فيها أماكن تسلية أو ترفيه. (المترجمة).

لحلّ منازعاتهم[1]. لقد مات الأب بعد عامين من تقاعده، عام 1994[2] واستفادت العائلــة من عطف البلدية التي قرّرت أن تعطي عشيرة الخلايله معاشاً. ومع ذلك فلقــد بــيع البــيت الكبير في حي معصوم واستبدل ببيت أكثر تواضعاً في حي "الرمزي"، في الزرقاء أيضاً.

إن ذاك الــذي ما زال يدعى أحمد فضيل نــزال الخلايله ترعرع في مواجهة مقــبرة البلدية في حي معصوم. صبي صغير، وقعت عيناه باستمرار على هذا المنظر الخــيالي الموشــى بالقبور الذي سوف يكون له على الأغلب أثر على شخصيته، والــذي سوف يثير لديه على الخصوص افتتاناً بالموت، في حال أخذنا بالاعتبار ما ذكــره عدّة أشخاص عرفوه وهو صغير[3]. ويختلف هذا الحي القريب عن عمان ومراكزها التجارية، بممراته المغفرة، وطرقه التي بالكاد مُزفّتة. وفي يوم الجمعة، يوم الصلاة، نجد كل النساء محجبات تقريباً، وغالبيتهن يرتدين أثواباً تصل إلى الكعبين.

إن الصبي أحمد فضيل تلميذ متوسط الاجتهاد. ويصفه معلمه بأنه تلميذ لديه "بعــض" الاســتعدادات الفكرية[4]. وكان نادراً ما يحصل، بين السادسة والحادية عــشرة مــن عمــره، علــى علامة "باء" في مدرسة الملك "طلال بن عبد الله" الابتدائية[5]. بعد ذلك قُبلَ في ثانوية الزرقاء.

في تلــك الثانوية – وهي أكبر منشأة مدرسية للذكور في محافظة الزرقاء – كان أحمد فضيل يجلس على المقعد الرابع إلى اليسار، بالقرب من النافذة، وبحسب معلمه في ذلــك الوقت، كان صبيّاً شارد الفكر لا يهتم بالدروس. وتلك الثانوية قريبة من الحي الرئيــسي الفلسطيني للمدينة، بمحاذاة الشارع الرئيسي الذي يؤدّي إلى عمان. وهي إحــدى ثانويات وكالة الأونروا (UNRWA) التابعة لهيئة الأمم المتحدة، تلك الوكالة التي شيّدت أساس البنية التحتية العامة المخصّصة للاجئين الفلسطينيين في المدينة.

(1) مقابلة مع عبد الله أبو رمان، موقوف سابق مع الزرقاوي، 8 تشرين الثاني 2004.

(2) شرطة الزرقاء، 2004، وثائق المؤلف.

(3) "تحت المجهر"، قناة الجزيرة، الأول من تموز 2004.

(4) مقابلة مع المعلم السابق لصف الزرقاوي، 15 أيلول 2004.

(5) "مقابلة مع زوجة أبي مصعب الزرقاوي"، صحيفة الدستور، 24 حزيران 2004.

تابع دراسته حتى الصف التاسع. وفي السنة الأخيرة من دراسته، عام 1982، حصل على معدل قليل هو 1,65 من مائة في المواد العامة، ولم يتميّز إلا في الرياضة والتربية الفنية[1]. وقتها قرّرت إدارة الثانوية إرساله وتوجيهه نحو التدريب المهني، لكن الزرقاوي رفض وفضّل التوقّف عن الدراسة، دون أن يعطي تفسيراً لمن يحيطون به. وأمضى معظم أوقاته في مقبرة معصوم عاطلاً عن العمل[2].

توفيت أمه، أم صايل، واسمها الحقيقي دالّه إبراهيم محمد الخلايله، من مواليد الزرقاء عام 1940، والتي كانت متديّنة تديّناً عميقاً. عقب إصابتها بسرطان الدم في 29 شباط عام 2004، لقد كانت تأسف على الدوام لعدم تمكّن ابنها من الحصول على شهادة. لقد أعلنت أم صايل أيضاً أن ابنها، الذي تصوّره وسائل الإعلام الغربية على أنه خبير عسكري حاذق، لم يكن يتمتّع بمستوى عالٍ من التعليم ولعلها في ذلك كانت تحاول تبرئته. بيد أن أم صايل تتذكّر أن الزرقاوي، أصغر أبنائها الثلاث، كان يتمتّع بقدرات فكرية حقيقية. وقبيل موتها، كانت لا تزال غير قادرة على فهم سبب ترك ابنها للمدرسة: "لقد حاولنا إقناعه بمواصلة الدراسة، لكنه رفض. ورغم أنها مجانية، فقد قال إنه لن يستمر فيها ولن يذهب إلى الجامعة"[3].

لقد فضّل الزرقاوي مدرسة الشارع. ويذكره رفاقه في اللعب صبياً صغيراً مثل الآخرين تقريباً، يلعب بالكرة في أزقة حي معصوم[4]. وأحمد فضيل الذي استولت عليه المعيشة المنحلّة لم يكن يتردّد على أماكن العبادة. إن الشهادات تتّفق في وصفه مراهقاً صاخباً، مشاغباً، وعنيف الطبع. ويقول ابن عمه، محمد الظواهرة، في شهادته: "لم يكن قوياً جداً، لكنه كان عنيداً مشاكساً"[5]. ويصفه المحيطون به في ذلك الوقت بأنه فتى متمرّد وغير مطيع.

(1) مديرية التربية المدرسية في الزرقاء، 2004، وثائق المؤلف.

(2) شرطة الزرقاء، 2004، وثائق المؤلف.

(3) "العراق يعبّر عن نفسه"، صحيفة لوس انجلوس، تايم، 12 آذار 2003.

(4) مقابلة مع أحمد فراس، جار قديم لعائلة الخلايله، 15 أيلول 2004.

(5) "رحلة الزرقاوي من العزلة إلى سجين إلى قائد للمعارضة المسلحة في العراق"، صحيفة نيويورك تايمز، 13 تموز 2004.

بعـــدما تـــرك الدراسة بقليل، باشر الزرقاوي حياته المهنية كعامل في مصنع للـــورق. كان مكلفاً بإدارة المنتجات الكيماوية التي تدخل في صناعة الورق. لكنه فُـــصل بعد شهرين، لتركه آلاته تعمل دون مراقبة. وحصل فيما بعد على عمل في دائـــرة الصيانة في بلدية الزرقاء. استفاد من وظيفة وقتية منحه إياها رئيس البلدية، الـــتي تحقّ له بسبب انتمائه إلى عشيرة الخلايله[1]. إذ وحسب تقليد المملكة يُعهد عـــدد مـــن الوظائف العامة إلى أبناء العائلات البارزة. فنجد عدداً كبيراً من أبناء عـــشيرة الخلايله في الجيش، والشرطة، والمؤسسات المحلية. إن المملكة تحافظ بهذا على نوع من التوازن الاجتماعي بين مختلف القبائل[2].

بيد أن المؤسسات الوطنية والمحلية ستُدرج أهدافاً أولى للزرقاوي عندما سيقود تنظيم "بيعة الإمام".

إن الزرقاوي وهو موظّف بلدية، مثله مثل كثير من الشبان الأردنيين من جيله في نهايـــة ثمانينيات القرن الماضي، اجتاحه التعطل عن العمل والخوف من المستقبل. إن الإصلاحات الاقتصادية الكبيرة والخصخصات الأولى التي تمّت، أغرقت الشباب في عدم استقرار اقتصادي واجتماعي[3]. وبحسب الشهادات المستقاة من أصدقائه في ذلك الوقت، فإن ذلك الشاب الموظف يشغل وظيفة لا تلبي طموحاته العميقة. لقد وصف بأنه شاب مثالي، لكنه في الوقت نفسه سريع الغضب وصعب المراس. لقـــد تلقّى توبيخين بسبب إثارته مشاجرات، وانتهى به الأمر مفصولاً من العمل بعـــد ســـتة أشـــهر من توليه[4] وذلك في العام 1983. ويصفه أحد جيرانه، وهو إبـــراهيم عـــزت، بأنـــه "رجـــل... الأصـــل ومنعزل، وبعيد جداً عن الاندماج الاجتماعـــي"[5]. لقـــد بحث الزرقاوي عن وسيلة للانعتاق وللخروج من العمل الثانوي الذي رأى أنه قد تورّط فيه. لقد تطلع لإعطاء معنى لحياته ولبناء مستقبله.

(1) شرطة الزرقاء، 1987، وثائق المؤلف.

(2) "مقابلات صحفية مع جيران الزرقاوي، وزملائه في السجن"، صحيفة الشرق الأوسط، 8 آذار 2004.

(3) المصدرنفسه.

(4) شرطة الزرقاء، 1987، وثائق المؤلف.

(5) مقابلة مع إبراهيم عزت، 15 أيلول 2004.

وفي العـــام 1984، حـــان موعد التجنيد الإلزامي. وأدّى الزرقاوي في سن الثامنة عـــشرة، خدمـــته العسكرية لمدة عامين. وعاد إلى الزرقاء عام 1984، عاطلاً عن العمـــل وعاش حياة منحلّة. وتحوّل الشاب الموظف غير المنضبط إلى زقاقي، يخشاه الشبان الآخرون. ويقول أصدقاؤه في ذلك الحين أنه غرق في المشروبات الكحولية وغطّـــت الوشوم جسمه، وهما عملان يحرّمهما الإسلام. وكانوا يلقّبونه "بالرجل الأخـــضر"، لكثرة الوشوم على جسده، وبخاصة على ساعديه وكتفيه. وحتى أنه أبـــرز للعـــيان مرساة على يده اليسرى، رمز تعلّقه بالبحر، وثلاث نقاط زرقاء في أســـفل إبهامه[1]. وهذا عمل، في حالته، يشير بوضوح إلى حاجته للتميّز في مجتمع الـــزرقاء الـــضيق الذي يتحرّك فيه بالرغم منه. وحاول عام 1998، أن يمحو تلك العلامات مستخدماً حمضاً كيماوياً[2].

في غـــضون بضعة أشهر، اكتسب صيت فتى زقاقي ذي طبع نـــزق. وقد واجه الشرطة المحلية في مرات كثيرة، مسبّباً الضرر لأبيه، الذي كان أحد أعيان المدينة، بيد أن الزرقاوي كان ابنه المفضّل أيضاً. زد على ذلك أنه كان يتوجّب على أبيه وأحد أعمامه الذهاب بانتظام للبحث عنه في مركز الشرطة. وفي العام 1987، جرح بطعنة سكين شاباً من الحي. وبقي أربعة أيام في حجز مؤقت قبل أن يُحكم عليه بالسجن لمدة شهرين. وفي نهاية الأمر أُعفي من العقوبة لقاء دفع غرامة كبيرة[3]. كما أوقف لعدّة مرات بسبب سرقته لأشياء معروضة ومتاجرته بالمخـــدرات. وحتى أنه استجوب بشأن محاولة اغتصاب. لم يكن الزرقاوي، في ذلك الوقت، متديناً على الإطلاق، بل على العكس: كل ما في سلوكه يخالف التعالـــيم الأساسية للقرآن. لقد بحث المراهق في غمرة الأزمة عن طريقه في أزقة الزرقاء.

---

(1) مقابلة مع مدير أمن سجن السواقة، 16 أيلول 2004.

(2) مقابلة مع عبد الله أبي رمان، موقوف سابق مع الزرقاوي، 8 تشرين الثاني 2004.

(3) شرطة الزرقاء، 1987، وثائق المؤلف. انظر أيضاً الملحق الأول صفحة 288.

الفصل الثالث

الانطلاق الكبير

على مسافة غير بعيدة من الثانوية التي غادرها الزرقاوي قبل الأوان، يقع مسجد الفلاح، الواقع في نطاق مخيم اللاجئين الفلسطينيين الرئيسي في الزرقاء. إن هذا المسجد الذي يتمتّع باستقلال ذاتي وسط المخيم، يضمّ شباناً فلسطينيين هم الأكثر تطرفاً. لقد اكتسب فيه الزرقاوي أصدقاء جدد، يدافعون عن إسلام مُسيَّس إلى حدٍّ كبير. واعتنق مبادءهم بنفس الحماس الذي كان يهبه للعراك والشرب قبل بضعة أشهر. لقد تردّد لأشهر على هذا المكان الفلسطيني المحصور في الزرقاء. ورغم أنه أردني الأصل، إلا أنه اكتسب بسرعة ثقة الشبان الفلسطينيين في الأردن، وأكّد نفسه زعيماً لزمرة محترمة الجانب.

ولتعيد ابنها إلى جادة الصواب، سجّلته أمه في التعليم الديني في مسجد الحسين بن علي، في قلب عمان. حيث أمضى معظم وقته في أواخر الثمانينيات. إن ذلك المسجد باتجاهه السلفي اعتبر آنذاك مرحلة ضرورية قبل الذهاب "للجهاد" في أفغانستان ضد السوفيات. ويتذكّر الشيخ السلفي "جرّاح القدة"، وهو واعظ في مسجد الحسين بن علي، أنه التقى بالزرقاوي عندما لم يكن ذاك الأخير يؤدّي بعد واجباته الدينية. وذكر في شهادته، أن الزرقاوي المتشوق بدوره لتجربة المغامرة الأفغانية، أذعن بسرعة كبيرة للمطالب الدينية الجوهرية: فتوقف عن شرب الكحول، وحضر بانتظام مواعظ الأئمة الحماسية[1]. إن منظور القتال في أفغانستان قدّم للزرقاوي أفضل سبل الهروب وإمكانية اختيار قدره، أخيراً.

في العام 1989، وبعد عدّة أشهر من التحضير، قرّر أبو مصعب الزرقاوي، وكان في ذلك ضرر لأهله، أن يغادر الأردن بصحبة شبان آخرين إلى أفغانستان،

(1) "تحت المجهر"، الجزيرة، الأول من تموز 2004.

عـن طريق بيشاور، في باكستان. في ذلك الوقت، لم يكن الزرقاوي بعد قد اعتنق التطـرف، بل كان مكتفياً بالاستيعاب الدقيق لتعاليم الإيديولوجية السلفية. أثار قـرار الزرقاوي نـزاعاً عنيفاً مع أبيه، الذي رأى أنه كان من الأفضل لابنه لو أنه مارس "مهنة حقيقية" في الأردن. واحتفظ الأب طويلاً بندوب من هذا الشقاق[1].

وسرعان ما استقرّ الزرقاوي ورفاقه في "حياة آباد"، وهي مدينة في ضواحي بيـشاور أصبحت قاعدة خلفية للمجاهدين الأفغان والعرب. وتقع حياة آباد عند سـفح "ممر خيبر"، وهو موقع استراتيجي للغاية يؤدّي إلى "جلال آباد" وساحات الوغـى الأفغانـية. طيلة التسعينيات، كانت المدينة عريناً للقاعدة، وعندما استقرّ الـزرقاوي في حياة آباد، كان أسامة بن لادن فيها، في الحي الرابع تحديداً، حيث أنـشأ طلائع شبكات تنظيمه الذي كان قد أسّسه قبل بضعة أشهر، في أيلول من العام 1988.

إن حـياة آباد، مدينة الحامية العسكرية، تُجمّع مجدداً، على نحو خاص، جحافل المجاهدين العرب القادمين لتعزيز الصفوف الأفغانية. وينـزل أبرز المقاتلين الإسلاميين في "بـيوت ضيافة" تلك المدينة، حيث يتلقاهم عبد الله عزام، وقلب الدين حكمتيار، وأبو محمد المقدسي. إن بيوت الضيافة تلك (safe house أو guest house)، هي مقارّ إقامة حقيقية آمنة، تأوي تحت سقف واحد وعاظاً ومقاتلين.

تـتكفّل عقـول الجهاد المفكرة بتنظيم المقاتلين وبتوجيه هؤلاء الشبان الذين يـتدفّقون من العالم أجمع. والمرحلة الأولى هي: "مكتب الخدمات" وفريق عبد الله عـزام. ثم يُحوَّلـون فيما بعد إلى المعسكرات الواقعة في المناطق التي يسيطر عليها مخـتلف أمـراء الحرب في أفغانستان، أي قلب الدين حكمتيار، وعبد الله سيَّاف، وبـرهان الدين رباني. وأحياناً، فإن بعضهم، وقد تعرض لهذه الإحاطة الصارمة، يظـل في بيشاور، ويمتنع عن الذهاب لقتال أخوة عرب آخرين على الجانب الآخر من الحدود[2].

---

(1) مقابلة مع محمد الحراحشه، ابن أخت الزرقاوي، 15 أيلول 2004.

(2) "أفغاني عربي يقول إن قوة مقاومة أسامة بن لادن توسّعت"، صحيفة الشرق الأوسط، 6 أيلول 2001.

في ربيع العام 1989، وبعد عدّة أيام من الانتقال، وجّه الزرقاوي، بصحبة مقاتلين جدد آخرين، نحو خوست، في شرق أفغانستان. وعندما وصل، كانت الحرب ضد السوفيات قد انتهت لتوها. لقد شاهد سقوط خوست تماماً، قبل أن يستطيع أن يدخلها كمحرر. وتبقى المدينة مع ذلك الرهان الاستراتيجي الأكبر، إذ، وبعد مرور عامين، في العام 1991، ستواجه الفصائل المنافسة لنظام نجيب الله المؤيد للشيوعية معارك عنيفة. ولقد شارك الزرقاوي وقتذاك في الاستيلاء على المدينة من جديد[1].

منذ العام 1988، التزم الجيش السوفياتي سحب كامل قواته من أفغانستان، وفعلياً في شباط عام 1989، غادر السوفيات الجبال الأفغانية. لكن الزرقاوي وصل متأخراً جداً للمشاركة في القتال ضد الروس. وهكذا وبعد سنوات عديدة أمضاها في جُنح صغيرة في الزرقاء، ها هو ذاك الشاب الأردني يفوّت موعده الأول مع القدر: حرب أفغانستان الأولى. لأجل هذا، سيشهد المعارك التي تناوئ الأحزاب الإسلامية والمؤيدة للشيوعية حتى عام 1993. لقد غرقت أفغانستان آنذاك في غمرة حرب قبلية للاستيلاء على كابول.

بعد أسابيع من وصوله إلى الأرض الأفغانية، قرّر الزرقاوي أن يطيل مغامرته. حيث أكثر من الذهاب والإياب المنتظمين بين مناطق الحرب الأفغانية وحياة آباد. لقد كان "العرب" على كل جانب من جبل "خيبر" يتمتّعون آنذاك بوضع المنتصر. ويحتلون موقع قوة في كلا البلدين. وفي هذا السياق عقد الزرقاوي لقاءات هامة عدّة وخاصة مع عصام محمد طاهر البرقاوي (المعروف بأبي محمد المقدسي)، الذي التقى به حال وصوله إلى بيشاور، في باكستان عام 1989[2]. سيصبح المقدسي، اعتباراً من العام 1992، الأب الروحي للزرقاوي. ففي رسالة وجّهها هذا الزعيم الديني للزرقاوي، مؤرخة بعام 2004 ومكتوبة من سجن "قفقفا" الأردني حيث هو

(1) "المحاربون القدماء العرب في الحرب الأفغانية يدعمون الأحزاب الإسلامية المنشقة في الشرق الأوسط"، وكالة الأسوشيتدبرس، 25 تشرين الثاني 1992.

(2) اعترافات أبو مصعب الزرقاوي، محكمة أمن المملكة الأردنية الهاشمية، قرار 95/300، 31 آب 1994، وثائق المؤلف.

معتقل، يذكر المقدسي بإسهاب صداقته للزرقاوي ولقاءهما في بيشاور، في منزل أبي وليد الأنصاري، وهو منظّر آخر للجهاد[1].

لقد غادر المقدسي الكويت وعمره ثلاثون عاماً ليستقر في باكستان[2]. وبخلاف الزرقاوي، فإنه يتمتّع بمعلومات مرجعية إسلامية مكينة. ولد عصام محمد طاهر البرقاوي عام 1959 في مدينة برقة، بالقرب من نابلس، في الضفة الغربية، وهاجر مع عائلته وعمره حوالى 3 سنوات إلى الكويت، حيث بقي هناك حتى أواسط الثمانينيات. ذهب بعد ذلك إلى العراق ليتابع دراساته الإسلامية. إن المقدسي الذي اعتُبر سلفياً معارضاً لنظام صدام حسين البعثي والعلماني، اعتقلته أجهزة الأمن العراقية وطردته إلى السعودية. أقام المقدسي وقتذاك في مكة وأدّى، اعتباراً من العام 1984، مهمات تتعلّق بمساع حميدة متنوعة لجهة "الرابطة الإسلامية العالمية" التي تعمل في أفغانستان. وفي العام 1988، نسج المقدسي روابط وثيقة مع تنظيم آخر متطرف متمركز في الكويت وهو: "جمعية إحياء التراث"، التي تسمى أيضاً: Society of the Revival of the Islamic Heritage (والمعروفة بـ SRIH)[3]. لقد تمّ إقامة الرابط بين هذه المنظمة "الخيرية" الكويتية والإرهاب الإسلامي عدّة مرات. إنها اليوم محظورة في روسيا، وتتّهمها بريطانيا العظمى بدعمها للإرهاب[4]. وفضلاً عن ذلك فإن وزارة الخزينة الأميركية قد أشارت إليها باعتبارها منظمة إرهابية وذلك في الأول من أيلول عام 2002[5]. كما جمّدت الحكومة المصرية أموالها.

يعتبر المقدسي أحد الإيديولوجيين الأبرز مكانة في الفكر السلفي في الشرق الأوسط. وفكره مصدر إلهام لكثير من مرشحي "الاستشهاد". وهكذا، فقد عثر

(1) رسالة بعنوان "نصائح من الشيخ المقدسي إلى أبي مصعب الزرقاوي"، 2004، وثائق المؤلف.
(2) اعترافات أبو محمد المقدسي، محكمة أمن المملكة الأردنية الهاشمية، قرار 95/300، في 31 آب 1994، وثائق المؤلف.
(3) المصدر نفسه.
(4) "المحكمة الروسية العليا تحظر خمس عشرة منظمة إسلامية"، وكالة إنترفاكس، 12 شباط 2003.
(5) OFAC، وزارة الخزينة الأميركية، قائمة SDGT الصادرة في الأول من أيلول 2002.

علــى حــوالى ثمانــية عشر مقالاً ومنشوراً للمقدسي في هامبورغ في المتعلقات الشخصية لمحمد عطا، المنسِّق العملياتي[1] لاعتداءات الحادي عشر من أيلول.

بقــي المقدسي ثلاث سنوات في بيشاور. وبفضل عمق معارفه الدينية، دعته إلى باكــستان جماعــة "بدافات (أو بدافيت) المجاهدين" بوصفه أستاذ دين. وبعد مــرور عــامين، ترك تلك الجماعة لينضمّ إلى المركز الأصولي "جامع الرحمن" في بيــشاور. وخــلال تلــك الفترة، تابع الزرقاوي تعليمه الديني على يد المقدسي وسرعان ما توطّدت الصداقة بينهما. لاحقاً، سيقول المقدسي لــدائرة المخابرات العامة الأردنية (GID) أنه كان قد رسَّخ "صداقة وطيدة" مع الزرقاوي[2]. إن هذا الأخــير كان تواقاً للتعلّم على يد المقدسي، الذي كان معروفاً آنذاك كإيديولوجي ذي شخصية فذّة.

لقــد ظهر المقدسي، طيلة عقد التسعينيات منظّراً ومتمرّساً خطيراً في الإسلام المتطــرّف في آن معاً. إنه في الواقع وراء ظهور مختلف التنظيمات السنّية المتطرفة، كمــا كان موضع اتهام بسبب اعتداءات عديدة أو محاولات اعتداء. فها هو اسمه، علــى ســبيل المــثال، يظهر في اعترافات أحد السعوديين الموقوفين عام 1996 في أعقاب اعتداء "الخُبَر"، الذي شُنَّ ضد مصالح أميركية في المملكة العربية السعودية، في تــشرين الأول مــن العام 1995، والذي أودى بحياة خمسة أميركيين. في العام 1996، صــرّح عبد العزيز فهد نذير المعثم، قبل إعدامه قائلاً: "التقيت في الرياض بشباب، ذكرت أسماءهم آنفاً أثناء التحقيق. وكانوا قد شاركوا في الجهاد الأفغاني. وفي أفغانستان، كان قد التقوا بأناس من مختلف الجنسيات وجرى إقناعهم [...]. وقد دأبنا مع هؤلاء الشباب على تلقي وثائق ترويج الدعوة للمسعري، ولأسامة بن لادن، ولأبي محمد عصام المقدسي أيضاً. لقد قرأنا كذلك وتبادلنا كتباً تؤكّد على أن القــادة العرب هم "غير مؤمنين"، مثل الكتاب الذي يحمل عنوان: "الكواشف الجلــية في... الدولــة السعودية"، وكتاب "ملّة إبراهيم"، اللذين كتبهما أبو محمد المقدسي. وما إن قرأت كتاب "ملّة إبراهيم"، حتى استبدّت بي لهفة لزيارة أبي محمد

(1) عملياتي: ذو علاقة بالعمليات الحربية.

(2) المملكة الأردنية الهاشمية، محكمة الأمن، قضية "بيعة الإمام"، 95/300 وثائق المؤلف.

المقدسي، والحقيقة، أنني التقيت به مرات عدّة في الأردن واقتنعت بأفكاره"[1].

لقد ازدهرت في نهاية الثمانينيات عدّة تيارات عقائدية إسلامية متطرفة. وكان أشهر منظّري الجهاد في ذلك الوقت هو عبد الله يوسف عزام (المعروف بعبد الله عزام)، الذي ولد في لواء جنين، في فلسطين، عام 1941، وكان تلميذاً بالغ الموهبة. وبعد أن تلقّى عبد الله عزام دراساته القرآنية في سوريا، نال شهادة ذات اعتبار في الشريعة من جامعة الأزهر عام 1971. وعمل مدرّساً لأحكام القضاء الإسلامي في جامعة الملك عبد العزيز السعودية في جدة، في العام 1979، قبل أن يلتحق بالجهاد الأفغاني في بداية الثمانينيات. حيث أنشأ قاعدته الخلفية في بيشاور حيث التقى بأسامة بن لادن، وسرعان ما أصبح أستاذه في الفكر.

لكن عبد الله عزام ليس الإيديولوجي الوحيد للتطرف الإسلامي في نهاية الثمانينيات. فهناك منظّرون آخرون متطرّفون شاركوا في تثقيف جماعة القاعدة، ومن بينهم المقدسي. لقد كشف التحقيق السعودي حول اعتداءات الخُبر من جهة أخرى الدور الفعّال الذي قام به المقدسي في التحضير للعملية.

في أيار عام 1997، اعتقلت الأجهزة الأردنية في حي صويلح، في ضاحية عمان أستاذاً في جامعة اليرموك، وهو الدكتور أسامة ياسين أبو شامه. وكانت تربط هذا الأخير علاقة وثيقة بالمقدسي، وستثبت السلطات لاحقاً أنه كان قد ساهم في تمويل عملية الخُبر: لقد كان يعمل إذاً لجماعة "بيعة الإمام".

ووفقاً للشرطة الأردنية، في العام 1997، فإن قسماً من نشطاء المقدسي المتطرفين قد موّلهم من أفغانستان أسامة بن لادن شخصياً[2]. إن هذين الرجلين المعروفين بتقاربهما، كانا قد التقيا مرات كثيرة في أفغانستان، وفي باكستان خصوصاً، القاعدة الخلفية للمقاتلين العرب. ويتذكّر أحد أوائل شركاء أسامة بن لادن في أفغانستان، وهو المجاهد ذو الأصل الجزائري عبد الله أنس، المنفي اليوم في

(1) "جدل صحفي حول حكم قضائي بتسليم متهم أردني إلى الولايات المتحدة الأميركية"، هيئة الإذاعة البريطانية (الأردن)، 2 كانون الأول 1996.

(2) "اعتقالات لأشخاص تقول التقارير الصحفية أنهم على علاقة بالعقول المدبرة لتفجير الخُبر"، هيئة الإذاعة البريطانية (برنامج الحدث)، 28 أيار 1997.

لـــندن، أنه شارك أسامة بن لادن، وعبد الله عزام والمقدسي الطعام في إسلام آباد عام 1994[1]..

باختـــصار، إن المقدســـي موجود في قلب شبكة القاعدة، وحدث هذا، منذ بدايات التنظيم.

وهـــنالك واقعة أكّدها جمال الفضل، وهو تائب من الجماعة المتطرفة سبق له أن تـــولى مهامـــاً قيادية لدى أسامة بن لادن: لقد حملت شهادته معلومات بالغة الأهمية حول الدور الذي قام به المقدسي وسط القاعدة.

لقـــد قـــال الفضل إنه التقى المقدسي في إطار نشاطات ذلك التنظيم. وكان المقدســـي قد نشر لتوه مؤلّف "البراهين الدامغة للبدء في الجهاد". وهو القريب من بعض المقاتلين العرب في باكستان وفي أفغانستان، لقد حافظ المقدسي على صداقة وطـــيدة مع متطرف آخر يدعى "أزميري"[2]. وهذا الأخير سيُتهم بقضية المؤامرة المـــسماة "بوجيـــنكا"، التي ترتكز على تحطيم عدّة طائرات في وقت واحد فوق الـــولايات المتحدة. لقد بشّر هذا المخطط، الذي تمّ إحباطه عام 1994، باعتداءات الحـــادي عـــشر من أيلول. ومن جهة أخرى فإن الأزميري التقى في مانيلا بمبتكر فكـــرة الحـــادي عشر من أيلول، خالد شيخ محمد. وقد يكون قد شارك أيضاً في محاولـــة الاغتيال الفاشلة للرئيس الأميركي بيل كلينتون أثناء سفره إلى أفريقيا عام 1998.

إن الـــصديق الـــثاني القريب من المقدسي في باكستان، هو محمد شُبانة (أو شَبانة)، الذي يدير مجلة إسلامية هي "البنيان المرصوص"، ويساعده فيها على وجه خـــاص عبـــيد شـــيخ محمد، شقيق مبتكر فكرة الحادي عشر من أيلول. إن تلك المطـــبوعة التي يراجعها أصدقاء الشيخ عبد الله عزام، معروفة بقربها من المجاهدين والتنظـــيم المركزي للقاعدة. وهكذا، وفي عددها الصادر في تموز من العام 1989، نشرت المجلة مقالاً افتتاحياً مبيّنة الأهداف الحقيقية لجماعة القاعدة: "إن من واجب

(1) "أفغاني عربي يقول إن قوة مقاومة أسامة بن لادن قد توسّعت"، مقال سبق الاستشهاد به.

(2) أزمـــيري، واسمه الحقيقي والي خان أمين شاه، هو مشهور أيضاً باسم الأزماري (المعروف بـــ أزمري، أزموري، أوسموري).

كل مسلم تحقيق أهداف الجهاد إلى أن نهاجم أميركا ونحرّرها". إنها أولى التصريحات المنادية بالجهاد ضد الولايات المتحدة. إذاً، إنه مدير "البنيان المرصوص"، محمد شبانة، الذي جنَّد بناء على توصية من المقدسي، الشاب الزرقاوي، بعد وصوله إلى باكستان ببضعة أسابيع - ذلك الشاب الذي يكتب العربية بخط رديء جداً.

إن اللقاء الحاسم الآخر الذي أجراه الزرقاوي في باكستان هو لقاؤه مع صالح الحامي، وهو مقاتل من فيالق العرب، والذي أصبح صهر الزرقاوي فيما بعد. إن صالح الحامي ذا اللحية الطويلة السوداء والساق الاصطناعية، هو أحد طلائع المقاتلين. إنه أردني أيضاً، وقد درس الصحافة في جامعة إربد، في الأردن. وعمل حتى العام 1992، أي عام مغادرته باكستان ليعود إلى الأردن، مراسلاً لمجلة "الجهاد"، التي أسّسها عبد الله عزام، مرشد أسامة بن لادن.

بينما كان صالح الحامي في دور النقاهة في مستشفى في بيشاور، بعد أن انفجر به لغم مضاد للأفراد في جبال خوست، في أفغانستان، التقى بأبي مصعب الزرقاوي الذي كان حاضراً في مكان الحادث، وقد شاهد نقل الحامي إلى بيشاور عبر"ممر خيبر". لقد أعجب الزرقاوي بشجاعة الرجل الجريح وزاره بانتظام في مستشفى بيشاور. ويتذكّر صالح الحامي: "لقد رآني الزرقاوي والدم يغطّيني عندما كنت مصاباً. وما إن استعدت عافيتي، حتى أقبل نحوي، وقدّم نفسه إليّ قائلاً إنه يعمل لصحيفة "البنيان المرصوص" بصفته مراسلاً. كان يريد أن أعلّمه بعض تقنيات المراسلة والنشر. وقمت بذلك عن طيبة خاطر، وعلاقتنا بدأت منذ ذلك اليوم"[(1)].

كان عمر الزرقاوي وقتذاك 23 عاماً. وكان مقر الصحيفة التي استخدمته في مدينة بيشاور نفسها. لقد كان يقوم بذهاب وإياب منتظمين بين أفغانستان وباكستان.

في ذلك الوقت، كان الزرقاوي شاباً نحيفاً طوله 176 سم، أسود العينين،

(1) "تحت المجهر"، مقال سبق الاستشهاد به.

يجوب أرجاء أفغانستان ليجمع شهادات من فم مقاتلين عرب، انتصروا في حرب فاتته منذ عدّة أشهر. كانت الصحيفة التي يكتب لها مقالاته الدعامة الإيديولوجية للقاعـــدة في ذلـــك الـــوقت. لقد حاول المراسل المرتجل، الذي يفتقر إلى الخبرة الصحفية والمعرفة الثقافية، أن يبني لنفسه شخصية إلى جانب هؤلاء المقاتلين الذين أعجـــب بهم كثيراً. إن أولئك الذين عرفوه في ذلك الوقت يتذكّرونه شاباً يبحث عـــن إرشاد وهوية، ويتلهف تلهفاً شديداً للتعلم. عند المساء، في ركن دافئ، كان الشاب الزرقاوي يلوذ بالقرآن جهاراً ويمضي لياليه في الصلاة.

بمـــرور الشهور، ازداد تقرّب الزرقاوي من صالح الحامي. وكعربون صداقة، اقترح على رفيقه الجديد الزواج بإحدى أخواته الباقيات في الأردن. وقبل الحامي، وفي العـــام 1991، وصـــلت الـــشابة إلى بيشاور لاحتفال العرس. إنه تقليد لدى الخلايلـــه أن يزوجوا بناتاً من العائلة للمجاهدين في سبيل الإسلام. وهكذا نجد أن أخـــوات أخـــريات للـــزرقاوي تزوّجن من مجاهدين أشداء. فقد تزوجت علياء، المولودة عام 1968، بخالد العاروري، أحد العسكريين الأكثر قرباً من الزرقاوي في أفغانـــستان ثم في العراق، وتزوجت مريم من هيثم مصطفى عبيدات، المعروف بأبي حسن، وهو محارب سابق في الجهاد الأفغاني[1]. لقد رسّخ هذا الزواج الصداقة بين الـــرجلين وفي هـــذا السياق يؤكد الحامي: "بعد ذلك، خالطته كثيراً وأحببته"[2]. وعـــندما عـــاد إلى الأردن أقام مع زوجته على بعد بضعة أمتار من منـــزل عائلة الزرقاوي، في حيِّ الرمزي، في الزرقاء.

لقد تبادل الرجلان التقدير وتقاسما الرؤية نفسها لإسلام فاتح. وما زال صالح الحامي إلى اليوم يعتبر أسامة بن لادن أسوة: "إنه رجل عظيم، إنه قدوة لنا جميعاً. إنـــه الخليفة الجديد. إن الأمر كما لو أن النبي محمد قد عاد إلى الأرض من السماء السابعة ليكون بيننا"[3].

وبينما كان الرجلان يمضيان ليلة في كهف، يتذكّر صالح الحامي أن الزرقاوي

(1) تقرير شامل من (الشرطة الجنائية الألمانية BKA) حول أبي مصعب الزرقاوي، 2004، وثائق المؤلف.

(2) المصدر نفسه.

(3) "سرُّ الزرقاوي"، مجلة الاسبريسو، العدد 39، 30 أيلول 2004.

روى لـــه حلماً: كان قد رأى سيفاً يشقّ السماء، وقد نُقشت كلمة "الجهاد"على نصله[1].

أمـــضى الحامي والزرقاوي أشهراً عدّة معاً في أفغانستان قبل أن يعود الحامي إلى الأردن مـــع زوجته التي – حسب قول زوجها – كانت تحمد الله لزواجها من رجل مستضعف الجسم ذلك لأن "الله يُكرم المعاقين والمجاهدين"[2]. وبعد أن أعلن أن أخاهـــا "إرهـــابي دولي"، حجـــزت لـــست ساعات على الحدود الأردنية – السعودية، أثناء سفرها لأداء الحج في مكة، بحجة أنها شقيقة أبي مصعب الزرقاوي. مـــا زال الحامـــي يحتفظ بذكرى الأوقات الطيبة التي أمضاها مع شقيق زوجته في أفغانـــستان إذ يقـــول: كانت فترة رائعة، حياة مدهشة، حيث عشت أفضل أيام حـــياتي [...]. كنت أشعر أنني ولدت من جديد عندما ذهبت إلى هناك. كانت تلك هي الحياة الحقيقية"[3].

تلـــك الرحلة إلى أفغانستان هي بالضبط رحلة تدريب. إذ اكتشف الزرقاوي بلـــداً مدمراً وقارن نفسه مع الآخرين، وخاصة مع أمراء حرب كثيرين عرب أو أفغـــان كان عليه أن يحترمهم ويبجلهم. تعلّم ابن الزرقاء الحياة. لكن أفغانستان في النهاية كانت بلداً متعدّد الرهانات، تطمع فيه فصائل متنافسة، وجحافل من العرب ومقاتلـــون أفغان. و لم يكن الشاب الزرقاوي يمتلك، والحال تلك، الثقافة اللازمة ليفرض نفسه في هذا المحيط المعقد، كما كان معدوماً من الناحية المالية. لذلك فإنه اجـــتهد في نـــسج روابط مع أولئك السابقين الذين من المحتمل أن يدعموه خلال إقامته الأفغانية، بدءاً من المقدسي الذي فتح له أبواب منظماته الإسلامية.

انـــتهت الحرب ضد النظام السوفياتي تماماً. وانتصر المجاهدون، إنما بمساعدة خارجـــية. لكنّ صراعاً آخر داخلياً سرعان ما احتدم بين الفصائل المتنافسة. كل قبـــيلة تدافع عن مشروع حكومي تبعاً لخصوصياتها القبلية، والعرقية، والإقليمية، والمذهبـــية أو الدينـــية. وتبلغ المواجهات ذروتها عند القتال من أجل السيطرة على

(1) "تحت المجهر"، الجزيرة، مقال سبق الاستشهاد به.

(2) المصدر نفسه.

(3) "الزرقاوي يسلك طريقاً عشائرياً في الإرهاب"، مقال سبق الاستشهاد به.

كابـــول. وفي أيار من العام 1992، دخل أحمد شاه مسعود، وهو إسلامي معتدل مـــن الطاجيك، العاصمة مع عدّة آلاف من الرجال وأصبح وزيراً للدفاع. وظلّت التوتـــرات حـــادة جـــداً، وبعد انقضاء عام، ظلّ النـــزاع حاضراً. وعلى الرغم مـــن اتفاق السلام المبرم بين الفصائل المتنافسة، تتواصل المعارك في جنوب كابول. وفي 7 أيـــار مـــن العام 1993، يستقيل أحمد شاه مسعود، وتتشكّل الحكومة ثانية حـــول الزعيم المتطرف قلب الدين حكمتيار، العقل المفكر لطالبان، والمدافع عن القاعدة.

إذا كانـــت الحـــرب ضـــد السوفيات قد فاتت أبا مصعب الزرقاوي، فإنه سيـــشارك في الموجة الثانية من المعارك، وهي معارك الحرب الأهلية. ويختار بسرعة الالـــتحاق بمعسكر الباشتوني قلب الدين حكمتيار، ممثل الأغلبية العرقية. وهكذا، وبعـــد بـــدايات تجربته الصحفية الأولى بقليل في وسط الصحيفة المتطرفة "البنيان المرصـــوص"، تخلّـــى عن القلم ليحمل السلاح. وخاصة إلى جانب "جلال الدين حقاني"، أمير الحرب الأفغانية، الذي، وبدءاً من العام 1995، اشتهر بإعداد كوادر طالـــبان وسط madrasa - أي مدرسة قرآنية - هي "دار العلوم الإسلامية"، في مديـــنة شـــرذاده. لقد عبّر أسامة بن لادن عن حزنه، في خطبة موجزة على قناة الجزيـــرة، من تمكّن الهجمات الأميركية في أفغانستان من قتل جلال الدين حقاني، هذا "البطل [...] الذي رفض الاحتلال الأميركي لأفغانستان"[1].

لقـــد تردّد الزرقاوي في أفغانستان، على عدّة معسكرات تدريب عسكري، وخاصة معسكر "صدى"، حيث تدرّب فيه على استعمال أسلحة الحرب من طراز كلاشينكوف أو الآر بي جي[2]. وكان يدير "صدى" رجل من أصل عراقي يلقب بـــأبي بـــرهان العراقي، وهو مساعد قريب من عبد الرسول سيّاف، المرشد الأول لحـــزب الاتحاد الإسلامي، الذي سيطر على منطقة القتال حول كابول عام 1993[3].

(1) رسالة أسامة بن لادن التي بثّتها قناة الجزيرة في 26 كانون الأول 2001.

(2) اعتـــرافات أبي مصعب الزرقاوي، محكمة أمن المملكة الأردنية الهاشمية، قرار 95/300، 31 آب 1994، وثائق المؤلف.

(3) المملكة الأردنية الهاشمية، محكمة الأمن، قضية اغتيال لورنس فولي، 545/2003، وثائق المؤلف.

إن قوات عبد الرسول سيّاف معروفة بأنها من بين الفصائل الأفغانية الأشد قسوة، وتقوم بالاغتصاب وقطع الرؤوس.

انتقل الزرقاوي إلى معسكر "صدى" برفقة صديقيه من الزرقاء: محمد وصفي عمر أبو خليل[1]. لقد أوقف هذا الأخير وتمّت إدانته وذلك في إطار تفكيك أول جماعة قادها الزرقاوي، "بيعة الإمام". سجن الزرقاوي وأبو خليل لهذا السبب في سجن واحد هو سجن "سواقة"، في الأردن.

إضافة لذلك، نلاحظ أن معسكر "صدى" يقع في منطقة تأثير الزعيم الأفغاني عبد الرسول سيَّاف، وهو المسؤول السياسي لحزب الاتحاد الإسلامي، ومروج فكر الجهاد. وبموقعه السياسي المسيطر في وسط العرق الباشتوني، ساهم عبد الرسول سيَّاف آنذاك بشكل واسع في إنشاء أسس القاعدة، لا سيما بافتتاحه عدّة معسكرات تدريب عسكري لصالح "العرب".

إضافة إلى الزرقاوي، تردّد من جهة أخرى مجاهدون آخرون ذوو شخصية فذة على صدى في الوقت نفسه، لا سيما خالد شيخ محمد[2]. هذا الأخير كان قد أصبح، على مرّ الشهور، أحد المقربين من عبد الرسول سيَّاف قبل أن ينال ثقة أسامة بن لادن الكاملة ويبتكر عملية 11 أيلول.

إن معسكر "صدى" الواقع عند الحدود الباكستانية - الأفغانية، سيكون طيلة سنين عدّة ممراً إجبارياً لتدريب المتطرفين من شتى أنحاء العالم، القادمين لتعزيز صفوف القاعدة. كذلك تدرّبت شخصية أخرى بارزة لأسابيع طويلة في هذا المعسكر، ونقصد بذلك رمزي يوسف، مبتكر فكرة الاعتداء الأول على "مركز التجارة العالمي"، في 26 شباط من العام 1993[3]. لقد حُكم على رمزي يوسف بالسجن المؤبد في العام 1998 بعد أن سلّمته باكستان للولايات المتحدة.

في ذلك الوقت، اقترب الزرقاوي أكثر من المركز الحسّاس للقاعدة، مع أنه لم

(1) اعترافات محمد وصفي عمر أبو خليل، محكمة أمن المملكة الأردنية الهاشمية، قرار 95/300 و31 آب 1994، وثائق المؤلف.

(2) تقرير "اللجنة" حول اعتداءات 11 أيلول 2001.

(3) الولايات المتحدة، انظر أسامة بن لادن، 20 شباط 2001، شهادة جمال الفضل.

ينضمّ إلى الحلقة الأولى، ذلك أن "صدى" هو جزء أساسي من التشكّل العسكري للقاعـــدة بغرض تدريب "العرب" في أفغانستان، إلا أنه ليس إلا قاسماً مشتركاً بين المقـــاتلين(1). ويوجد معسكر آخر يسمى معسكر "المدة الطويلة"، والذي يسيطر علـــيه مجلـــس عـــسكري. وفيه يجري إعداد المجاهدين الواعدين أكثر. ولم يكن الزرقاوي منهم. ومهما يكن، فقد ارتبط الزرقاوي بصداقة مع عدّة مقاتلين آخرين أردنـــيين لا سيما المدعو سالم سعد سالم بن سويد، الذي سيختاره الزرقاوي بعد حوالى عشر سنوات، لاغتيال الدبلوماسي الأميركي لورنس فولي في عمان(2).

إلى حـــين رحيله من أفغانستان خلال عام 1993، استمع الزرقاوي لأشرطة مسجلة وقرأ الخطب الملتهبة لمنظِّر الجهاد، عبد الله عزام، الذي اغتيل، في أيلول من العام 1989 في اعتداء بسيارة مفخخة. وبحسب صهره صالح الحامي، فإن الزرقاوي قـــد وجد طريقه تماماً في أفكار هذا الفلسطيني، الأب الروحي للسلفية المعاصرة، ومرشـــد أسامة بن لادن. لقد أثّرت اللغة الطنّانة القاسية والبالغة التبسيط لعبد الله عـــزام بالـــزرقاوي كثيراً، فقد كان يستمع لساعات طويلة لرسالة السلفية، التي سيشير إليها لاحقاً عندما تبنّى الاعتداءات في العراق.

التـــزم الشاب الزرقاوي تماماً بشعارات الفكر السلفي كما أوضحها عزام ثم المقدسي وهي: رفض العصرية، العودة إلى جذور الإسلام، والمناداة بالخلافة.

في أفغانـــستان، بعيداً جداً عن شوارع الزرقاء تأثّر الزرقاوي بروح الجهاد. ومهمـــا تكن القضية: من أجل تحرير أفغانستان، أو من أجل الإسلام، أو من أجل تحريـــر العـــراق، أو من أجل باعث ما آخر، فلقد كشف الزرقاوي عن شخصية المقاتل.

في بدايـــة التـــسعينيات، كانـــت الحـــدود الأفغانية - الباكستانية قابلة

---

(1) "الحكـــومة تقـــدّم عرضـــاً بخصوص الأدلة القضائية تدعم فيه قبول إفادات شركاء المتآمرين كأدلة قضائية"، الولايات المتحدة، انظر إنعام أرناؤوط، 02 CR892, Northern District of Illinois, Eastern Division، 29 كانون الأول 2003.

(2) المملكـــة الأردنـــية الهاشمـــية، محكمـــة الأمن، الدعوى القضائية بشأن اغتيال لورنس فولي، 545/2003، وثائق المؤلف.

للاختراق، وأنشأت فيالق العرب معسكراتها في كراتشي كما في بيشاور. وأقام الـزرقاوي مرات عدّة ما بين بيشاور وحياة آباد. وفي مكان إقامته، تردّد على مـسجد زيـد بن حارثة. يتذكّر إمام المسجد شاباً مشبعاً بالدين، كان يصلي لساعات طويلة مع إخوته العرب، لا سيما خلال أيام شهر رمضان. وقبل ذهابه إلى الحـج في مكـة، عام 1992، طلب منه الزرقاوي حتى أن يدعو الله لكي "ينساه قليلاً"[(1)]...

وقتذاك قرّر العودة إلى الأردن، معضّداً بتجربته الأفغانية.

---

(1) "تحت المجهر"، مصدر سبق الاستشهاد به.

الفصل الرابع

العودة إلى الأردن

لـــدى عـــودته، مطلـــع العام 1993، كان الأردن قد تطوّر كثيراً. فالمملكة تحـــرّرت سياســـياً واقتصادياً في آن واحد. والتزم الأردن بنهج اتفاق السلام مع إسرائيل، ورسّخ موقعه في المنطقة. وبدءاً من شهر أيلول عام 1991، عاد إلى البلاد أوائـــل المحـــاربين الأردنـــيين السابقين في أفغانستان. ولقد اعتبر هؤلاء المقاتلون السابقون وقتذاك أن من واجبهم العمل على نهضة القضية الإسلامية.

لكـــن، في غـــضون أشهر قليلة، تبدّلت هوية العدو، فأولئك الذين كانوا قد ذهـــبوا بحمـــاس لقـــتال المحتل السوفياتي عادوا وهم يكنّون حقداً كبيراً للولايات المـــتحدة وللحكومة الإسرائيلية. لقد تغيّرت الأزمنة كثيراً. فلقد توجّه المجاهدون الأكثر اندفاعاً الآن نحو أرض جديدة للجهاد، خصوصاً نحو البوسنة والهرسك[1]. وكـــان الكـــثيرون منهم يحملون الجنسية الأردنية ويظهرون استعداداً لشنّ الحرب المقدســـة ما بين سراييفو وتوزلا. أما الزرقاوي فلم يرافقهم، بل عاد إلى بيته، في الزرقاء. وهكذا، وبعد الحرب التي فاتته ضد السوفيات، فاتت الزرقاوي فرصة ثانية للمشاركة في الجهاد، وهذه المرة إلى جانب الفيالق العربية في البوسنة والهرسك.

لقد راقبت أجهزة الأمن الأردنية عدداً كبيراً من الشباب المقاتل السابق. وفي مـــصر، والمغرب، وتونس أو الأردن، نجد أن أجهزة الأمن كانت تمتلك في الغالب معلومات دقيقة حول هوية المجاهدين. وحتى قبل رحيلهم إلى أفغانستان، فإن معظم هـــؤلاء المقاتلين كانوا موضع انتباه خاص من قِبل شُعب المخابرات. فسواء أكانوا مجرمين بحق القانون العام أو إسلاميين متعصبين، فإنهم لم يذهبوا إلى أفغانستان من

(1) "المحاربـــون القـــدماء العرب في الحرب الأفغانية يدعمون الأحزاب الإسلامية المنشقة في الشرق الأوسط"، مقال سبقت الإشارة إليه.

قبيل الصدفة. لقد ساور القلق دول المنطقة من عودة "الأفغان"، لا سيما مصر والجزائر، حيث أعادت الجماعات الإسلامية المكوّنة من المقاتلين السابقين تشكيل نفسها بسرعة كبيرة. ووصل القلق إلى أوجه، عندما أوشكت "جبهة الإنقاذ الإسلامي (FIS)" على الفوز في الانتخابات الجزائرية في العام 1991 عقب تصويت ديمقراطي.

لكن، وإن سجلت بداية التسعينيات قدوم التعصب الديني إلى الساحة السياسية الجزائرية، إلا إنها تميّزت أيضاً بعودة تطرّف الجماعات الراديكالية العنيفة في صراعها ضد الحكومة والمسيحيين الأقباط في مصر. وسرعان ما توجّب على الإسلاميين المصريين العائدين من الجهاد الأفغاني البحث عن ملجأ لدى الدولة الإسلامية في السودان أو في السعودية. هزّت الموجة الإسلامية كل البلاد العربية الممتدة على القوس الكبير للبحر الأبيض المتوسط.

ومنذ العام 1991، والمملكة الأردنية في تيقظ مستمر نحو "مجاهديها". لقد تساوق التزامهم على نحو سيّئ مع التوجّه السياسي الذي تتخذه المملكة، سواء على الصعيد الداخلي، حيث حكومة الملك تحدّق بالأحزاب الإسلامية على نحو صارم، أو على الصعيد الدولي، الذي اتّسم بالتقارب الدبلوماسي بين الأردن وإسرائيل.

بدأ مسؤولو شُعب المخابرات الأردنية في القلق من التأثير المتطرف "للأفغان" في بداية العام 1991[1]. وتدفّقت الأنباء التي تشير إلى أن بعض المقاتلين السابقين، قد شرعوا حال عودتهم، في تجنيد شبان إسلاميين وفي تدريبهم في الصحراء. وعلى الصعيد السياسي، خطب "الأفغان "فاضحين التورّط الأردني في المفاوضات الأميركية المرشحة لأن تصل إلى اتفاق سلام في الشرق الأوسط. لقد مدحوا العمل على تدمير إسرائيل، وكذلك فعل الفرع الأردني للإخوان المسلمين، وهو حزب سياسي محظور في جميع الدول العربية الأخرى. وبدءاً من العام 1991 تجمّع مرة أخرى "الأفغان" الأكثر تنظيماً في "جيش محمد"، وهي جماعة متطرفة سنية سرعان

(1) "المحاربون القدماء العرب في الحرب الأفغانية يدعمون الأحزاب الإسلامية المنشقة في الشرق الأوسط"، مقال سبقت الإشارة إليه.

ما عاشت فساداً في المملكة الهاشمية. كما التحق مقاتلون سابقون آخرون بصفوف "الجهاد الإسلامي" و"حماس" في المناطق التي تحتلّها إسرائيل.

ثابرت السلطات القضائية الأردنية على فهم تلك التهديدات الجديدة لتكافحها على نحو أفضل. فبدءاً من العام 1991، أحبطت المملكة اعتداءات ضخمة جداً، كما فكّكت خمسة تنظيمات. وأيضاً تمّ اعتقال اثني عشر متطرفاً كانوا يشكّلون خلية "غدير أبو حوشر". وكانوا يهدفون لضرب مواقع سياحية في فترة الانتقال إلى عام 2000. كما تمّ اعتقال مقاتلين من "جيش محمد"، التزموا بهدف تقويض الحكومة الأردنية، وذلك في نهاية عام 1991 في ضاحية عمان.

خطّط تنظيم "الأفغان الأردنيين" لاعتداءات في الأردن بين عامي 1991 – 1993. وحكمت محكمة أمن المملكة الأردنية الهاشمية على أعضائه بعقوبات قاسية في 21 من كانون الأول عام 1994. ومن بين المحكوم عليهم رجل الأعمال السعودي محمد جمال خليفة، صهر أسامة بن لادن، الذي تولّى، منذ العام 1986 وحتى العام 1994، إدارة مكتب المنظمة الخيرية IIRO (هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية)[1] في الفيليبين. وبعد اتهامه بالارتباط بالإرهاب الإسلامي – وقد أنكر هذه التهمة[2] – حُكم عليه غيابياً بالإعدام في هذه القضية. ومنذ ذلك الحين التجأ إلى جدة في السعودية حيث افتتح مطعماً للأسماك.

إن "حركة الإصلاح والتحدي" هي جماعة مسلحة أخرى، أُنشئت في الأردن عام 1997، وأدانت محكمة عسكرية أعضاءها المتطرفين بالإرهاب في 22 تموز عام 2001. ويندرج على لائحة المتهمين اسم الزعيم الديني أبو قتادة (واسمه الحقيقي عمر محمود عثمان أبو عمر)[3]، وهو شريك لأسامة بن لادن وللمقدسي. حكمت عليه محكمة أردنية غيابياً بالسجن المؤبد، كما أنه مطلوب لدى الشرطة المصرية

(1) International Islamic Relief Organization.

(2) "تصريح رسمي يدعم الاحتجاز قبل المحاكمة"، الولايات المتحدة، انظر: سليمان س. بحيري، قضية رقم A-365-03، تصريح لديفيد خان، 14 آب 2003.

(3) عمر محمود (معروف بعثمان، عمر محمود، أبو قتادة الفلسطيني، ومعروف أيضاً بالتكفيري، وأبو إسماعيل).

والجزائرية، وكان يعيش حياة تقاعد هادئة في لندن، قبل أن تعتقله الشرطة البريطانية وتضعه رهن اعتقال مؤقت عام 2002. ومنذ العام 1995 حتى العام 2001، وهو عام تسوية وضعه في إنكلترا، شارك أبو قتادة في زرع شبكة القاعدة في أوروبا. كما شارك أيضاً في عدّة عمليات لخلايا إرهابية في أوروبا، ومنها عملية القاعدة في إسبانيا.

وأخيراً، فكّكت الشرطة الأردنية جماعة أخرى من المجاهدين باسم "البقعة" في أيلول 1998[1].

إن هدف هذه الحركات المختلفة هو تقويض الأنظمة العربية، لا سيّما النظام الأردني، لتحلّ محلها خلافة أصولية. إن هذا المشروع المفرط في التبسيط على نحو جريء يجتمع عليه الإسلاميون الأكثر تطرفاً.

وهنالك مسؤولان إسلاميان، ليث شبيلات ويعقوب قرش، وهما إسلاميان مستقلان منشقان، حكمت عليهما محكمة عسكرية، في 10 تشرين الثاني 1992، بعشرين عاماً من السجن لحيازة أسلحة نارية على نحو غير قانوني ولمحاولة القيام بانقلاب سياسي. وفي 23 تشرين الثاني من العام 1992، أعلن الملك حسين أنه سيبذل كل ما بوسعه لحماية النظام. وقتذاك ساور القلق الكثير من السياسيين الأردنيين من النزعة التطرفية لدى هؤلاء الشباب المقاتلين السابقين العائدين من الجهاد الأفغاني. فها هو أحمد عويضي عبادي، وهو بدوي وعضو في البرلمان الأردني وضابط سابق يطلق تحذيراً مدوياً للمملكة في تشرين الثاني عام 1992، في معرض كلمة أمام البرلمان قائلاً: "يقول هؤلاء الناس إن أسلحتهم موجّهة لقتال إسرائيل، لكن، في آخر المطاف إن هدفهم هو الإطاحة بالنظام الملكي"[2].

تكاثرت الجماعات المسلحة غير القانونية وضاعفت من أعمالها العنيفة ضد

---

(1) (ONU) منظمة الأمم المتحدة، S/2002/127، تقرير المملكة الأردنية الهاشمية إلى "لجنة مكافحة الإرهاب"، 21 كانون الثاني 2002.

(2) "المحاربون القدماء العرب في الحرب الأفغانية يدعمون الأحزاب الإسلامية المنشقة في الشرق الأوسط"، مقال سبقت الإشارة إليه.

المملكــة. واســتهدفت قطاعات كثيرة ومن بينها قطاع السياحة، وذلك بهدف تخفــيف أكبر مصدر لواردات النقد الأجنبي. لقد ضربت موجة العنف هذه أحد الرعايا الفرنسيين، جيلبرت هينــز، وهو دبلوماسي محترف[1]. ففي شباط من العام 1995 وبيــنما كان الزوجان هينــز يزوران موقع "بجيب" السياحي، الواقع على بعــد مائــة كيلومتر من عمان، أصابتهما طلقات نارية أطلقت من الجبل. وجُرح جيلــبرت هينـــز. وتمّ اعــتقال مطلقي العيارات النارية على الفور، وهما سالم خاخــيت[2] عبد الله، 31 سنة، وأحمد خالد قاسم، 23 سنة، وحُكم على الأول بالــسجن المؤبد وعلى الثاني بعشر سنوات من السجن. وبحسب إفادتيهما، فإنهما كانــا يريدان، بفعلتهما تلك، الاعتراض على اتفاق السلام الموقع في تشرين الأول من العام 1994 بين الأردن وإسرائيل.

عــاد أبــو مصعب الزرقاوي إلى بيته في الزرقاء. وفور عودته وضعته دائرة المخابــرات العامة GID تحت المراقبة مثل "الأفغان" الآخرين، أضف إلى ذلك أنه وقبل سفره إلى أفغانستان كان معروفاً جداً لدى الشرطة المحلية باعتباره جانحاً بحق القانون العام.

بلــغ بيته، في الشارع رقم 6 في حي الرمزي، وهو منــزل كبير ذو طابقين يحــيط بــه ســور عالٍ ويحمل الرقم 13، حيث تنتظره فيه زوجته "إنتصار"، التي تزوجها عام 1988 والتي يُطلق عليها اسم أم محمد، وكذلك بكر أولاده أمينة، التي ولدت خلال العام 1991. وكان يعيش أيضاً في المنــزل العائلي أيضاً أمه، وبعض أخواته وأخيه محمد.

عــاد الزرقاوي متأثراً بعمق بأفغانستان. لقد حلَّ محل الفتى زعيم صبية الحي رجــل محنّك. وسرعان ما فرض هذا الرجل المتسلّط على المحيطين به صرامة دينية متعسفة. وعلى نساء العائلة الامتثال للممارسات الدينية التي تبناها هو نفسه خلال الــسنوات الأفغانية. إذ يمكن التعرف على أفراد عائلة الزرقاوي في الشارع، لأنهن

(1) "الحكــم بالسجن على أردنيين خطّطوا لهجوم بقنبلة على إسرائيليين"، وكالة الأنباء الفرنسية، 26 تشرين الثاني 1996.

(2) الاسم كما جاء في الأصل الفرنسي. (المترجمة).

وحدهن يلبسن اللباس التقليدي الأفغاني، وهذا الأمر ما زال يحدث اليوم أيضاً[1]. أمـــا الـــرجال الذين هم ليسوا من العائلة فلا يُسمح لهم بدخول المنـــزل العائلي. وتقول أم محمد أيضاً أنه ومنذ عودة الزرقاوي من أفغانستان، طلب من إخوته عدم مشاهدة التلفاز لأن برامجه "تفسد الجيل الشاب"[2].

إضـــافة إلى الزرقاوي، سكن حي الرمزي مقاتلون سابقون آخرون، مثل أبي قدامـــة، الـــذي أقـــام على بعد بضع عشرات من الأمتار منه، بالإضافة إلى أفراد سيـــصبحون لاحقاً أعضاء في جماعة "بيعة الإمام". ومثل هؤلاء، فإن أفراد الخلايله متديـــنون جـــداً، والتزيينات الوحيدة التي تجمّل غرف المنـــزل هي آيات قرآنية ولوحة نُقش عليها اسم "الله". إن المنـــزل العائلي لآل الزرقاوي هو بالتأكيد أصغر وأقـــل رفاهـــية من ذاك المنـــزل في حي معصوم، لكنه يلبّي تماماً مستوى معيشة الطبقة الوسطى.

وليحـــصل الـــزرقاوي على رزقه، شرع في عمل تجاري في تأجير الفيديو، والذي كان نجاحه غير واضح. بيد أن المقاتل السابق الشاب كانت لديه طموحات أخرى.

في الواقع، وبُعيد وصوله، التقى الزرقاوي برفاقه القدامى. وكرّس الكثير من وقـــته في بـــثّ أفكـــاره في شباب الزرقاء الأردني والفلسطيني. وتردّد مجدداً على مسجدي "الفلاح" و"الحسين بن علي"، وروى فيهما تجربته الأفغانية وجذب حوله أكثر فأكثر شباناً يتوقون للإرشاد الديني.

ويتذكّـــر أحد قادة السلفية في عمان الزرقاوي، وهو الشيخ "جرّاح القدّة"، فيـــصفه بأنه كان شاباً متحمساً، يصيح في شوارع الزرقاء المزدحمة لينشر الكلام الطيب. إن هذا التصرف لا بد أنه بدا على الأقل غير مألوف لسكان مدينة كانت تحظّر فيها الخُطب على رؤوس الأشهاد.

ومهمـــا يكـــن، فإن شططه سرعان ما أتاح له أن يجمع حوله المدافعين عن

---

(1) مقابلة مع محمد الحراحشة، ابن أخت الزرقاوي، 15 أيلول 2004.

(2) "صـــحيفة يومـــية أردنية تجري مقابلة مع زوجة أبو مصعب الزرقاوي"، صحيفة الدستور 24 حزيران 2004.

القضايا الأعنف. ويتذكّر صالح الحامي، الذي عاد من أفغانستان عام 1992: "كانت تلك بداية التوترات بين الزرقاوي والنظام الأردني [...]. وحينما يقضي المرء وقتاً طويلاً في الجهاد، فإن الجهاد يصبح مثل الأوكسيجين للإنسان. من الصعب جداً الاستغناء عنه"[1]. من البديهي، بعد أن عرف الزرقاوي الحرب والجهاد الأفغاني، أن يعقد عزمه على مواصلة الكفاح في بلده الأصلي. علمت الأجهزة الأردنية بذلك وضاعفت من تيقّظها.

في الزرقاء، حيث كان الجميع يعرفونه باسم أحمد فضيل نزال الخلايله سيسمّي نفسه من الآن فصاعداً بأبي مصعب، رغم أن ولده الأخير، الذي سيحمل هذا الاسم، لم يكن قد ولد بعد. بالتأكيد إن الفتى الصاخب قد تغيّر كثيراً. لقد أصبح رجلاً وجلاً يحمل طموحات غامرة. من النادر أن يحمل أحد سكان الزرقاء اسم مدينته. بيد أن اسمه المستعار الذي أصبح أبا مصعب الزرقاوي، هو شاهد على طموح ذاك الذي يريد بأي ثمن أن يمثّل عشيرته ومدينته. لقد أخذ اسمه المستعار من محارب من عهد النبي محمد، هو مصعب بن عمير، الذي يُعتبر شخصاً كثير التقدير من قبل الاستشهاديين، والذي فقد يديه أثناء معركة يثرب، إنها واقعة يستشهد بها الزرقاوي في كثير من الأحيان.

بعد مرور بضعة أسابيع فقط على عودته إلى الزرقاء، حاول الزرقاوي أن يلتقي مجدداً بالمقدسي، الواعظ الفلسطيني الذي كان يلهب بخطبه "عرب" بيشاور. وفي العام 2004، كتب المقدسي رسالة يتذكّر فيها تلاقيه مجدداً مع الزرقاوي فيقول: "ما إن عاد الزرقاوي من أفغانستان، حتى جاء لزيارتي [...]. وكان أبو وليد هو من أعطاه عنواني في الأردن [...]. وهكذا عملنا معاً وأعطيت دروساً دينية في عدّة مدن أردنية. وكنا نكتب المناشير"[2]. ومنذ ذلك الحين أصبح عصام محمد طاهر البرقاوي، المعروف بأبي محمد المقدسي، بالنسبة للزرقاوي دعامة إيديولوجية، وأباً روحياً، ومرجعاً فكرياً في آن واحد. فضلاً عن ذلك، فإن نَحتْ الأمور منحى التشابه، فها هو يشغل لدى الزرقاوي المكان الذي يشغله عبد الله عزام لدى أسامة بن لادن.

(1) الزرقاوي يسلك طريقاً عشائرياً في الإرهاب"، مقال سبق الاستشهاد به.

(2) رسالة بعنوان "نصيحة الشيخ المقدسي إلى أبي مصعب الزرقاوي"، 2004، وثائق المؤلف.

وأخيراً حطّ المقدسي عصا الترحال في الأردن، في ضاحية عمان، في ياجوز، بالقـــرب من مسجد صهيب. فبعد الكويت، والعراق، والسعودية، وباكستان، ثم مـــن جديد الكويت، استقرّ المقدسي نهائياً في الأردن عام 1992. وتزامن استقراره مـــع عـــودة المقاتلين الأردنيين من أفغانستان، ثم مع عودة الزرقاوي في بداية العام 1993. والتقى الرجلان ووطّدا صداقتهما واستحضرا ذكريات باكستان.

وهكـــذا، تقـــارب الـــزرقاوي مع أحد منظّري الجهاد الأبرز في بداية عقد التسعينيات، ذلك أن المقدسي قد أصبح شخصية شهيرة في عالم المنظّرين المتطرفين الـــصغير. ونشر المقدسي كتاب "الديمقراطية دين"، وهو مؤلّف عنيف في أفكاره المناوئة للغرب وأنظمته الديمقراطية، فعلى حدّ قوله، إن الديمقراطية بدعة اجتماعية يدينها القرآن وتحمل في طياتها رسالة هرطقة. أما مواطنو الأنظمة الديمقراطية فهم "كفـــرة" يتربّص بهم دمار وشيك. يقول المقدسي: "إن الديمقراطية دين ليس بدين الله [...] إنـــه ديـــن الكفرة [...] دين يشتمل على آلهة أخرى في معتقده [...] ويمـــثّل الـــناس في الدين الديمقراطي نوابهم في البرلمان [...]. ويسنّون هم ونوابهم قـــوانين تـــبعاً لدين الديمقراطية ولقوانين دستورهم التي وفقها تأسّست الحكومة [...]"(1).

بمعية داعيين آخرين سعوديين متطرفين يكبرانه، هما حمد بن عقلة الشيبي وعلي الخضير، امتدح المقدسي العودة إلى أصول الإسلام، ودعا إلى إدانة حازمة لكل ما هـــو غير إسلامي. لكن هذا الكلام الطنّان المتطرف لم ينحصر في بضع مطبوعات محمـــومة: لقد شارك المقدسي مباشرة في تجنيد وتثقيف المقاتلين السابقين الشباب الأردنيين لأجل غايات قتالية، وقد حصل هذا منذ العام 1991. لقد أثبت القضاء الأردني بـــشكل قاطـــع مـــشاركته في تنظيمات مختلفة، من بينها "جيش محمد" و"الإصـــلاح والـــتحدي". أضـــف إلى ذلك أن المحكمة الأردنية ستدينه المرة تلو الأخرى لهذا السبب.

بعد اعتقال المقدسي لمشاركته في تنظيم بيعة الإمام، أطلق سراحه عام 1999، قـــبل أن يـــتمّ توقـــيفه ثانـــية وســـجنه في كانون الأول عام 2002 لكونه وراء

---

(1) أبو محمد المقدسي، "الديمقراطية دين"، http://www.almaqdese.com.

الاضـــطرابات الـــشعبية التي اندلعت في مدينة معان. زد على ذلك، فإن القضاء الأردني، أثـــبت في تموز من العام 1991، وجود روابط بين المقدسي وجيش محمد، الذي تدرّب أعضاؤه في المعسكرات الأفغانية. وسرعان ما تمّ الحكم بالإعدام على قادة الجماعة الستة لضلوعهم في اعتداءات في الأردن. لكن خفّفت أحكامهم إلى السجن المؤبد، عقب صدور عفو ملكي.

في العـــام 1991، مع أن المملكة الأردنية متنبهة، إلا أنها ما زالت تُقدّر حجم الـــتهديد علـــى نحـــو غير صحيح. فالسلطات القضائية لا تحمل على محمل الجدّ المقـــاتلين الـــسابقين، فهي تصدر عليهم أحكاماً دون أن تطبقها فعلاً. وعلى نحو موازٍ، تتتبع أجهزة المخابرات الأردنية مؤشرات إعادة تكييف المقاتلين السابقين في المجتمع المدني.

حـــين التقى المقدسي والزرقاوي مجدداً، فإن كلاً منهما تعهّد بالحفاظ على طموح شخصي قوي وهدف مشترك وهو: مواصلة الجهاد ضد "الأنظمة الكافرة". وهكذا، ومنذ العام 1991، نظمت الجماعات نفسها، واكتسب المقدسي تأثيراً قوياً جداً وسط هذا الخليط المتطرف.

خلال العام 1993، ظهر أعداء جدد، وأهداف جديدة هي: إسرائيل والمملكة الأردنية. إن الزرقاوي والمقدسي، كما مئات من المقاتلين السابقين غذّيا كرهاً ثابتاً ضد النظام الأردني المتهم، بحسب رأيهما، بالتواطؤ مع العدو.

وفي نفـــس تلك السنة، تسارعت الأحداث بالنسبة للمقدسي، والزرقاوي، وحـــوالى ثلاثمائـــة مقاتل آخر قاتلوا في أفغانستان وعادوا إلى الأردن. إن إيمانهم العـــسكري لم يصبه وهن، بل العكس هو الصحيح. فشكّلوا خلية، وقد أحبطهم عـــدم تمكـــنهم من مواصلة "حربهم". وأعلنوا أنفسهم "مستعدين لمواجهة النظام [الأردني] بـــسبب معـــتقداتهم"[1] وهم المحرومون من روابط اجتماعية حقيقية في وســـط بلـــدهم الأصلي. استنكر هؤلاء الشبان المقاتلون السابقون بعنف معاهدة

(1) "مسلحون أردنيون يتدرّبون في أفغانستان على مواجهة النظام الحاكم"، وكالة الأنباء الفرنسية، 30 أيار 1993.

السلام مع إسرائيل، والتي أصبح توقيعها وشيكاً. لقد تلقّوا جميعهم تدريباً عسكرياً، وأحياناً في معسكرات التدريب التابعة لجماعة "الإخوان المسلمين"، مثل معسكر "صلاح الدين"، الواقع في "جلال آباد"، شرق أفغانستان. وتمّ تدريب آخرين في أوائل المعسكرات التي أقامتها القاعدة، مثل الزرقاوي في "صدى". وهكذا، وفي عامي 1992 - 1993، ذاع صيت معسكرات السعودي أسامة بن لادن على أنها الأفضل في أفغانستان، بفضل غنى بنيتها التحتية والأجهزة العسكرية التي بحوزتها. ولم يكن من النادر أن تُستخدم أثناء التدريبات صواريخ أرض - جو "ستينغر"، الباهظة الثمن. بالتأكيد لقد كانت معسكرات القاعدة وقتذاك الأكثر "تعقيداً تقنياً" والأكثر "نخبوية" في أفغانستان. وفيها يُعلّم المرء دون هوادة فرض الشريعة الإسلامية، وبالقوة إن لزم الأمر.

في هذا السياق، قدّم الزرقاوي المقدسيَّ لعدد قليل من أصدقائه في الزرقاء، وجميعهم محاربون قدماء في أفغانستان. ومن بينهم، شريف (ومعروف أيضاً باسم أبي أشرف)، سليمان طالب دامره، خالد العاروري، ناصر فايز، أخيه نافذ، محمد رواشده، عامر سرّاج، ونصري طحاينه[1]. شكّل هؤلاء الرجال الحلقة الأولى للزرقاوي في الزرقاء. وسرعان ما كوّنوا جماعة "بيعة الإمام". ولم تعلم السلطات الأردنية بها إلا في العام 1997، كما قيل، وذلك في معرض استجواب المتطرف أسامة ياسين أبو شامه، أستاذ جامعة اليرموك، ومموّل التنظيم، وقد ساعد أسامة بن لادن مالياً في تأسيس تلك الخلية[2].

في أوائل اعترافات الزرقاوي أمام القضاء الأردني في 31 آب 1994، ذكر بالتفصيل الأسلوب الذي كان قد نظّم به خليته الأولى، بيعة الإمام، برفقة المقدسي. كان المقدسي قد حمل للجماعة تعاليمه الدينية، وبثّ خطاباً سياسياً باغضاً للنظام الأردني. وارتكز التعليم المفرط في التبسيط لهذا الإيديولوجي

(1) اعترافات أبي مصعب الزرقاوي، محكمة أمن المملكة الأردنية الهاشمية، قرار 95/300، 31 آب 1994، وثائق المؤلف.

(2) "اعتقالات لأشخاص تقول التقارير الصحفية إنهم على علاقة بالعقول المدبرة لتفجير الخُبر"، هيئة الإذاعة البريطانية (برنامج الحدث)، 28 أيار 1997 (سبقت الإشارة إليه).

الفلسطيني، زعيم منطقة نفوذ السلفية في الشرق الأدنى، على فكرة أن كل فرد عليه أن يسيِّر حياته تبعاً للقرآن، وأن الحكومات العربية، لا سيما الحكومة الأردنية، لا تحترم هذا المبدأ. لأجل هذا ينبغي أن يزول النظام الأردني.

بالاتفاق مع الزرقاوي، أكثر المقدسي من مداخلاته الفكرية في مسكن أعضاء الجماعة، وكذلك في أماكن العبادة المقتناة لقضية الجهاد. لقد وعظ على سبيل المثال في مسجد "حموري" في "عوجان"، في ضاحية عمان، الواقع على مسافة قريبة من منزل عائلة الزرقاوي. وهناك اختبر كل حججه: تراجع السيادة الأردنية إزاء النفوذ الإسرائيلي، التدخل الأميركي في المنطقة، ضرورة الجهاد، الصراع ضد الكفرة. إضافة لذلك أكّد الزرقاوي أمام المدعي العام محمود عبيدات قائلاً: "نحن نعادي الأميركان لأنهم يرفضون الإسلام".

إن اقتران بلاغة المقدسي بجاذبية الزرقاوي وبالخوف الذي يبثّه قد جذبت جميعها أتباعاً جدد. فتغتني الجماعة دوماً بالمزيد وتجنّد في المناطق الأردنية. ذات يوم انتقل الزرقاوي بصحبة صديقه العاروري إلى منطقة الكرك، على سواحل البحر الميت، بالقرب من قرية القصر. وهناك، جنّدا عبد المجيد المجالي. وما لبث أن قدّم لهما مصطفى حسان موسى، وهو عضو سابق في "جيش محمد"، الذي فُكّك عام 1991، معرفته بخصوص المتفجرات.

مصطفى حسان موسى هو صهر المقدسي. وقد روى الزرقاوي أنه ذات يوم، وبينما جماعته مجتمعة في منزل مصطفى حسان موسى، قرَّب هذا الأخير شرارة من راسب فوق أكسيد الأسيتون، وهو متفجر يظهر على شكل بودرة بيضاء، محدثاً بذلك انفجاراً خفيفاً. إن تلك الطريقة هي مثل طرق أخرى يجيدها، لقد اشتمل مشروعه في أن يوجّه "بطاقة معايدة" مفخخة إلى وليد أبو ضاهر، مدير المجلة العربية "الوطن العربي"، والتي توجد مكاتبها في باريس. لكنه لم يفلح أبداً في تنفيذ مخططه[1]...، لكن مع ذلك تمّت إدانته بمحاولة الاعتداء تلك. وقد توفي وليد أبو ضاهر عام 2004.

(1) اعترافات أبو محمد المقدسي، محكمة أمن المملكة الأردنية الهاشمية، قرار 95/300، 31 آب 1994، وثائق المؤلف.

حسب ما يجري في الاجتماعات والنقاشات الدينية، فإن تلهف الجماعة يظهر للانـــتقال فعلياً إلى العمل القتالي. وبتحريض من الزرقاوي والمقدسي، تمّ وقتذاك إعـــداد خطة للقيام بعملية استشهادية ضد أهداف إسرائيلية. لكن من أجل نجاح تلك العملية، لا بدّ من توفّر السلاح.

قبـــيل استقراره في الأردن عام 1992، كان المقدسي يعيش في الكويت، كما هـــو معـــروف. وحين انسحبت قوات صدام حسين من الكويت، مخلّفة وراءها كمـــيات من الذخيرة، قام المقدسي بشراء شحنة كبيرة منها من السوق السوداء. ولدى انتقاله إلى الأردن عام 1992، دسَّ في أثاث بيته خمسة ألغام مضادة للأفراد، وســـبع قـــنابل يدويـــة، وعدة صواريخ مضادة للدبابات. باح المقدسي فيما بعد للمحققـــين الأردنـــيين مـــن دائرة المخابرات العامة أن هدفه كان استخدام تلك الذخيرة في إطار هجوم ضد إسرائيل.

مـــن أجل إدارة جيدة للعمليات، اقترح الزرقاوي على المقدسي إخفاء تلك الـــذخيرة في المنـــــزل الكبير في حي معصوم الذي كان يسكنه وقتذاك قسم من عائلـــته. ثم، وبعـــد أن حاول دون جدوى لمدة أسبوعين أن يخفي الأسلحة حول المقبرة، أعادها إلى المقدسي وقرّر ألاّ يحتفظ إلا ببعض الشحنات القابلة للانفجار. وحضّر لأجل هذه الغاية مخبأ، وبمعنى أدق حائطاً مزدوجاً، في المنـــزل العائلي[1]. كـــان يريد، على حدّ ما قاله لاحقاً، الاحتفاظ بتلك الأسلحة "بهدف استخدامها في إطـــار عملية استشهادية في الأراضي التي يحتلها الصهاينة"[2]. وأقنع لأجل هذا الهـــدف شريكيه المخلصين، سليمان طالب دامره وعبد الهادي دغلس، بأن يتوليا بمهـــارة عملية استشهادية عند الحدود الإسرائيلية - الأردنية. لكن الاعتقال المبكر لعـــبد الهـــادي دغلـــس من جانب السلطات الأردنية أفشل أول عمل خطّط له الزرقاوي.

إن بعـــض المتواطئين معه في بيعة الإمام يصفونه على أنه رجل طموح، لكنه

---

(1) مقابلة مع مهند حجازي، المدعي العسكري للملكة الأردنية الهاشمية، 16 أيلول 2004.

(2) اعتـــرافات أبي مصعب الزرقاوي، محكمة أمن المملكة الأردنية الهاشمية، قرار 95/300، 31 آب 1994، وثائق المؤلف.

ليس بالتأكيد رجلاً حالماً. أما الأردني يوسف ربابة فيتذكّر أنه، وبخلاف أسامة بن لادن، لم يكـن لديـه وقتذاك أي مشروع على المدى الطويل. ويذهب محاميه في ذلـك الـوقت، محمد دويك، إلى حدّ القول بأن موكله لم يكن يبدو له قط ذكياً علـى نحـو خاص[1]. إن المقدسي هو الذي كان يشغل وقتذاك، وسط الجماعة، موقع النموذج المحتذى في التفكير، بينما يتولّى الزرقاوي إدارة العمليات العسكرية.

وضـع اعـتقال عبد الهادي دغلس مجدداً الجميع في موضع الاتهام. لأن بيعة الإمـام، في ذلك الوقت، لم تكن تتألّف إلا من عدّة رجال، وهم بشكل أساسي: أبـو محمـد المقدسي، وأبو مصعب الزرقاوي، وخالد مصطفى خليفة العاروري، وسـليمان طالـب دامره، والأخوان فايز (ناصر ونافذ)، ومحمد رواشده، وعامر سراج، ونصري عز الدين محمد الطحاينه، ومحمد وصفي عمر أبو خليل، ونبيل أبو حـرثيه، وشـريف عبد الفتاح، وأحمد يوسف. إضافة إلى ذلك فإن النواة الصلبة للجماعـة تمفصلت حول المقدسي، والزرقاوي، والعاروري، وأبي خليل، وبدأت اختلافات تتكشّف فيما بينهم.

إن الاعتـراض جـاء خـصوصاً من جهة خالد العاروري، الرقم الثالث في التنظـيم. العاروري شاب من الزرقاء، أصله من رام الله في فلسطين، وعمره 27 عامـاً في زمـن الأحداث. كان موظفاً في المنظمة السعودية IIRO (هيئة الإغاثة الإسـلامية العالمية) خلال العام 1991 في باكستان، وعاد إلى الزرقاء عام 1992. كـان يدعم الزرقاوي، لكنه لم يوافقه في جميع مشاريعه، مثل مشروع اغتيال علي بيرجـك، أحـد أفراد وحدة مكافحة الإرهاب في دائرة المخابرات العامة الأردنية (GID)، أو يعقـوب زيادين، الرئيس الفخري للحزب الشيوعي الأردني. لم يؤيّد العاروري أيضاً فكرة إحراق مقرّ المخابرات الأردنية، GID القوي[2].

في أعقاب عدّة لقاءات سرية بين أعضاء جماعة بيعة الإمام، أمسك الزرقاوي

(1) "رحلـة الـزرقاوي من العزلة إلى سجين إلى قائد للمعارضة المسلحة في العراق"، مقال سبقت الإشارة إليه.

(2) اعترافات خالد العاروري، محكمة أمن المملكة الأردنية الهاشمية، قرار 95/300، 31 آب 1994، وثائق المؤلف.

بـــزمام مـــتابعة العمليات. وزوّد العاروري ودامره بمعلومات إضافية حول هذين الهـــدفين، علـــي بيرجك ويعقوب زيادين. ثم جمع معلومات ذات أهداف محدّدة، وحـــدّد مكان المسكن الشخصي لعلي بيرجك[1]. وبعد ثمانية أعوام، في 28 شباط عـــام 2002، قـــتل شخصان في انفجار سيارة مفخخة عند مدخل مسكن علي بيرجـــك، الـــضابط في دائرة المخابرات الأردنية العامة (GID). وكانت السيارة المفخخة تمتلكها زوجته.

علـــى أي حال، ظلّ خالد العاروري رجل ثقة لدى الزرقاوي طيلة مسيرته. وبـــناءً على ما تقدّم فقد ظهر اسمه في سياق التحقيق حول اعتداءات الدار البيضاء في 16 أيار عام 2003: إنه هو، في الواقع، الذي نقل إلى عزيز حوماني، وهو سلفي مغربي، مبلغ 70000 دولار اللازم لإنجاز الاعتداءات.

لا يخشى أعضاء "بيعة الإمام" السجن قدر خشيتهم الأساليب القاسية لدائرة المخابرات العامة(GID) التي هدفت، بعد عامين من عودة أوائل المقاتلين السابقين، إلى سحق تلك الجماعات المتمردة. والآن، تجد الجماعة نفسها ملاحقة من الحكومة الأردنـــية وقـــد أضعفها اعتقال عبد الهادي دغلس، وتشعر بتضييق الخناق عليها. فاعتزم الزرقاوي والمقدسي آنذاك الفرار من الأردن بأوراق مزيفة. اتصل الزرقاوي لأجـــل ذلك بمحمود حسان الحجاوي، الذي يقيم في الزرقاء، بالقرب من مسجد الحـــسين، ليـــزوّده بجـــواز ســـفر مزور. وقد كلّفه هذا الأمر مائة دينار وصورة شخصية. وبعد انقضاء أسبوع، تسلّم جواز السفر الأردني المزوّر، الذي يحمل اسم علي أحمد عبد الله مجالي.

عـــرض الـــزرقاوي، القائد العملياتي[2] للجماعة على المقدسي الاستفادة من الخطـــوة التي أقدم عليها، وكذلك عرض الأمر على خالد العاروري. وسرعان ما وجـــد المقدسي نفسه وقد تسلّم جواز سفر آخر مزوراً باسم فايز الحافي[3]. عجّل

---

(1) اعتـــرافات أبي مصعب الزرقاوي، محكمة أمن المملكة الأردنية الهاشمية، قرار 95/300، 31 آب 1994، وثائق المؤلف.

(2) عملياتي: أي ذو علاقة بالعمليات الحربية. (المترجمة).

(3) اعترافات أبي محمد المقدسي، محكمة أمن المملكة الأردنية الهاشمية، قرار 95/300، 31 آب 1994، وثائق المؤلف.

قائـدا جماعـة بـيعة الإمام آنذاك من استعداداهما للهروب، ذلك أنه ومنذ عدّة أسـابيع، يعلمـان أهمـا مراقبان. لقد أكّد الزرقاوي ذلك للمدعي العام الذي استجوبه: "كنت أعلم أن المخابرات تترصّدني"[1].

لم يجهـل الـزرقاوي أنـه قد أصبح، ومنذ عودته، هدفاً ذا أولوية لدى الأجهـزة الأردنـية، بـسبب شخصيته الخارجة عن المألوف، وبسبب صلته بالمقدسـي الـتي حافظ عليها. وما لبث المقر العام للأجهزة الأردنية أن وجَّه اسـتدعاء حضور إليه في منـزله في حي الرمزي. وكان الزرقاوي قد قرّر من قـبل ألا يـسلّم نفسه لتلك الأجهزة. إن ردّ فعله، كما رواه هو بنفسه أثناء استجوابه، يدلّ دلالة عميقة على شخصيته: "كنت سأفعل المستحيل لئلا أذهب إليهم، وكنت سأقاوم إن هم قرّروا اقتيادي. وعندما عرفت أنني قد استُدعيت، اشـتريتُ [...] رشّاشاً [...] ودفعت ثمنه 800 دينار. لقد فعلت ذلك بهدف المقاومـة إن جـاءت الشرطة إلى منـزلي [...]. كان لديّ ثلاثة مخازن لذلك السلاح و35 رصاصة"[2].

بالـرغم من عزمه الأكيد على ألا يدع نفسه يُعتقل، فقد قُبض عليه في 29 آذار مـن العـام 1994. وبعـد خمسة أيام، اعتقلت الشرطة المقدسي بدوره، في منـزله في ياجوز. وخلال التفتيش الدقيق الذي جرى بتوجيه النقيب مصطفى عواد، طلب المقدسي بأن يُسمح لأبويه بالخروج من المنـزل لئلا يعلما أن ابنهما كـان قد خبّأ متفجرات في منـزل العائلة[3]. وقد تمّ العثور على تلك المتفجرات داخـل سقف مستعار أُعد خصيصاً لهذه الغاية، وكذلك في حوامل الستارة. وقد اعتلى المقدسي بنفسه برميلاً ليدلّ رجال الشرطة على المخبأ...

إن المحامـي فـؤاد بدوي، الذي وكّلته المحكمة ليتولّى الدفاع عن الزرقاوي

(1) اعترافات أبي مصعب الزرقاوي، محكمة أمن المملكة الأردنية الهاشمية، 95/300، 31 آب 1994، وثائق المؤلف.

(2) المصدر نفسه.

(3) اعترافات أبي محمد المقدسي، محكمة أمن المملكة الأردنية الهاشمية، قرار 95/300، 31 آب 1994، وثائق المؤلف.

والمقدسي، رفض الدفاع عنهما. وسرعان ما استبدل بمحمد دويك. وتمّت مواجهة المقدسي بالزرقاوي، أثناء استجوابهما، وذلك في ظل الأساليب القاسية لدائرة المخابرات العامة الأردنية GID، إلى درجة أن المقدسي طلب المرة تلو الأخرى ألا يتعرّض للضرب[1].

أثناء التحقيق، سجّل المدعي العسكري محمود عبيدات عدّة أوجه اتهام ضدهما، ومنها المشاركة في تنظيم غير قانوني، وحيازة مواد متفجرة وأسلحة دون ترخيص، وتزوير جوازات سفر، والتطاول على مقام الملك. ولا زال مدعي عسكري آخر، هو مهند الحجازي، كان حاضراً وقت إعادة تمثيل التهمة أمام المنزل في حي معصوم، يتذكّر بدقة الطريقة التي كان يخاطبه بها الزرقاوي. كان هذا الأخير وقتذاك مقيداً، وتحت رقابة قوى الأمن، عندما اقترب المدعي العسكري. وإذا بالزرقاوي يناديه باسمه، مع أن الحجازي لم يكن يحمل شارة مميِّزة رسمية ولا علامة. وسأله المدعي العسكري مندهشاً كيف عرفت اسمي. وردّ عليه الزرقاوي بأنّه كان يراه وهو يترافع في قضايا عديدة، وأنه كان يلاحظ ملاءمة مرافعاته.

يتذكّر المدعي العسكري الحجازي فتى صلباً، نظراته ثاقبة، وجسده مغطى بالوشم. وبحسب رأيه، فإن الزرقاوي كان في ذلك الوقت أقرب إلى جانح بحق القانون العام أكثر مما هو إرهابي عالمي. لقد كان معروفاً بأنه فتى زقاقي، ومعارفه الدينية مبهمة. وخلال إعادة التمثيل، حاول الزرقاوي مراراً أن ينقل رسائل إلى عائلته التي كانت تراقبه من شرفة المنزل. كان يحاول أن يحدِّد لأخيه على الخصوص المكان الذي كان قد خبّأ فيه المتفجرات، ذلك أنه كان قد أوضح للشرطة بأن الأسلحة مخبأة في مجرى ساقية مجفّفة تقع أسفل منزل العائلة، بالقرب من مقبرة الزرقاء، في حين أن الذخيرة كانت موجودة في نطاق المنزل نفسه... قبل ذلك، كان الزرقاوي وطيلة ساعات عديدة قد ادعى أنه نسي مكان المخبأ[2].

(1) المصدر نفسه.

(2) مقابلة مع مهند حجازي، المدعي العسكري للملكة الأردنية الهاشمية، 16 أيلول 2004.

أخـــيراً، تمّ اعتقال أخيه عمر أيضاً في إطار التحقيق حول شبكة بيعة الإمام، وسجن لفترة من الزمن في سجن سواقة.

وقّـــع الــــزرقاوي وهو رجل بالغ الصلابة، اعترافات مفصَّلة أمام المدعي العسكري محمود عبيدات في 31 آب من العام 1994. وأقرّ بما يلي: "أنا مذنب لحـــيازتي قـــنابل وألغـــام دون ترخيص قانوني، ولتدخلي في تزوير جواز سفر واستعماله. وأنا أصادق على ذلك وأوقّع، أحمد فضيل"[1]. ووقّع المقدسي من جانـــبه علـــى اعتـــرافات من نفس النمط وذهب إلى حدّ إدانة الإرهاب: "إن القنابل، والألغام، والأسلحة التي كانت بحوزتي غير مخصصة لأعمال إرهابية في الأردن وإنما من أجل مقاومة العدو الإسرائيلي وأنا ضد جميع الأشخاص الذين يقترفون أعمالاً إرهابية ضد قوات الشرطة، وعملاء المخابرات، ودور السينما، وأمـــاكن بـــيع الكحول"[2]. لم يذكر المحضر في أي ظروف أدلى المقدسي بهذه الإفـــادة. ومهما يكن، فإن الأعمال التي شرع بها تنظيم بيعة الإمام تتعلّق على نحـــو كبير بالإرهاب، بمعناه الأعم، وكانت تستهدف المملكة الهاشمية قبل كل شيء.

بعـــد هـــذا الاعـــتقال الأول، واصل المقدسي دعم القضية السلفية، ودعم الهجمـــات الإســـلامية المـــرتكبة عبر العالم. وبعد الحادي عشر من أيلول، شعر بالـــسرور خـــصوصاً من الهجمات على واشنطن ونيويورك[3]. وعلى الرغم من اعتقاله مجدداً في الأردن، فإن المقدسي، وحتى وقتنا الحاضر، ما يزال يواصل نشر، خطاباته المتطرفة عن طريق موقعه على الإنترنت.

وهكـــذا، وخلال العام 1994، فكّكت الشرطة الأردنية جماعة بيعة الإمام، وحُـــوكم زعيماها، المقدسي والزرقاوي ووضعا في السجن. لقد كان هذا التنظيم

(1) اعترافات أبي مصعب الزرقاوي، محكمة أمن المملكة الأردنية الهاشمية، 95/300، 31 آب 1994، وثائق المؤلف.

(2) اعترافات أبي محمد المقدسي، محكمة أمن المملكة الأردنية الهاشمية، قرار 95/300، 31 آب 1994، وثائق المؤلف.

(3) "تحت المجهر"، مقال سبقت الإشارة إليه.

يمـــثّل أحد التهديدات المتطرفة الأكثر خطورة والذي كان يلقي بثقله وقتذاك على المملكة. وتنفسّت السلطات الصعداء. لكن، في العام 1997، أي بالكاد بعد مرور ثلاث سنوات، أشارت تحريات جديدة إلى أن تجدّد نشاط بيعة الإمام يدور حول أربعـــة شـــبان أردنيين: مجاهد عبد الرحيم، عيسى الخلايله، علي الخلايله، سعود الخلايلـــه. إن هؤلاء الثلاثة الآخرين ينتمون إلى عشيرة الزرقاوي، وسعود الخلايله هو ابن عم أبي مصعب[1].

(1) "تقاريـــر صحفية عن نهضة الجماعات الإسلامية"، هيئة الإذاعة البريطانية (برنامج الحدث)، 12 أيار 1998.

الفصل الخامس

في "سواقة"، سجن الصحراء

حقّقـــت العملـــية ضد الزرقاوي وجماعته نجاحاً كبيراً بالنسبة لقوات الأمن الأردني. وقُـــدِّم ثلاثـــة عشر متهماً، في تشرين الثاني من العام 1996، إلى محكمة الأمن العسكرية، التي يرأسها العقيد يوسف فاعوري.

وأثناء المحاكمة، بدا أن المقدسي قد تراجع عن اعترافاته، فها هو يصيح: "الله أكبر، سيكتب التاريخ سرّ جهادنا، وصوت الجهاد لن يضعف". وبينما كان العقيد يوســـف فاعـــوري ينطق بالحكم، وهو خمسة عشر عاماً من السجن على زعيمي الجماعـــة، كان المقدسي يتلو آيات قرآنية. وقبل أن يخرج من القاعة، صاح: "إن أحكامكم ستزيد إيماننا بديننا، والجهاد حتى النصر!"[1].

أما أبو مصعب الزرقاوي فحكم عليه، وللمرة الأولى، بعقوبة سجن قاسية في بلـــده، وذلـــك بعـــد ثلاث سنوات فقط من عودته إلى الأردن. ومنذ ذلك اليوم سيغذّي كرهاً شديداً ضد نظام الحكم ذاك والذي رأى الزرقاوي أنه فاسد ومدافع مأجور عن مصالح الأميركيين. في العام 1995، قلق الأميركيون أنفسهم من شروط الاعتقال السيئة للسجناء الأردنيين في سجن سواقة[2].

خلال المحاكمة، بدا الزرقاوي مبهوراً بالخطاب السلفي الذي انغمس فيه هو نفسه منذ عودته من أفغانستان. لقد أنكر نظام الحكم الأردني، وكذلك كل شكل من أشكال السلطة السياسية. ورفض توكيل محامٍ إلى جانبه، ورفض الاستماع إلى

---

(1) "الحكم بالسجن على مسلحين أردنيين خطّطوا لهجمات على إسرائيليين"، وكالة أنباء رويترز، 27 تشرين الثاني 1996.

ملاحظـــة: وردت في النص الفرنسي الأصلي عبارة: النصر حتى الجهاد، لكن يبدو أن هنالك خطأ ما، والأصح: الجهاد حتى النصر. (المترجمة).

(2) "ممارسات حقوق الإنسان الأردنية"، قسم الدولة الأميركية 1995.

أحكام القاضي التي - كما يقول - تتعارض مع تعاليم الله. وحاول أن يدافع عن نفسه بنفسه دفاعاً أرعن إلى حدٍّ كبير، وطلب من القضاة التوبة، والارتباط من جديد بروح الجهاد. لقد فقد بشكل واضح إدراك الحقائق، كما كشف عن شخصية مضطربة ومشوَّشة، ومشبعة بإيديولوجية قد بثّها بمهارة قدوته في التفكير، أبو محمد المقدسي. إن محامي الزرقاوي والمقدسي الذي وكلته المحكمة، السيد محمد دويك، ألقى نظرات متتالية على الرجلين وقال: "في ذلك الوقت، كان أحمد [الزرقاوي] يحمل نفس أفكار المقدسي [...]؛ من الممكن القول إنه [الزرقاوي] نسخة عن المقدسي. لكن المقدسي هو أكثر خطراً بألف مرة من الزرقاوي. إنه يتمتّع بسحر، وجاذبية وكان بوسعه إقناع أي شخص"[1].

في البدء المدارس الدينية الباكستانية، ثم الأراضي الأفغانية المليئة بالألغام، وبعد ذلك ضواحي عمان، واليوم سيجد الزرقاوي أرضاً جديدة للنضال في السجون الأردنية. فضلاً عن ذلك فإن جاذبيته وقوته ستظهران في السجن وسط جوٍّ جديد. وبعد أن حُكم عليه في 27 تشرين الثاني من العام 1996 بخمسة عشر عاماً من السجن، نقل على الفور إلى سجن "سواقة" المشدد الحراسة، وأفضل سجون الأردن أمنياً، ويقع هذا السجن بين عمان والعقبة، في وسط الصحراء.

أمضى أكثر من عامين في السجن، منذ اعتقاله عام 1994. كان في المبنى الثالث، في الطابق الثاني، وشغل الزنزانة رقم 6، التي تقابل مكتب مدير السجن[2]. إنها زنزانة جماعية كبيرة، وزعت فيها أسرة فولاذية وجُمع فيها "إسلاميون"، متنوعون، بعضهم كانوا أعضاء في بيعة الإمام. ويتذكّر أحد المسجونين مع الزرقاوي أنه كان قد رآه يُعدّ سريره مثل خيمة، مسدلاً الأغطية على كل جانب من الفراش. ويجلس على الأرض، محاولاً حفظ آيات القرآن[3].

(1) "الزرقاوي يسلك طريقاً عشائرياً في الإرهاب"، مقال سبق ذكره.

(2) مقابلة مع مدير أمن سجن "سواقة"، 16 أيلول 2004.

(3) "رحلة الزرقاوي من العزلة إلى سجين إلى قائد للمعارضة المسلحة في العراق"، مقال سبقت الإشارة إليه.

ويتذكّره المقدسي قائلاً: "على صعيد العلوم الدينية، لم يكن الزرقاوي مثالياً، لكنه حفظ غيباً كتاب الله"[1].

كان المقدسي مسجوناً في السجن نفسه، وفي الوقت ذاته. لكن، في هذه المرة، استولى الزرقاوي على النفوذ. وفي العام 2004، قدّم المقدسي رواية "لاحقة" و"ملطّفة" جداً لانتقال السلطة ذاك، فيقول: "إن الأخوة اختاروني أميراً. وبقيت كذلك رغماً عني لمدة عام قبل أن أكرّس نفسي للعلوم الشرعية. لقد اتخذت قراري في أن أعطي مكاني للزرقاوي. وعلى عكس ما كتبه بعضهم، فإن ذلك لم يكن نتيجة خلاف بيننا، وإنما هو نتيجة اتفاق، وذلك من أجل أن نتمكن من الكلام بصوت واحد مع إدارة السجن"[2]. وأصبح الزرقاوي سواء بالنسبة للحراس أو بالنسبة للمسجونين معه مثار فضول: من هذا الرجل الذي يقضي وقته في قراءة القرآن، وجسده مغطى بالوشم المخضر؟ ولماذا هو نادر الكلام؟ إنه جذّاب ويبعث على الفضول. وبسرعة كبيرة، اكتسب الزرقاوي شبكة علاقات، في داخل السجن كما في خارجه. بيد أن العلاقات مع الخارج كانت سهلة. وهكذا استطاع المقدسي أن يكتب وأن ينشر نصوصاً سواء وهو معتقل في سواقة، أو السلط، أو الجفر، أو قفقفا. وفي العام 2004، أوضح قائلاً: "في كل سجن، كانت لدينا إمكانية إخراج رسائل وإدخال كتب [...] إن الحكومة تسجننا والله وهبنا كل ما كنا بحاجة إليه". إن كانت طرق الله غامضة، فالرشوة سلوك منتشر في السجون. أما بالنسبة إلى النقل الدوري من سجن إلى آخر، فإنه يسمح، بحسب رأي المقدسي، "بالتقريب بين إخواننا" و"بتعميق معتقداتنا". وعلاوة على ذلك، يضيف المقدسي بأن الحكومة الأردنية "لا تحسب أن السجن يقوي من نضالنا"[3].

يتذكّر الشيخ جرّاح القدّة، الذي كان يزور الزرقاوي وقتذاك في السجن، أنه قد رآه مجدداً بُعيد الحكم عليه. كان يشتهر وقتذاك بحبه لإخوانه في النضال أكثر من حبه لأفراد أسرته. وكثيراً ما كان يصيح أيضاً وسط السجن نفسه، كما اعتاد

(1) رسالة بعنوان "نصائح الشيخ المقدسي إلى أبي مصعب الزرقاوي"، وثائق المؤلف.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه.

أن يفعل في شوارع الزرقاء، بُعيد عودته من أفغانستان.

في غضون بضعة أشهر وحسب، أصبح زعيم مجموعة محترم الجانب وسط السجن، وذلك بفضل ماضيه الأفغاني، ومواقفه الدينية، وقوته البدنية، وريبته تجاه سلطة السجن، وأساليبه النشيطة تجاه المسجونين معه. وفي نفس الوقت تمّ اعتقال معارض إسلامي آخر للنظام الأردني، أكثر اعتدالاً، هو ليث شبيلات، وذلك لكونه في تنظيم "جيش محمد". تقابل الرجلان مرات عديدة وكثيرة في الممرات. وعلى الرغم من أن الرجلين هما مناضلان إسلاميان، فقد كان الزرقاوي ينظر باستخفاف إلى عضو البرلمان السابق ذاك، المتمرّس في الطرق السياسية وممثل النظام الديمقراطي. كان الزرقاوي وهو التلميذ المخلص للمقدسي، يعتقد أن النموذج الديمقراطي لا يتطابق البتة مع القرآن. أما ليث شبيلات، من جهته، فهو يتذكّر الزرقاوي رجلاً مشبعاً بالدين. لقد أثار التزام الزرقاوي، في مرات كثيرة، نزاعات عنيفة إلى حدّ كبير مع إدارة السجن. فعلى سبيل المثال، فرضت إدارة السجن على السجناء ارتداء لباس موحد، مع بعض الاستثناءات تقريباً بالنسبة للسجناء السياسيين. رفض الزرقاوي ومساعدوه ارتداء ذلك اللباس، الذي هو في نظرهم رمز الخضوع لسلطة المملكة. وبحسب ليث شبيلات، فإن الجيش أطلق ذات يوم جنداً في حرم السجن وذلك لفرض تنفيذ القانون. وتحوّل الوضع وقتذاك إلى مواجهة، وفي نهاية الأمر، خضع الزرقاوي ومساعدوه. توجّه الزرقاوي، وقد استبدّ به الحنق، إلى الجنود شاتماً إياهم وواصفهم "بالكفرة". وبحسب المصدر نفسه، أكّد الزرقاوي نفسه، ومنذ أيامه الأولى في السجن، كأحد القادة الأكثر نفوذاً[1].

أطلق سراح ليث شبيلات، بعد مرور بضعة أشهر، بأمر من الملك حسين. فضاعف حينها من مساعيه لإطلاق سراح رفاقه الإسلاميين. وسيروي لاحقاً المحادثة التي أجراها مع الملك حسين في المقابلة التي منحها الملك له بُعيد إطلاق سراحه قائلاً: "جلالتكم، دعني أزفّ إليهم أنباء طيبة – من تقصد بكلامك؟ –

(1) "تحت المجهر"، مقال سبقت الإشارة إليه.

أقصد السجناء، السجناء السياسيين، أو دعني أقول الإسلاميين، أو بالأحرى الأفغان [...]. سيدي، دعني أقول لكم أنكم أنتم وأنا، مسؤولون عن هؤلاء الناس - كيف؟ - خلال خمسين عاماً، علمتموهم كيف يظلّون صامدين في وجه الصهيونية، وتريدون تغييرهم في ليلة واحدة؟ بالنسبة لي، وأنا إسلامي معتدل، أرى أنكم قد أخفقتم. أنتم لم تتيحوا لي، ولا لأولئك الذين يفكرون مثلي، بأن نطوّر كلياً أو جزئياً برنامجنا. وعلى هذا النحو، جلالتكم، لا بد أن تتوقّعوا اليوم من هؤلاء الأشخاص أن يعاملوكم على أنكم "كفرة"[1]. لكن الحكاية، كما رواها ليث شبيلات، لا تقول شيئاً عن ردّ فعل الملك.

بينما كان شبيلات يدافع عن القضية الإسلامية أمام الملك، اندفعت القوى الإسلامية "الديمقراطية"، والتي منها حزب "الإخوان المسلمين" (الفرع الأردني)، في نشاط جماعة ضغط بشكل مكثّف لدى مختلف القوى السياسية في المملكة، وفي الوقت عينه كان الزرقاوي يوطّد موقعه وسط السجن. إن سجنه قوّى يوماً بعد يوم من مقته للنظام وحنقه على "الكفار". إلا أن الزرقاوي لم ينسَ مع ذلك عائلته، التي ظلّ يبعث إليها بانتظام رسائل ورسوم، وبخاصة إلى أمه، أم صايل، وكذلك إلى زوجته، أم محمد. إن رسائله، التي كتبها في أوائل سنوات سجنه، أظهرت إلى أي حدٍّ قد تصلّب في السجن. إن حرمانه من الحرية، وطّد لديه فكرة أن معركته صالحة وأن معتقداته لا بد أن تظهر للعيان من كل بدّ. بعد انقضاء عامين على توقيف الأمن الأردني له، لم يبدِ الزرقاوي أي أسف على خياره الإيديولوجي، ولا أي ندم على موضوع محاولته الأولى في الاعتداء.

كان المسجونون معه يدنون منه، فيحدِّد الزرقاوي من بينهم الأكثر إخلاصاً. لقد أصبحت الروابط التي نسجها لنفسه خلال تلك السنوات أبدية، لا سيما أنها قامت على إيديولوجية صلبة. وهنالك صحفي أردني، هو عبد الله أبو رمان، والذي سيصبح رئيس تحرير المجلة الأسبوعية "المرآة"، كان قد شارك في الجريدة اليومية لأبي مصعب الزرقاوي خلال إقامتهما في سجن سواقة. ويتذكّر أنه في أيلول من العام 1996 كان الزرقاوي ما يزال زعيم مجموعة من السجناء

(1) المصدر نفسه.

الإسـلاميين، وبخاصة أولئك الذين كانوا قد انحدروا من جماعته، بيعة الإمام. كان الـزرقاوي وأتباعه مسجونين في زنـزانة مجاورة لزنـزانة ذلك الصحفي. ولقد كـان لديهم نظامهم الخاص في الحياة مجتمعين، نظام يتطابق مع القواعد الصارمة التي فرضها الزرقاوي. كان ينظر إلى هذا الأخير كزعيم، وكان يهتم بجميع الأوجه المرتبطة بالتنظيم الاجتماعي للمجموعة. بالطبع، وسط هذا الجناح نفسه من سجن سواقة، كانت هنالك زمر أخرى تحركها معتقدات تختلف عن معتقداته. وبحسب عبد الله أبو رمان، فإن حروباً داخلية كانت تنفجر غالباً بين مختلف الفصائل، فكل فـصيل يـتهم الآخر بالردّة. لقد فتح السجن مجالاً جديداً للصراع بالنسبة لهؤلاء المقاتلين في سبيل الله.

وهكـذا، كان سجن "سواقة"، في مطلع عقد التسعينيات، أشبه بحوض سمك مـدهش تتواجد فيه القضايا الإسلامية الأكثر اختلافاً. وكانت مختلف الحركات الممثّلة فيه تتحالف مع عصابات تقدّم الحماية وضمان البقاء لأعضائها. وتشغل كل جماعـة مكانها الخاص، وتجنّد أعضاءها الجدد، وتوزّع منشوراتها الخاصة بها على المنـضوين لفكـرها المتحمسين والحاذقين. وتجتمع في أماكن محددة وقت صلاة الجمعة.

كانـت أحزاب عدّة، وكلها غير قانونية، تتوزّع فيما بينها الجناح المركزي للسجن. وكان من بينها "حزب التحرير الإسلامي"، الذي يتزعّمه عطا أبو الرشته، الذي هو أيضاً وراء جماعات "الجون" و"الموجب". إن تلك الحركات، المنبثقة من جماعة "الإخوان المسلمين" الأردنية، كانت تتواجد مع بعض الإسلاميين، مثل ليث شـبيلات. ومن جهة أخرى كان هنالك "الأفغان". كان هؤلاء الأفغان يشكّلون جماعـة منفـصلة، عازمة على فرض الخلافة الشهيرة في الأردن وفي الشرق الأدنى كله، بدءاً من سجن سواقة.

إن أعضاء هذه الحركة وهم الجسورون وغير المتوقعين، كانوا مرهوبي الجانب لـدى السجناء الآخرين، نظراً إلى أن شبكاتهم كانت تمتدّ من جناح إلى آخر في السجن. وكان الزرقاوي يضبط التسلسل الهرمي للجماعة، مع أبي محمد المقدسي.

ويـصرّ عبد الله أبو رمان، وهو مشاهد لهذا التنظيم الأصولي الذي تكوّن من

جديد وسط السجن نفسه، على أن نفوذ الزرقاوي ازداد تدريجياً لدى السجناء "الأفغان"، بمعية الإيديولوجي المقدسي[1]. وهكذا رأى هذا الأخير سيطرته وتأثيره يتضاءلان بينما هو نفسه من ألهم الزرقاوي الإرشاد "الإسلامي". لكن من الصحيح أيضاً أن الزرقاوي وبعكس المقدسي كان يقوم مسروراً بدور المتنفّذ ولم يكن يتردّد في تحدّي الحرس وكذلك إدارة السجن. كما حاول في مرات عدّة تنظيم عصيان، وغذى عدوانية جماعة الموقوفين معه الذين كانوا يشاركونه ظروف السجن. لم يتردّد الزرقاوي أبداً في إثارة الحراس، الذين كان يشتمهم بسرور ويصفهم بالكفرة. وهكذا كان يُستدعى المرة تلو الأخرى إلى مكتب مدير أمن السجن ويثبت في كل مرة نظره فيه بكل حزم[2].

إن مفاخر الزرقاوي أكسبته رقابة دقيقة وسط السجن نفسه، لكنها أكسبته أيضاً اهتماماً خاصاً من سجانيه. إن الجناح الذي سجن فيه أعضاء جماعة بيعة الإمام سرعان ما استفاد من امتيازات، مثل عدم المشاركة في التجمعات الصباحية في ساحة السجن، وآخرها إعفاءهم من ارتداء اللباس الموحد. وبحسب عبد الله أبو رمان، تمتّع الأفغان أيضاً بأكبر نصيب من الحرية في التنقل وسط السجن وفي القيام بزيارات إلى معتقلين آخرين دون خوف من تلقي التوبيخ[3].

أظهر الزرقاوي ريبة من الحراس، فاجتذب لنفسه إعجاب - أو على الأقل احترام - رفاقه لأنه، وبعكس المعتقلين الآخرين، سلك سلوك التمرد. إلا أنه لم يكن يتحمّل النقد برحابة صدر.

هنالك معتقل آخر، اسمه "يوسف ربابه"، كان مسجوناً في الوقت نفسه لعلاقاته مع تنظيم غير قانوني "عجلون مايندز"[4]، كان كثيراً ما يكتب في مجلة

(1) "مقابلات صحفية مع جيران الزرقاوي، وزملائه في السجن"، صحيفة الشرق الأوسط، 8 آذار 2004.

(2) مقابلة مع مدير أمن سجن سواقة، الأردن، 16 أيلول 2004.

(3) "مقابلات صحفية مع جيران الزرقاوي، وزملائه في السجن"، صحيفة الشرق الأوسط، 8 آذار 2004.

(4) Ajlun Minds.

السجن. وعندما نشر مقالات ناقدة حول الزرقاوي، فإن هذا الأخير ردّ عليه بقبضتيه. وبحسب "ربابه"، فإن هذا كل ما كان الزرقاوي قادراً على فعله، لفرط ما كانت تعوزه الفسحة والكلمات لدعم عمله[1].

وعلى العكس، اعتبرته بعض الشهادات، رجلاً متحمساً، توجّهه رؤية، وهي مجيء الخلافة، لكن أغلبية الشهود يتذكّرونه رجلاً عنيفاً لا يحتمل المعارضة كما لا يحتمل الابتعاد عن الدين. وبحسب مساعديه، فقد كان حتى يضرب في مرات كثيرة بعض المسجونين لقراءتهم كتباً أخرى غير القرآن. ويحتفظ أحدهم على وجه الخصوص، وهو أبو دوما، الذي حُكم عليه لقذفه قنبلة نحو المدنيين، بذكرى سيئة عن الزرقاوي.

فذات يوم، وسط السجن ذاته، مرّ الزرقاوي بالقرب من أبي دوما، المأخوذ بقراءة رواية "الجريمة والعقاب". فصاح به: "لماذا تقرأ كتاب كافر؟ وبعد وقت قصير تلقّى رسالة تهديد من الزرقاوي عاب عليه فيها استغراقه في قراءة رائعة دوستويفسكي. وبحسب أبي دوما، وجّه الزرقاوي إليه بعد ذلك رسالة مكتوبة بلغة عربية رديئة جداً، كما لو أن طفلاً كتبها. وأمره فيها بالتوقف عن قراءة "دوستويفسكي"[2].

يتجوّل الزرقاوي ذهاباً وإياباً في السجن، مرتدياً ملابسه التقليدية الأفغانية. وتتملّكه أسطورة المعارك الكبرى "الأفغانية" ضد السوفيات، والتي لم يعشها مع ذلك. وخلال الأحاديث الخفية وفترات العصر الطويلة من النقاشات في الزنزانة الجماعية رقم 6، غذّى أسطورة "عرب" أفغانستان وكذلك اختلق ملحمته الذاتية.

كان لا يستطيع الإحاطة بالمناقشات السياسية التي تنشأ بين الإسلاميين، لهذا فقد كان يعوّض عن ذلك برفع أثقال مرتجلة مصنوعة من قطع من سريره ومن علب حفظ زيت الزيتون مليئة بالحصى. يتذكّر رفاقه في الزنزانة تماماً تمارينه في تقوية العضلات. كما كان يركض كل يوم في ساحة السجن ليحافظ على شكله.

---

(1) "رحلة الزرقاوي من العزلة إلى سجين إلى قائد للمعارضة المسلحة في العراق"، مقال سبقت الإشارة إليه.

(2) المصدر نفسه.

لقـــد أضحت قوته البدنية خصوصاً وسيلة لضمان سلطته. إن الرجل الذي أحسّ بطعـــم النفوذ "يحب أن يمسك بزمام سطوته بين يديه"[1]، هذا ما يؤكّده يوسف ربابه. وأثبت الزرقاوي ذلك في العراق، في أحلك ساعات تنفيذ الإعدام بالرهائن.

شهر إثر شهر، والزرقاوي يكوِّن لنفسه بنية جسم مقاتل. وأصبح الزرقاوي شخـــصية رئيـــسة في عالم "سواقة" الصغير. كما جعل لنفسه أيضاً دوراً اجتماعياً وســـط الـــسجن، بـــتوزيعه وجبات طعام المسجونين معه، وبمشاركته بانتظام في المهمـــات البيتية أو بتغسيله، عند الحاجة، المسجونين معه ذوي العاهات[2]. وعلى هـــذا الـــنحو أصـــبح السجناء الأربعون الذين يحيطون به مخلصين لقضيته. ثم مدّ الزرقاوي نفوذه ليجنِّد بين جانحي القانون العام و"متعاطي المخدرات"، الذين كان ينظر إليهم بوصفهم "ضحايا المجتمع"[3].

خلال العام 1997، نقل الزرقاوي والمعتقلون السياسيون في سجن سواقة إلى سجن السلط، وفي بداية العام 1998، نقلوا أخيراً إلى سجن جفر المشدّد الحراسة، والـــذي أعيد افتتاحه لأجل ذلك[4]. وفي العام 1998، استدعى الزرقاوي طبيب الـــسجن لمعاينته. وكان أحد أبويه مصاب بداء السكر، وكان يودّ أن يعرف نسبة تَحَلون الدم لديه. وذهب طبيب السجن، الدكتور باسل أبو صبحه، إلى زنـــزانته. وما زال الطبيب يتذكّر نفوذ الزرقاوي على المسجونين معه. فقد لاحظ أثناء هذه الـــزيارة أن الـــزرقاوي كان بوسعه أن يعطي أوامر إلى المسجونين معه بغمز عينه فقـــط، وأن هـــؤلاء لم يكونوا يذهبون إلى العيادة إلا بعد حصولهم على موافقته المسبقة[5]. وقد أشار الطبيب أيضاً إلى أن الزرقاوي كان قد حاول أن يمحو وشم جسده (والذي هو مع ذلك ثابت لا يمحى) باستخدام حمض الكلوريدريك.

(1) "الزرقاوي يسلك طريقاً عشائرياً في الإرهاب"، مقال سبقت الإشارة إليه.
(2) مقابلة مع عبد الله أبو رمان، موقوف سابق مع الزرقاوي، 8 تشرين الثاني 2004.
(3) "سرُّ الزرقاوي"، مقال سبقت الإشارة إليه.
(4) المصدر نفسه.
(5) "رحلـــة الـــزرقاوي من العزلة إلى سجين إلى قائد للمعارضة المسلحة في العراق"، مقال سبقت الإشارة إليه.

وفي نفس العام، أي في العام 1998، وبينما كانت القاعدة تضرب السفارتين الأميركيتين في تنـــزانيا وكينيا، تكلّم الزرقاوي أمام رفاقه في الزنـــزانة عن عزمه على أن يهاجم هو أيضاً أهدافاً أميركية.

انعـــتق الزرقاوي من سجن سواقة، لقد درّب جسده وصلّب مواقفه، بينما زوجـــته، أم محمد، وأولى بناتها، أمينة، وأمه، المريضة مرضاً خطيراً، ينتظرن بفارغ الـــصبر عـــودته إلى المنـــزل العائلي في حي رمزي. قلق أقاربه على وضعه. لكن بالنسبة إليه، لم يكن السجن يسبّب كرباً له. بل على العكس، إنه بالأحرى يشعر بالـــراحة فيه. وفي رسائله المتقطعة التي بعث بها إلى عائلته، أشار إلى أنه تصالح مع نفسه - ومع الله.

خـــلال العام 1998، كان الزرقاوي لا يزال يكرّس المزيد من الوقت للصلاة مـــع رفاقـــه. وعقـــب كل صلاة جمعة، يطيل الخطبة متكلماً ضد غير المسلمين والأعمـــال الجائرة التي ينكبّ على اقترافها الأميركيون والأنظمة العربية. توتّرت علاقـــة الـــزرقاوي بالمقدسي أكثر فأكثر، وساوره الحسد من تقدير أولئك الذين يحـــيطون بالمقدسي. ولاحظ يوسف ربابه في العام 1998، الذي كان يشاهد من الخـــارج تطـــوّر الأمور، حدوث تغيير عميق في العلاقة بين الزرقاوي والمقدسي، وكذلك وجود توترات حادة بينهما. وفي نهاية تلك السنة، ظلّ المقدسي وحده في ســـجن سواقة إذ نقل الزرقاوي مع جماعته المخلصين إلى سجن آخر، وهو سجن جفر، الواقع في وسط الصحراء. وهذا السجن المشدّد أمنياً هو أحد السجون الأشد قـــسوة في المملكة الأردنية. فلقد انـــزعجت السلطات من مدى إضرار الزرقاوي ومن هيمنته على السجناء الآخرين.

لم يهدأ الزرقاوي منذ اعتقاله عام 1994، بل على العكس. وبخلاف أسامة بن لادن، الـــذي أشـــاد بمحاربـــة اليهود والصليبيين، أقسم الزرقاوي على إبادة غير المؤمـــنين جمـــيعاً، الأمـــر الـــذي وفّر له طيفاً واسعاً جداً من الأهداف المرشحة للاستهداف حال خروجه.

إن عبارة "غير المؤمنين" تغطّي لدى الزرقاوي خليطاً كبيراً إلى حدٍّ كبير، يـــشمل المسيحيين، واليهود، وأيضاً الشيعة، والهندوس، وعلى نحو أعمّ، جميع

أولئك الذين لم ينضمّوا إلى أشد السلفيين[1].

كان الزرقاوي عند نهاية سجنه في السجون الأردنية، مخلصاً لفكرة مفرطة في التبسيط وتقيِّم الأمور على نحو قاطع إما خيراً أو شراً، والتي بحسبها هنالك عالمان: عـالم المسلمين المؤمنين السنَّة ذوي الانقياد السلفي، وعالم الآخرين، الكفار ("غير المؤمـنين")، ومعهـم باقـي المسلمين المتعاونين مع العدو "اللدود" أي إسرائيل والـولايات المتحدة. ولا يستحق الحياة أي فرد تابع للفئة الثانية. ويسرُّ الزرقاوي لـربابه، قبيل إطلاق سراحه، أن من واجبه مهاجمة الكفرة أينما كانوا ودون تمييز، سواء أكانوا أوروبيين أو مسلمين شيعة.

في حين أن الزرقاوي لم يقسم إلا بتحقيق مآربه، إلا أن قلقاً عميقاً ساور أجهزة المخابرات الأردنية من هذا الشخص العزوم، الذي يتعذّر تصنيفه، والذي صلّبت عوده سنوات خمس في السجن. إن الزرقاوي شخص يتعذّر توقّع أفعاله. ولا ينطـبق على أي تصوّر مقرّر سلفاً ولا يتصل بأي منطق حزبي. إنه على ما يـبدو يستجيب لميل فطري لديه في التخريب. وحول هذه النقطة الأخيرة، فإن الـزرقاوي المقاتـل بعـيد جداً عن أهداف القاعدة المعقدة وعن التوجيهات الإيديولوجـية المـستمدة من أسامة بن لادن. لقد كانت مختلف العمليات التي تـشنّها القاعـدة تتّصل، في هذا الوقت، باستراتيجية عسكرية وسياسية مهيأة وبعـيدة الأمـد ويـستخدمها أسامة بن لادن بنفسه. إن الزرقاوي، مثله مثل المقدسي، لم يملك، في تلك المرحلة، وسائل إنجاح برنامجه الطموح.

لذا سيكتفي الزرقاوي في البداية بإرهاب الفرصة السانحة.

---

(1) تجدر الإشارة إلى أن الإسلام لم يدعُ قط إلى إبادة "غير المؤمنين"، وإنما دعا إلى قتال من يقف في وجه الدعوة إلى الله. (المترجمة).

القسم الثاني

مقاتل في كل الأوقات

كان مجرد زقاقي في مدينة الزرقاء. لم يكن يتمتّع بشهرة رجل ذكي أو متألّق. وفجأة، وبينما لم يكن أكثر من مجرم وسكير، وجد نفسه في شبكات القاعدة.

ملك الأردن عبد الله،

27 أيلول 2004

الفصل الأول

رحيل جديد

عمـــان، كانون الثاني في العام 1999. مات الملك حسين، وعاش الملك عبد الله! لقـــد اعتلـــى عبد الله عرش المملكة الأردنية الهاشمية في كانون الثاني في العام 1999. لقد أمضى عبد الله، طفولته بين الأردن وإنكلترا، لا سيما في "ساري"، إلى جانب أمه الإنكليزية، منى (واسمها الحقيقي أنطوانيت أفريل) التي اعتنقت الإسلام. ودرس في مدرسة "سانت إدموند"، ثم في "أكاديمية ساند هيرست العسكرية"، و لم يعـــد إلى الأردن إلا عـــام 1984. واصـــل عـــبد الله دراســـته في الجامعـــات الأنكلوسكسونية الهامة، وبخاصة في جامعة "جورج تاون" (في واشنطن)، إلى حين تـــرقيته إلى رتـــبة عميد في القوات الأردنية عام 1994. بطبيعة الحال، إن الزعيم الأكثـــر مـــيلاً للغـــرب من بين جميع زعماء الشرق الأدنى سرعان ما سيشهِّر به الإسلاميون على اختلاف مشاربهم باعتباره بيدقاً بيد الأميركيين. وأراد عبد الله أن يفتح بلاده على الخارج وأن يحرّر الاقتصاد الأردني.

وعلى الرغم من تلك الاعتراضات، فإن تسلّم الملك الشاب للسلطة لعب في الفترة الأولى لصالح استقرار المنطقة. في الواقع، سرعان ما اختلف عبد الله بسرعة كبيرة عن التوجهات المتصلبة التي اتخذها أبوه، الملك حسين، فيما يتعلّق بالسياسة الخارجية. ففي المقام الأول، اصطفّ على نحو وثيق إلى جانب واشنطن وراهن على تقارب دبلوماسي مستمر مع الولايات المتحدة. إلا أنه رفض أن تصبح بلاده قاعدة خلفـــية للأميركيين في مشروعهم لتقويض استقرار النظام العراقي. غير أن تحالف المملكـــة مع الولايات المتحدة اتّخذ بعداً خاصاً في أعقاب الحادي عشر من أيلول عـــام 2001. إذ انـــدرج الأردن، في الواقـــع، على رأس قائمة البلاد العربية التي ستشارك بفعالية في معركة مكافحة الإرهاب التي تقودها واشنطن. وعلى الصعيد الإقليمـــي التزم عبد الله بمتابعة الجهود الأردنية في إطار معاهدة سلام العام 1994،

وكذلك في الحفاظ على السلام مع إسرائيل. لذلك فإن اتفاقات السلام ظلّت محل انتقاد قوي وسط الشعب الأردني، وبالأحرى وسط منطقة النفوذ الإسلامية.

لقد توجّب على عبد الله، منذ بداية حكمه، أن يتحالف مع الإسلاميين، وعلى الأخص مع "الإخوان المسلمين"، الذين يشكّلون مؤسسة حقيقية هي من أهم القوى السياسية في المنطقة. إن جمعية "الإخوان المسلمين" التي تأسّست في عمان في العام 1946 على شكل حزب سياسي، هو "حزب العمل الإسلامي" تدافع عن رؤية أصولية للإسلام. وقد انضوى "الإخوان"، بعد أن اضطهدوا في السعودية، وسوريا، ومصر، والجزائر، خلال عقد السبعينيات، تحت حماية المملكة الهاشمية. بيد أن هؤلاء "الإخوان" أنفسهم شاهدوا انسحاق فلسطينيي الأردن عام 1970 ولم يحرّكوا ساكناً. وواظبوا بالإذعان لسياسة الملك. وأمام طابعهم المسالم ظاهرياً، فتح لهم الملك حسين أبواب التمثيل الديمقراطي خلال انتخابات العام 1989. وعقب انتصار كاسح غير متوقع في تلك الانتخابات، سيطر الإخوان المسلمون على البرلمان الأردني وشغلوا عدّة مراكز وزارية.

هكذا، ومنذ العام 1989، توجّب على العاهل الأردني أن يتحالف مع "الإخوان". وأصبح موقعهم في المجتمع الأردني من الأهمية بمكان بحيث لا يمكن تجاهله أو إهماله. وفي العام 1995، استخدمت جماعة الإخوان أكثر من ألف شخص وسيطرت على جوانب بأكملها من المجتمع: حوالى ثلاثين مدرسة، وثمانية عشر مركزاً صحياً، ومستشفيين[1]. لقد وضع الإخوان المسلمون، فضلاً عن ذلك، أيديهم على بعض مخيمات اللاجئين الفلسطينيين، ومنها مخيم الزرقاء، وهو أحد أوسع مخيمات المملكة. وشاركوا في تأليف الكتب المدرسية، كما قيل، وفي إعداد مناهج التعليم. وفي كتاب إثر كتاب، بثّوا رسالة تتباين مع جهود المملكة في الانفتاح.

منذ وصوله إلى السلطة، في بداية العام 1999، باشر عبد الله التحالف بدوره مع هذه القوة السياسية الأصولية. ومثل أبيه، التزم سياسة تسوية جديدة مع

(1) "عبد الله في وجه التبجح الإسلامي"، صحيفة "لو فيغارو"، 23 أيلول 1999.

الإسلاميين واستقبل على سبيل المثال، في 18 آذار من العام 1999، قادة حماس، بحضور مرشد"الإخوان المسلمين" الأردنيين، عبد المجيد ذنيبات. إن حماس هي الفرع الفلسطيني لجماعة الإخوان المسلمين. وقد توجّب على هذه الجماعة، في هذه المناسبة، أن تردّد يمين الولاء للمملكة الهاشمية، الذي تمّ عام 1992. وكإشارة إلى نيته الحسنة، أطلق العاهل الجديد وقبل الأوان سراح اثني عشر مناضلاً من الحركة المعتقلين في الأردن. لكنه، وفي 31 آب من العام 1999، أجبر على إقفال محطة حماس الإذاعية بضغط من أميركا وإسرائيل...

في الأسابيع الأولى لحكمه، تلقّى الملك عدداً وافراً من الالتماسات الصادرة عن البرلمان، والإخوان المسلمين، ومختلف اللجان الإسلامية والتي تبتغي الحصول على إفراج عن السجناء السياسيين، أي المسلمين الأصوليين المعتقلين في السجون الأردنية. وكان هذا الضغط قوياً إلى حدٍّ كبير خصوصاً وأن أكثرية الرأي العام تدعمه. أُحرج عبد الله إزاء تلك الموجة العاتية، وإزاء ضغوطات الحركات الإسلامية المكثفة، لا سيما أن العفو الملكي، وحسب العرف، يجب أن يتم بعد أربعين يوماً من موت الملك. وقد أزفّ الموعد.

في 23 آذار من العام 1999، أعلنت نشرة أخبار القناة التلفزيونية الأولى، عند افتتاحها، العفو العام عن السجناء الأردنيين. لقد منح الملك، وبمعية واشنطن، عفواً يشمل السجناء الإسلاميين. وأقرّ البرلمان الأردني المرسوم الملكي في 18 آذار من العام 1999.[1] إن "عفو" الملك لا يستثني إلا الأفراد المسجونين بسبب التجسس، والاتجار بالمخدرات، والاتجار بالرقّ، والخيانة، والاغتصاب، والاغتيال أو الإرهاب. ولم ترد كلمة حول الإسلاميين.

أعلنت السلطة أخيراً إطلاق سراح ثلاثة آلاف معتقل، ومن بينهم الزرقاوي. واستقبل المسؤولون في مختلف أجهزة أمن المملكة بمرارة هذا العفو العام. وصرّح أحدهم تحت شرط السرية"، إن كثيراً من الرجال المفرج عنهم هم سوقيون

(1) "الملك يقرُّ مرسوم العفو العام"، التلفزيون الأردني، 25 آذار 1999.
(الأصح endorses، وليس endorces). المترجمة.

وجانحون أصحاب سوابق، وأنهم سيصبحون عبئاً على الأردنيين بعد تحريرهم"[1]. إنه إقرار قريب جداً من الحقيقة.

لم يتأخّر الإسلاميون الموجودون في السلطة عن العمل على تحرير نشطائهم. ودخل مرسوم العفو الملكي حيّز التنفيذ في 18 آذار من العام 1999، وبعد يومين، أطلـق سراح خمسة عشر عضواً من "حزب العمل الإسلامي". وابتهج عبد المجيد ذنيـبات لقرار الملك. وطالبت عدّة جماعات إسلامية في البرلمان الأردني، وقد شدّ عـزيمتها ذلك النجاح، بالإفراج الفوري عن أعضائها، مثل الجماعة البرلمانية التي تحمـل اسـم "لجـنة الحريات العامة وحقوق الإنسان" التي يتزعمها النائب محمد الأزايـدة. وطلب هذا الأخير الإفراج السريع عن "الأفغان" المعتقلين في السجون الأردنية. وتمّت الاستجابة لطلبه، وفي 29 آذار من العام 1999، خرج الزرقاوي من سجنه. وأفرج عن صاحبه خالد العاروري أيضاً.

لم يتوقّع الزرقاوي هذا الإفراج السابق لأوانه، وهو الذي كان قد حُكم عليه بالـسجن لخمـس عشرة سنة. وفي 29 آذار من العام 1999، بدا أنه يغادر على مضض زنـزانته في "الجفر". وتوقّع رفاقه من جهة أخرى رؤيته قريباً بينهم لشدة عزمه على مقاومة "غير المؤمنين". وبعد الإفراج عنه ببضعة أسابيع، غادر أيضاً أبو محمد المقدسي سجن "سواقة". وظلّ فيما بعد تحت مراقبة "دائرة المخابرات العامة الأردنية"، ثم اعتقل مجدداً عام 2002. وما يزال في السجن في الوقت الحاضر.

لم يمـضِ الـزرقاوي يوماً في سجن "سواقة" إلا وتوعّد فيه بإبادة الكافرين، وفيما بعد، أخبر المحيطين به، وبخاصة صهره صالح الحامي، أنه لم يكن مسروراً حقاً باستعادة حريته. كان الرجل مع مرور شهور السجن يؤمّن لنفسه موقعاً أكثر راحة مبنياً على شهرته، وانسجم مع نموذج شخص سيكوباتي[2] يتعوّد شيئاً فشيئاً على السجن إلى أن يصبح ذلك السجن شرطاً لتوازنه الجديد.

خارج عالم السجن، كان على الزرقاوي أن يعيد بناء نفسه، وباح لصهره أن ظروف سجنه كانت تقلقه أقل من ظروف فلان الأردني، التي كانت تبدو له مملّة.

---

(1) "سيتمّ إطلاق سراح السجناء الأردنيين بموجب العفو"، وكالة أنباء إكزهوا، 25 آذار 1999.

(2) سيكوباتي: مضطرب الشخصية والعقل. (المترجمة).

ومـــا إن خرج من السجن، حتى بدا الزرقاوي أمام "صالح الحامي" شخصاً استولى علـــيه الضجر والتعطل، يستعجل مغادرة بلده من جديد. وسيقول الحامي لاحقاً: "لقد شعرت بروح الجهاد في أعماقه"[1].

وبعـــد أن تمّ الإفـــراج عنه في الساعة السابعة مساء، لم يعد إلى منـــزله، في الزرقاء، إلا في الثامنة من صباح اليوم التالي، حيث ذهب لمعانقة أمه. لقد بقي بكل عزم ليلة إضافية في السجن ليشارك رفاقه ساعات أخرى في الزنـــزانة الكبيرة[2]. واعتـــرف الملـــك عبد الله لاحقاً - وعلى نحو متأخر جداً - أن الإفراج عنه "ربما كـــان خطـــأ"، وأضاف "ما من أحد كان بوسعه التكهن بما سيتأتّى منه". على العكـــس عن ذلك، كل شيء، كان يحمل على الاعتقاد بأن الزرقاوي هو آنذاك على وشك الاستغراق في العنف الديني.

لم يبقَ الزرقاوي إلا شهراً بالقرب من أهله[3]. وهو الوقت اللازم للإستعداد للرحيل. في الظاهر، حاول العثور على عمل، لكنه وبعد إخفاقين مهنيين سابقين، لم يعـــد يتوهّم قط. وداعبت الزرقاوي لحين من الزمن فكرة شراء شاحنة صغيرة لبـــيع الفاكهة والخضار، لكن ذلك المشروع لم ينجح. وتردّد مجدداً على مساجد الـــزرقاء، وحـــاول تجنـــيد شبان جدد، لكن فكره كان في مكان آخر. إنه يعدُّ لانتقامه، وانخرط في تحضيرات اعتداءات "الألفية"، والتي سيتمّ إحباطها في تشرين الأول عام 1999. والتي سنعود إليها لاحقاً.

نظّم الزرقاوي أمر رحيله إلى الخارج، بعدما اقتنع بأن الأردن أصبح، بالنسبة إليه ولمساعديه، بلداً بالغ الخطورة[4] إضافة إلى أن "دائرة المخابرات العامة الأردنية" ســـتعتقله عـــاجلاً أم آجلاً. وهكذا، قرّر مغادرة الأردن متّجهاً إلى باكستان مع تأشيرة مدهّا ستة أشهر.

قبل سفره، سحب أولاده من النظام التعليمي، وفرض عليهم التعلّم الكامل

---

(1) "تحت المجهر"، مقال سبق الاستشهاد به.
(2) "سر الزرقاوي"، سبق الاستشهاد به.
(3) صحيفة "ديلي جوردانيان" في مقابلة مع زوجة أبي مصعب الزرقاوي، مصدر سبق الاستشهاد به.
(4) "تحت المجهر"، مقال سبقت الاشارة إليه.

للقرآن. وأكّدت أمه أن الرحيل المستعجل لابنها سببه قبل كل شيء التحريات المتكـرّرة الـتي كانـت تقـوم بها تجاهه المخابرات الأردنية منذ خروجه من السجن[1].

وبذهابه إلى باكستان في صيف العام 1999، أسدل ستاراً على كل من حياته العائلـية، وبلـده، وماضـيه كزرقاوي. وابتعد أيضاً لحين من الوقت عن أبي محمد المقدسـي. وتجنّب العودة إلى الأردن، اللهمَّ إلا في سبيل بضعة مشاريع... دقيقة تـستهدف بلده الأصلي. لقد شرع أبو مصعب الزرقاوي في العمل السرّي ودلف إلى "الجهاد العالمي".

بعـد مرور عدّة سنين، وفي رسالة بُثّت في العراق، استحضر ذكرى رحيله قائلاً: "رغم أنني أتطلّع إلى مهد طفولتي وأشتاق شوقاً كبيراً إلى والدي، وإخوتي، ورفـاق الطفـولة، إلا أنني عالميٌّ، ولا أرض لي يمكن أن أسمّيها وطني. إن وطني موجـود حـيث تـصل إليّ كلمات الله". وأضاف أنه كان "قد تخلّى عن أرض ذكرياته وهاجر صوب أرض الأمل، حيث دين الله معمول به فوق الأرض، ثم إلى أرض أفغانستان، في سبيل طاعة الله"[2].

لقـد أكّد الزرقاوي لمحاميه وقتذاك، محمد دويك: "ليس أمامي فرص أخرى مناسـبة سـوى أفغانستان". أما يوسف ربابة، رفيقه الذي سجن معه في سجن سواقة، فقد شاركه هذا الرأي: "بسبب توجهاته الإيديولوجية، لم يعد لديه مكان في الأردن"[3]. إضافة إلى ذلك، قال الزرقاوي لصهره صالح الحامي، قبيل رحيله: "أتذكّـر حلمي الذي حلمت به؟ أتذكّر السيف الهابط من السماء، وقد حُفرت على نصله كلمة **الجهاد**؟".

هكذا غادر الزرقاوي الأردن للمرة الثانية متوجّهاً إلى "حياة آباد"، وذلك في

(1) "المواجهة الحاسمة مع العراق"، صحيفة لوس انجلوس، 12 آذار 2003.

(2) "رجل القاعدة أبو مصعب الزرقاوي يؤكّد أنه حالياً في العراق"، صحيفة الشرق الأوسط، 26 أيار 2004.

(3) رحلـة الـزرقاوي من العزلة إلى سجين إلى قائد للمعارضة المسلحة في العراق"، مقال سبقت الإشارة إليه.

صـيف العـام 1999[1]. وكان قد أقام فيها، كما ذكرنا خلال سفره الأول إلى باكستان، بين عامي 1989 و1993. لقد عاد فرحاً إلى هذه المدينة الحدودية، يحدوه حـنين إلى زمـن المجاهدين المتألق، وهي محطة يعرفها كثير من المقاتلين "العرب" لكونهم تلقّوا فيها العلاج الطبي.

تقع حياة آباد في محيط "بيشاور"، بالقرب من الحدود الأفغانية. وهناك تعيش إحـدى أخواته، وهي متزوجة من أستاذ في الدين. وتقول والدة الزرقاوي أنها في العام 1999 رافقت ابنها إلى حياة آباد، في رحلة استمرّت شهراً[2].

إن حـياة آباد، تفوق بيشاور في أنها منطقة انكفاء بالنسبة للقاعدة. وإن مـنظّمة"وافـا"، وهي إحدى المنظّمات الإسلامية الإنسانية المتورّطة في نشاط الجماعـة، هـي منظّمة متأصّلة في هذه المدينة. وهذه المنظّمة غير الحكومية (ONG) وذات الأصل الأردني وصفتها لجنة عقوبات الأمم المتحدة ضد القاعدة وطالبان بأنها منظّمة "إرهابية". إضافة إلى ذلك، وأثناء الدعوى الألمانية ضد شبكات أبي مـصعب الـزرقاوي الإرهابية، والتي تسمى "بالتوحيد"، أكّد أحد عسكريي أسامة بن لادن، شادي عبد الله، أن الزرقاوي كان قد تلقّى مساعدة كبيرة من جانـب مـنظمة "وافا" في باكستان: "إضافة إلى تقديم الأوراق المزورة وتنظيم رحـلات مخالفة للقانون، فإن أعضاء "التوحيد" ينهمكون في تقديم النقود إلى المقـاتلين. لأجـل ذلك، تلعب منظمة "وافا" الباكستانية دوراً هاماً بمكتبها في كابول"[3].

إن حياة آباد هي في الحقيقة أحد مراكز القاعدة الحساسة في باكستان، كما سـيؤكّد ذلـك جمال أحمد الفضل، وهو مسؤول سابق رفيع المستوى في القاعدة أصـبح مخبراً لدى الحكومة الأميركية. وعقب التحقيق حول الاعتداءات الموجّهة ضد السفارتين الأميركيتين في أفريقيا، أُقيمت دعوى جزائية في الولايات المتحدة في شباط من العام 2001، ضد أسامة بن لادن وضد المسؤولين الأساسيين عن الهجوم.

---

(1) "المواجهة الحاسمة مع العراق"، مقال سبقت الإشارة إليه.

(2) المصدر السابق.

(3) الدعوى القضائية الألمانية، قضية "التوحيد"، شهادة شادي عبد الله، 2002، وثائق المؤلف.

وخــلال تلك الدعوى، أدلى جمال أحمد الفضل بواحدة من الشهادات الأكثر دقّة حول القاعدة.

وهكــذا لمــا ســأل رئيس المحكمة "الفضل" عن الدعم الذي استفادت منه الجماعــة في باكستان، أجاب أن القاعدة كانت تمتلك بيوت ضيافة في حياة آباد، وذلك منذ العام 1991[1]. وفي 19 آب من العام 2004، تمّ اعتقال التنــزاني أحمد خلفان غيلاني، عضو القاعدة والمسؤول عن الاعتداءات ضد السفارتين الأميركيتين في كينيا وتنــزانيا، وهذا الاعتقال تمّ تحديداً في حياة آباد.

ما إن استقرّ الزرقاوي في حياة آباد، حتى حاول إعادة بناء حياته الشخصية، وإعــادة بناء شبكاته في أقل مدة زمنية. فجهاده لم يعد يطيق انتظاراً. لقد أصبح الإســلامي المــتحمّس مــتلهفاً إلى تعويض الوقت المهدور في السجون الأردنية. وهكذا، أكثر الزرقاوي من الاتصالات، ووطّد مجدداً علاقاته مع أصدقائه القدامى في زمــن المجاهدين. وعاد إلى قواعده في أماكن العبادة الأكثر تطرفاً في حياة آباد، وهي نفسها التي كان يتردّد عليها في بداية التسعينيات. لكن الوضع تغيّر منذ ذلك الحــين. لقد أصبحت بيشاور، عام 1999، القاعدة الخلفية لنظام طالبان. وأصبح المــلالي الأفغان يجنّدون أعداداً كبيرة في المساجد وفي أماكن العبادة. وسيلجأ قادة طالــبان إلــيها عــام 2001 بعد بدء القصف بالقنابل على أفغانستان من جانب التحالف.

(1) الــولايات المــتحدة في مواجهة أسامة بن لادن، شهادة جمال أحمد الفضل، نيويورك، 7 شباط 2001.

الفصل الثاني

الانضمام إلى "القاعدة"

في البداية، أقامت أم محمد مع أبنائها في منـــزل متواضع من ثلاث غرف في حـــي "القـــصرات"، شمال مدينة الزرقاء. لكنها سرعان ما لحقت بالزرقاوي إلى باكستان.

إن حياة آباد، هي أيضاً المدينة التي استقبلت أسامة بن لادن في بداية الحرب ضـــد الـــسوفيات. وبحـــسب عـــدّة شـــهادات، فقد استقرّ بن لادن في أواسط الثمانينيات، مع زوجاته وأبنائه، في منـــزل في الحي ذي الرقم 5 من المدينة. وأقام فيه اعتباراً من العام 1987، قاعدته الخلفية.

تـــصادفت عودة الزرقاوي إلى باكستان مع صعود نجم الشبكة القوي. لقد خـــرجت القاعـــدة معـــزَّزة بعد الاعتداءات ضد السفارتين الأميركيتين في كينيا وتنـــزانيا، في آب من العام 1998، والتي أوقعت 224 ضحية. وقتذاك وجّه أسامة بـــن لادن نشطاء جماعته من جديد ليجعلهم على الحدود الباكستانية – الأفغانية، بين بيشاور وجلال آباد.

لم يأتِ الزرقاوي إلى هناك مصادفة. إنه يعلم أن ابتكاره لعمليات واسعة يحتّم عليه الاقتراب من مركز القرار في القاعدة، وبخاصة من أسامة بن لادن نفسه. بيد أن الـــوقت أمامـــه قصير جداً، إذ إن تأشيرته لا تتيح له البقاء إلا ستة أشهر على الأراضي الباكستانية. إنه، وكل مساء، يذهب إلى مسجد بيشاور المركزي ليصلي ولـــيحاول، علـــى طريقته، أن يتغلّب على القدر. لكن عين السلطات الباكستانية كانت يقظة.

في العـــام 1999، شـــدّد المجـــتمع الدولي بإلحاح على المساعدة التي تقدّمها باكـــستان للإسلاميين. إن الدولة الباكستانية وجهازها المركزي الاستخباراتي، (ISI) (Inter-Services Intelligence)، متّهمان بمدّ يدّ العون للإرهابيين، أو على الأقل

لـــنظام طالـــبان المجاور. من جهة أخرى، فإن مناطق باكستان المجاورة لأفغانستان غارقة في ما اتُفق على تسميته بنوع من "الطلبنة" والتي تقلق بال المجتمع الدولي، لا ســيما أن باكستان قد أصبحت قوة نووية. إن إيديولوجية طالبان تُصدَّر بسهولة عــبر الحدود المسامية للجبال الأفغانية، في أفغانستان التي مزقتها حرب أهلية طويلة الأمد منذ اتفاقات السلام مع الاتحاد السوفياتي.

كان النظام البشتوني الأصولي الذي حكم وقتذاك أفغانستان مقرَّب من إسلام آباد. والحال تلك، عاشت كابول تحت نير حكم قادة أصوليين نجهل حتى ملامح وجـــوههم. فالصور والنساخة التصويرية(1) تحظّرهما طالبان. ويتمّ تركيز سلطات الدولـــة في الشريعة الإسلامية وحدها، وهكذا أصبحت أفغانستان أول خلافة في التاريخ المعاصر بمباركة من جارها.

تلقّـــى نظام طالبان المُعتِّم دعم قسم كبير من الزعماء الدينيين الباكستانيين، كمـــلالي(2) بيـــشاور الـــذين يشيدون بتأويل عصري لمذهب "الديوبندية"، تلك المدرســـة الفكـــرية الإسلامية الأصولية التي يعود أصلها إلى "ديوبند" في الهند. إن "الديوبـــندية" كانـــت في الـــبداية، فـــرعاً من الإسلام السنّي المؤيّد للنضال ضد الاســـتعمار البريطاني في الهند. وحضّ ملالي باكستان على الكراهية والعنف ضد الأنظمـــة الغربية المتّهمة بكفرها وبعملها على إعادة المخطّط الاستعماري إلى آسيا الوسطى. أما المال، الذي واصل تدفّقه منذ انتهاء الحرب ضد السوفيات، فقد سهّل اســـتخدام تلـــك المبادئ. وما بين عامي 1994 – 1999، اجتاز حوالى مائة ألف باكستاني معسكرات التدريب الأفغانية(3). وسرعان ما توطّد التحالف بين الحزب الإســـلامي الباكستاني المعارض "جمعية علماء الإسلام" (JUI) وبين نظام طالبان. وفي شـــهر تمـــوز من العام 1999، التحق ما بين 6000 – 8000 مقاتل باكستاني بصفوف طالبان. إن الرجم أصبح أسبوعياً في شوارع كابول، وارتدت كل النساء

(1) نساخة تصويرية: مجموع الوسائل التقنية المؤدية إلى إخراج نسخ عن نص مكتوب أو مطبوع. (المترجمة).

(2) ملالي: جمع ملاّ، وهو رجل الدين في باكستان وأفغانستان وإيران. (المترجمة).

(3) "حركة طالبان: تُصدّر التطرف"، "شؤون خارجية"، تشرين الثاني 1999.

الحجاب. وهكذا نجد أن نظام طالبان تدعمه باكستان والسعودية، حليفتا واشنطن التقليديتان.

لكن باكستان ذهبت بعيداً في دعمها لنظام طالبان. وقاست حكومة "بنازير بوتــو" ما بين عامي 1993 - 1999، أكثر فأكثر من الخطر السياسي الذي يُثقل علــى حكومــتها بسبب تلك الجارة المزعجة. وقبيل أن يُطيح بها الجنرال "برويز مشرف" في انقلاب تشرين الأول عام 1999، باشرت "بنازير بوتو" وقتذاك حملة تطهير ضد المقاتلين العرب الذين ما زالوا فوق الأرض الباكستانية. لقد كانت تلك الحملة استجابة لحثّ وضغط الدول الغربية، والدول العربية أيضاً، التي كانت تأمل وقتذاك باستعادة "جنودها الضائعين". ونظّمت باكستان خلافاً لسياستها التقليدية مطاردات عسكرية عديدة في بيشاور، وخاصة في حياة آباد، حيث كان الزرقاوي يقيم منذ أمد قريب.

في المكان السيّئ وفي الزمن السيّئ، اعتقلت الشرطة الزرقاوي ثانية، لكن هذه المرة كانت الشرطة الباكستانية هي من قامت بالاعتقال. وتمّ بين شهري أيار وتموز مـــن العام 1999، إيداع عشرات العرب المتطرفين مثله في سجن بيشاور المركزي، بانــتظار ترحيلهم إلى بلادهم الأصلية، لا سيما مصر، وتونس، والجزائر(1). ومع ذلــك فــإن عــدداً مــن هــؤلاء المتطرفين أفلح في الهروب بمساعدة من جهاز الاستخبارات الباكستاني (ISI) الذي واصل، سراً، دعمه لنظام طالبان.

عــندما استقرّ الزرقاوي في باكستان في ربيع العام 1999، كان وضع الرعايا الأردنيين معقداً. فالحقيقة، أنه ومنذ عدّة شهور، زادت الحكومة الأردنية، بمساعدة من FBI الأميركية، ضغطها على حكومة "بنازير بوتو" لتعتقل المواطن الأميركي - الفلسطيني خليل الديك(2). وهو المعروف بقربه من أبي زبيدة، عسكري أسامة بن لادن، وهو المسؤول العملياتي عن الخلية الإرهابية التي حضّرت للاعتداءات المسماة بـــ "الألفية" في الأردن. وكان ذلك المخطط يستهدف فندق "راديسون SAS"، في قلب عمان. إن انتباه قوات الأمن الباكستانية مركّز إذن على الأردنيين.

---

(1) "هروب ثلاثين عربياً إلى أفغانستان تجنباً للاعتقال في باكستان"، "الأخبار"، 17 تموز 2000.

(2) "باكستان تسلّم مساعد بن لادن إلى الأردن"، "الأخيار"، 18كانون الأول 1999.

هكذا، تمّت مراقبة الزرقاوي ومن ثم اعتقاله. أمضى الزرقاوي حوالى أسبوع في سجن في بيشاور. وخلال ذلك الوقت، كانت أمه في عمان واثقة، على حدّ قولها، من أن ابنها يبيع العسل في أسواق المدينة[1]. وفي نهاية الأمر أطلق سراحه ومنحته السلطات الباكستانية إذناً بالخروج من البلاد. بيد أن أبا مصعب الزرقاوي الذي صنّفته قوات أمن بلاده بوصفه "إرهابياً". غادر وقتذاك بيشاور ليذهب إلى كراتشي.

حال وصول الزرقاوي إلى كراتشي، كان عليه الاختيار: إما العودة إلى الأردن وإما الالتحاق مجدداً بطالبان في أفغانستان؟ وسرعان ما اختار. إن الأردن بالنسبة له لم يعد سوى هدفاً يصيبه. ويميل قلبه إلى إمارة أفغانستان الإسلامية. ويتحقّق أخيراً كل ما حلم به في تلك السنوات الأخيرة: دولة يحكم فيها نظام الملالي، حيث النساء محجبات بالكامل، وحيث باختصار، تطبّق فيها الشريعة ولا شيء آخر سوى الشريعة.

إذاً عاد الزرقاوي في نهاية صيف العام 1999، إلى أفغانستان. واستقرّ في البداية في منزل قريب من "وزير البارخان سكار"[2]. وظلّت أم محمد مؤقتاً في باكستان مع أبنائها، لكنها سرعان ما لحقت بزوجها في العاصمة الأفغانية. وقبيل سفره الثاني إلى أفغانستان، التقى الزرقاوي بإسراء، وهي فتاة فلسطينية، ابنة "ياسين عبد الله محمد جراد"، وهو مدرّب في معسكر "هيرات" والذي قتل لاحقاً في العراق[3]. وقع الزرقاوي في حبّ الفتاة التي كانت وقتذاك في الثالثة عشر من عمرها، واصطحبها معه إلى كابول، ثم تزوجها، حينما كان يدير معسكر "هيرات" للتدريب، في شرق أفغانستان. وبحسب وثيقة صادرة عن أجهزة الأمن الألمانية، ربما يكون الزرقاوي قد تزوّج أيضاً للمرة الثالثة من فتاة عراقية في السادسة عشرة من عمرها، التقى بها في العراق عام 2003[4].

---

(1) "المواجهة الحاسمة مع العراق"، مصدر سبقت الإشارة إليه.

(2) الدعوى القضائية الألمانية، قضية "التوحيد"، شهادة شادي عبد الله، 2002، وثائق المؤلف.

(3) مقابلة مع محمد الحراحشة، ابن أخت الزرقاوي، 15 أيلول 2004.

(4) تقرير شامل من (الشرطة الجنائية الألمانية BKA) حول أبي مصعب الزرقاوي، 2004، وثائق المؤلف.

وبحسب مذكرة معلومات من "مجلس الأمن القومي الأميركي"مؤرّخة بتاريخ 29 نيسان من العام 1999، قد تكون القاعدة قد استخدمت منذ ذلك الوقت مدينة "هيرات" لتخزين المواد النووية(1). إن هذه الجزئية تبيّن إلى أي حدّ كانت السيطرة على "هيرات"، على الحدود الإيرانية، أمراً حاسماً في ذلك الوقت بالنسبة للقاعدة.

في خريف العام 1999، تواعد شبان متطرفون لم يسبق أن قاتلوا ضد الاتحاد السوفياتي في كابول. وانتشرت المعلومة عن طريق دائرة مراكز عبادة المتطرفين في أوروبا وعن طريق الإنترنت: إن القاعدة تُجنِّد. في الواقع، إن التحضير لحرب مقدسة جديدة جارٍ، وهذه المرة في أفغانستان، ضد المصالح الغربية في العالم. والبنى التحتية لاستقبال متطوعين جدد والتي كان يديرها الأردني أبو زبيدة في باكستان انتقلت إلى أفغانستان في شهر حزيران من العام 1998. في نهاية العام 1999، التقى أبو زبيدة، الذي أصبح مسؤول العمليات العسكرية للقاعدة في كابول، بجماعة الأردنيين بزعامة الزرقاوي.

فرض الزرقاوي نفسه زعيماً لمجموعة الأردنيين الذين انضمّوا إليه في أفغانستان. وقد آزرته جاذبيته التي ظهرت في "سواقه" ومعرفته لعالم أوساط الإسلاميين الراديكاليين الأردنيين الصغير. فهنالك أصحابه الأوائل في زمن "بيعة الإمام"، مثل خالد العاروري وعبد الهادي دغلس، وكلاهما خرجا من السجن عام 1999، لكن أيضاً هنالك كل أصناف المقاتلين القادمين. باختصار، في بضعة أسابيع، أعاد بمهارة مدهشة بناء مجموعة عملياتية، وانضمّ مع أنصاره إلى تنظيم القاعدة.

استقرّ الزرقاوي وقتذاك في "بيت الضيافة"، المهيأ لاستقبال أنصاره، في قرية "لوغو"، على بعد بضعة كيلومترات إلى الغرب من كابول، وهي منطقة تقع تقليدياً تحت سيطرة الزعيم المتطرف "قلب الدين حكمتيار". وتشارك في هذا المسكن مع حوالى أربعين أردنياً هم أعضاء مجموعته(2).

(1) "تقرير لجنة الحادي عشر من أيلول"، ملاحظة 181 من الفصل الرابع. مذكرة معلومات NSC.
(2) الدعوى القضائية الألمانية، قضية "التوحيد"، شهادة شادي عبد الله، 2002، وثائق المؤلف.

بطبـــيعة الحـــال، إن استناد الزرقاوي وقتذاك إلى جماعة القاعدة، فذلك أولاً للاستفادة من بناها التحتية في التجهيز والدعم اللوجستي. ولكي يستطيع أن يطلق عملـــيات واســـعة النطاق. إن ذاك الذي فتح باب بنيان أسامة بن لادن أمام هذه المجموعة من الأردنيين هو بالطبع أردني، إنه أبو زبيدة، قائد عمليات القاعدة.

في نهاية العام 1999 وفي بداية العام 2000، أكّد أبو مصعب الزرقاوي وجوده كعـــضو هام في تنظيم أقامه أسامة بن لادن في أفغانستان. وفي خلال العام 2001، أدّى فضلاً عن ذلك يمين الولاء لأسامة بن لادن[1]. وذلك لتجنّب كل نـــزاع بين الفصائل المنشقة (وبخاصة مع الجماعات الجزائرية GIA)، لقد طلبت طالبان، بدءاً مـــن شـــهر أيار 2001، أن يؤدّي جميع مسؤولو معسكرات التدريب الراغبون في مواصلة نشاطاهم يمين الولاء لنظامها أيضاً.

مـــا إن أعلـــن الـــزرقاوي الولاء للقاعدة، حتى توجّب عليه الالتزام بالخط الإيديولوجي الذي رسّخه أسامة بن لادن. إن أداء يمين الولاء يتيح لأسامة بن لادن كـــبح الـــنفوس الجامحـــة كمـــا يتيح له خاصة أن يجمِّع مجدداً مختلف الجماعات "الإســـلامية – القومية" تحت راية واحدة. وهذا نص اليمين، كما كتبه أسامة بن لادن بنفسه:

"أعاهـــد نفسي أمام الله، على السمع والطاعة لرؤسائي، لأقوم بهذا الأمر في المنشط والمكره والأثرة علي، لتكون كلمة الله هي العليا والغلبة لدينه"[2].

مـــنذ إنـــشاء تنظيم القاعدة عام 1988، وهو يعمل حسب نظام معقد من العلاقات بين الأفراد. فكل مجموعة (سواء أكانت أردنية، مصرية، جزائرية، تونسية أم كـــردية) موجودة في أفغانستان تدافع بالتأكيد عن فكرة جهاد فريدة. من جهة أخرى غالباً ما يرتبط هذا التصور بمشاريع عمل تهدف إلى تقويض النظام السياسي

---

(1) طلـــب الاتهام النهائي في عدم وجود وجه جزئي لإقامة دعوى، وفي الإحالة أمام محكمة الجنح وفي الإبقـــاء على الاعتقال المؤقت، محكمة باريس للدعاوى الكبرى، قضية "بيغال" وآخرين، 2004، وثائق المؤلف.

(2) "الحكـــومة تقدّم عرضاً بخصوص الأدلة القضائية تدعم فيه قبول إفادات شركاء المتآمرين كأدلة قـــضائية"، الولايات المتحدة في مواجهة إنعام أرناؤوط، 02 CR892, Northern District of Illinois, Eastern Division، 29 كانون الأول 2003.

في البلد الأصلي. وفرض حلف يمين الولاء لأسامة بن لادن على تلك المجموعات المختلفة يهدف إلى توحيدها تحت راية واحدة، ويهدف أيضاً إلى تجنّب نزاعات المصالح. ومثله مثل القادة الآخرين للمقاتلين الأجانب، كأبي ضحى بالنسبة للجزائريين وأبي إياد بالنسبة للتونسيين، فعلى الزرقاوي أن ينضوي تحت راية القاعدة. وليس أمامه خيار آخر.

كانت المنظمة الإرهابية تتألّف وقتذاك من ثلاثة مستويات. فعلى رأس البناء، نجد بالطبع أسامة بن لادن وذراعه الأيمن، المصري أيمن الظواهري. وحولهما في المستوى الثاني، تتحرّك الكوادر العملياتية التي تؤدّي كل منها مهمة نوعية (الأمن، الاستخبارات، الإيديولوجية، التخطيط للعمليات). ويتألف المستوى الثالث من البناء الهرمي من عدّة مئات من الأعضاء العملياتيين. وهؤلاء غالباً قد اجتازوا معسكرات التدريب الأفغانية ونشّطوا خلايا مستقلة ذاتياً في البلاد العربية أو الغربية. إن الجماعات التي يشكّلونها هي مع ذلك متراصة فكرياً حول مواقف القاعدة.

بحسب وثيقة سرية لأجهزة مكافحة الإرهاب الإسبانية، "UCIE" (Unidad central de informacion exterior)، انضمّ الزرقاوي، بدءاً من نهاية صيف العام 1999، إلى الحلقة الثانية، أي حلقة كوادر أسامة بن لادن العملياتيين. لم يعد الزرقاوي في ذلك الوقت رجلاً مجهولاً، ولا إنساناً هامشياً. وكُلِّف بالتخطيط لعمليات الجماعة[1]، ولهذا السبب، تزعّم عشرات المقاتلين.

صرّح الحارس الشخصي لأسامة بن لادن، شادي عبد الله، لأجهزة الاستخبارات الألمانية أن صعود الزرقاوي في وسط البناء الهرمي للقاعدة يرجع كثيراً إلى أبي زبيدة. وبحسب رأيه فإن "الزرقاوي مقرَّب وموضع ثقة لدى أبي زبيدة، الذي هو نفسه قريب جداً من أسامة بن لادن". وكلاهما أردنيان وتدفعهما كراهية عميقة نحو النظام الهاشمي. وإلى جانب أبي زبيدة، سيشارك الزرقاوي عام 1999 في التحضير لاعتداءات "الألفية" الشهيرة، التي تستهدف المصالح الغربية في

(1) الدعوى الإسبانية رقم 35/2001 المتعلّقة بنشاطات القاعدة في إسبانيا، مذكرة UCIE حول "العرب الأفغان"، أرشيف المؤلف.

الأردن. وفي تلـــك العملـــية الإرهابية الأولى على المستوى الدولي، سيكسب ثقة زعماء القاعدة، وعلى نحو خاص ثقة أسامة بن لادن.

أشارت شهادات كثيرة متطابقة إلى وجود الزرقاوي في كابول في بداية العام 2000. لكن شهادة سيد عريف تأخذ مدلولاً خاصاً جداً. إن هذا الجزائري البالغ مـــن العمر 37 سنة، والمعتقل في سوريا منذ تموز من العام 2003 لانتمائه المفترض للقاعدة، شارك في الواقع في العديد من اجتماعات زعماء الجماعة التي انعقدت في كابول في بداية العام 2000. وفي إطار إنابة قضائية مع سوريا حول الملف المسمى بـــــ "السلسلة الشيشانية"، استطاع قضاة مكافحة الإرهاب الفرنسيون الاطلاع علـــى اعتـــرافات ســـيد عريف. ويتذكّر هذا الأخير على الأخص غداء مع أيمن الظواهـــري وأبي ضحى الذي جرى في كابول عام 2000. وكان أبو ضحى واسمه الحقيقي "رشيد بوخلفا"، قد ولد في قسطنطينة، في الجزائر، في 24 تشرين الثاني من العـــام 1969. وهو رفيق قديم للزعيم السلفي أبي قتادة، الذي اتخذ قاعدته في لندن وهـــو اليوم في السجن. وكان الاثنان مسؤولين رئيسيين عن "بيت الجزائريين" في جـــلال آباد. وكان هذا البناء مخصّصاً لتسهيل مجيء واستقبال المقاتلين الجزائريين القـــادمين للالتحاق بصفوف القاعدة. ويقول سيد عريف أنه خلال ذلك الغداء، تـــناقش مع أعضاء جماعة الزرقاوي حينما كان هذا الأخير بصحبة أبي ضحى. إن قـــرب الأماكن جعل الأمر مستساغاً، حيث إن منـــزل الزرقاوي في كابول كان يقع تماماً إلى جانب منـــزل الظواهري[1].

بـــيد أن ظلّ المقدسي لا يزال يحوم فوق مسار الزرقاوي. ورغم أن الرجلين مـــرّا بفترة توتر وشقاق حينما كانا مسجونين معاً في سواقه، إلا أن قدرهما بدا أنه مرتبط ارتباطاً نهائياً. حدّدت عوامل عديدة تحرّك الزرقاوي وسط جماعة القاعدة: قـــوة شـــكيمته[2]، جاذبيته كقائد، إضافة إلى معرفته الكاملة بالشبكات الأردنية وعلاقاتـــه مع أبي محمد المقدسي. ففي أعقاب القصف في أواخر عام 2001 على أفغانـــستان، تمّ جمـــع الكثير من الوثائق من وسط أنقاض "بيوت الضيافة" الخاصة

(1) الدعوى القضائية الألمانية، قضية "التوحيد"، شهادة شادي عبد الله، 2002، وثائق المؤلف.

(2) قوي الشكيمة: شديد النفس، أبي، حازم. (المترجمة).

بالقاعــدة. فمنذ مباشرتها لعملها عام 1988، تحتفظ هذه المنظمة بسجلات دقيقة كاملــة حول تطور نشاطاتها. ويظهر اسم الزرقاوي في ذلك التوثيق. ويُذكر على الدوام على أنه"صديق المقدسي"، ويُوجَّه إليه المتطوعون الشباب الذين يصلون إلى أفغانستان(1).

بعد مرور بضعة أشهر على وصوله إلى أفغانستان، شغل أبو مصعب الزرقاوي مهمــة قائد عسكري في القاعدة. وهكذا فإنه مقرب من شبكات GIA الجزائرية (الجماعــات الإسلامية المسلحة) والشبكات التونسية (الجبهة الإسلامية التونسية). ومــنذ عام 2000، تولّى سيف الله بن حاسين، المعروف بأبي إياد، توجيه المتطرفين ذوي الجنسية التونسية والأعضاء في القاعدة في أفغانستان. والذي اعتقلته الشرطة الألمانية عام 1993، وبحوزته، أثناء استجوابه جواز سفر هولندي مزيف. وكان قد ذكــر وقــتذاك للــسلطات الألمانية بأنه كان في عداد منظمة سعودية خيرية هي "الحــرمين"، والــتي صنّفت الحكومة الأميركية والأمم المتحدة غالبية مكاتبها في الخــارج علــى أنها إرهابية. إن أبا إياد، الذي سيصبح لاحقاً أحد قادة معسكر تدريب "دارونتا"، المشهور بصنع واختبار أسلحة كيميائية، بدأ بتقرب ذي دلالة، بــدءاً من العام 1999، من أبي قتادة، الذي يعتبر الزعيم الديني للقاعدة في أوروبا. وهكذا، يظهر اسم أبي مصعب الزرقاوي في إحدى الرسائل التي تمّ الاستيلاء عليها والتي يوجّهها أبو إياد إلى أبي قتادة عام 2002. وفي رسائله يطلع أبو إياد باستمرار أبــا قــتادة على تطوّر أنشطة القاعدة في أفغانستان. وإن كان ينتقد على نحو صريح قرارات المدعو أبو الوليد بشأن إدارة المعسكرات، فإنه يمدح بالمقابل النتائج التي قدّمها الزرقاوي: "إنه شخص مستقيم، كريم، ستسعده التضحية بروحه وماله لأجلكم. وهو عازم مع مجموعته على حمايتكم من كل هجوم إن أنتم قررتم المجيء"(2).

(1) سجلات داخلية للقاعدة تمّ الاستيلاء عليها في أفغانستان عام 2001 في منــزل ضيافة استخدمه أسامة بن لادن، الصفحة التاسعة، وثائق المؤلف.

(2) طلــب الاتهام النهائي في عدم وجود وجه جزئي لإقامة دعوى، وفي الإحالة أمام محكمة الجنح وفي الإبقــاء على الاعتقال المؤقت، محكمة باريس للدعاوى الكبرى، قضية "بيغال" وآخرين، 2004، وثائق المؤلف.

بعد أن كرّس الزرقاوي عدّة أشهر في إقناع بن لادن بإمكانية استخدامه، طـــوّر شبكته الخاصة بفضل دعم مالي ومادي من القاعدة ثم قرّر أخيراً الابتعاد عن كابول. واختار الاستقرار في هيرات، ثالث مدن البلاد، والتي تشكّل تقاطعاً تجاريـــاً هامـــاً إلى تخوم إيران وتركمنستان، وتواجه تماماً كابول على الخريطة الأفغانية.

باســـتقرار الزرقاوي في هيرات، فإنه ابتعد جغرافياً عن قيادة أركان القاعدة. أثـــار هذا الأمر شكوكاً في أعلى مستويات التنظيم، لا سيما أن بعض المسؤولين الكبار في ذلك التنظيم اشتبهوا منذ عدّة أشهر "بتحوله" عن طريق الأجهزة الأردنية خلال سنوات اعتقاله الخمس[1].

إن الزرقاوي جندي غير نظامي، كما نعرف، واستقلاله الذاتي يقلق المؤسسة الهرمية.

(1) "الزرقاوي يسلك طريقاً عشائرياً في الإرهاب"، مقال سبق الاستشهاد به.

الفصل الثالث

في أصول شبكة الزرقاوي

في بدايـــة العـــام 2000، اســـتقرّ الـــزرقاوي في "هيرات" مع زوجته الثانية الفلـــسطينية الأصل. وبعيداً عن مركز قيادة القاعدة في "قندهار" توسّع شيئاً فشيئاً معـــسكر التدريب في هيرات، واستقبل باستمرار أعداداً أكبر من المتطوعين العرب من ثمان عشرة جنسية مختلفة، ومنهم الأردنيون والفلسطينيون. ويقع المعسكر على الحـــدود الإيرانية، بالقرب من مركز جمركي ومن مقر حاكم هيرات، عبد المنّان خـــواجازاي، الذي وطّد الزرقاوي معه علاقات طيبة[1]. كان هذا المعسكر مخفيّاً وقتذاك تحت مظهر مدرسة دينية[2] وضمّ حوالى عشرة معسكرات. وعلى مدخل المعسكر راية تحمل شعار "التوحيد والجهاد" والذي سيصبح اسم منظمة الزرقاوي في العـــراق. وأحـــاط الـــزرقاوي نفـــسه بالمقربين لأجل إدارة معسكر هيرات. وعـــسكريوه المخلـــصون الذين شكّلوا قلب شبكته هم عبد الهادي دغلس، خالد العاروري، عصام يوسف التاموني (المعروف بأبي حارث، والذي توفي في أفغانستان عام 2001)، أبو حمزة وعزمي عبد الفتاح يوسف الجيوسي، المعروف بأبي عطا[3].

قام الزرقاوي بذهاب وإياب منتظمين بين هيرات وكابول لصالح القاعدة. إن هـــيرات موقـــع استراتيجي بالنسبة للجماعة: فالمدينة تفتح الطريق نحو كردستان العراقية، عبر إيران. وبفضل تقارب دبلوماسي بين ملالي إيران وطالبان أفغانستان،

---

(1) تقريـــر شامل من BKA (الشرطة الجنائية الألمانية) حول أبي مصعب الزرقاوي، 2004، وثائق الكاتب.

(2) "مـــبعوث أفغـــاني يقول إن أسامة بن لادن هو العقل المدبّر للهجمات الإرهابية على الولايات المتحدة، وكالة الأنباء الروسية إنترفاكس، 13 أيلول 2001.

(3) تقريـــر شامل من BKA (الشرطة الجنائية الألمانية) حول أبي مصعب الزرقاوي، 2004، وثائق الكاتب.

فُتحت الحدود مجدداً بين البلدين، المسماة بـ "إسلام كيلا" في تشرين الثاني من العام 1999[1]. وتمّ توقيع اتفاق حرية الانتقال في هيرات، وانتهت فترة التوترات السياسية الحادّة بين النظامين والتي كانت قد انطلقت عقب مقتل تسعة دبلوماسيين إيرانيين قبل عام في "مزار شريف"، في أفغانستان.

لكن، ورغم أن الحدود قد فُتحت أمام التبادل التجاري، وأفواج النازحين الأفغان، إلا أن الانفراج ليس إلا ظاهرياً بين كابول وطهران. فالنظامان يغذّيان أحقاداً متبادلة، وكانت أجهزة المخابرات الإيرانية المرعبة "سافاك" تراقب بيقظة المجاهدين المتمركزين على الجانب الآخر من الحدود، في هيرات. وكانت قنصلية إيران في هيرات تسجّل تحركات الجماعات المرتبطة بالقاعدة، وخاصة تحركات الزرقاوي. وكانت الحكومة الإيرانية تموّل أيضاً ميليشيا شيعية معادية لطالبان في شمال شرق أفغانستان[2]. إذاً، كان نشطاء الزرقاوي العاملون باسم القاعدة لا يُخفَوْن عن السلطات الإيرانية.

قدّمت هيرات تلك المدينة المفتوحة على إيران المجاورة، وملتقى التبادل التجاري، والتي هي رهان استراتيجي للزرقاوي فرصة جيدة لتوسيع نشاطاته. فالتحكم بتلك المدينة الأفغانية الواقعة في قلب آسيا الوسطى أتاح له السيطرة على عدّة طرق للجهاد، ومنها الطريق الذي يوصل إلى القوقاز عبر تركمنستان. في السابق قبل العام 1992، كانت السلطات الروسية قد أكّدت أن بعض المتمردين الشيشان قد تدربوا في معسكر "زياراج"، الواقع في إقليم هيرات[3]. ومدينة هيرات التي هي ممر المجاهدين السُّنة، هي أيضاً مطبوعة بتقليد شيعي عريق.

بعد بضعة أشهر من وصول الزرقاوي، نجحت إدارته لمعسكر التدريب الواقع خارج المدينة، وسرعان ما وصلت تلك الأخبار إلى أسامة بن لادن. لقد كان ذلك

---

(1) "باكستان تهلّل لإعادة فتح الحدود الأفغانية الإيرانية"، وكالة الأنباء الفرنسية AFP، 22 تشرين الثاني، 1999.

(2) "فتح الحدود الإيرانية يخفّف من التأثير الخانق لعقوبات الأمم المتحدة المطبقة على الأفغانيين، صحيفة "واشنطن بوست"، 22 كانون الأول 1999.

(3) "جهاز الاستخبارات الروسي FSB يقول إن مرتزقة أجانب قد حاربوا إلى جانب متمردي الشيشان"، وكالة الأنباء الروسية إنترفاكس، 8 كانون الأول 1996.

المعسكر يعلّم المجنّدين في ذلك المعسكر استخدام الأسلحة، والمتفجرات، والأسلحة الكيماوية.

ذهب الزرقاوي إلى قندهار، بعد أن استدعته قيادته، وذلك خلال العام 2000. إنه بحاجة إلى المال لمواصلة نشاطاته، وبصورة خاصة من أجل عمل يهمّه كثيراً: شنّ هجوم بأي ثمن على الأراضي الإسرائيلية. إن محاولته الأولى، عام 1993، قد انتهت إلى فشل ذريع، كما نذكر، وإلى اعتقاله. لكنه في هذه المرة، ينوي إتقان العملية.

حصل الزرقاوي على 35000 دولار من القاعدة لتنظيم الهجوم، ثم أرسل على جناح السرعة، بعد سفره إلى قندهار بقليل، اثنين من أكثر أتباعه قرباً إليه، للقيام بتلك المهمة الفدائية في إسرائيل.

تمّ اعتقال الأردنيين فراس سليمان علي هجير وأحمد محمد مصطفى في "فان"، في تركيا، في ظروف لا تُصدق في شهر شباط 2002. لقد رفض الرجلان ومرافقهما الفلسطيني أحمد محمود، الامتثال أثناء تفتيش روتيني. وهربوا وطاردهم الشرطة التركية. ولدى استجوابهم في مركز قيادة أمن "فان"، اعترف الرجال الثلاثة بمخططهم. إن المخطّط يقوم على شنّ هجوم في إسرائيل. وكان الثلاثة قد صمّموا اعتداءهم عام 1999 في قندهار، قبل الاتجاه إلى إسرائيل، مروراً بإيران ثم تركيا. وكشفوا للشرطة خلال الاستجواب أنهم كانوا محكومين من جانب القضاء الأردني الذي كان قد أدانهم في إطار قضية "بيعة الإمام" عام 1994[1]. إذن أخفق الانتحاريان اللذان أرسلهما الزرقاوي، واللذان هما فضلاً عن ذلك جيران طفولته في حي معصوم في الزرقاء. إن العملية الإرهابية التي أعدّها الزرقاوي انتهت مرة أخرى بفشل ذريع[2].

لكن الزرقاوي استمرّ بجد في عمله التنظيمي. وجنّد عدداً كبيراً من الأردنيين، ومن بينهم رفاق له سابقون في بيعة الإمام. في العام 2000، شكّل الأردنيون الذين

---

(1) الدعوى القضائية الألمانية، قضية "التوحيد"، تحقيق BKA، 2002، وثائق المؤلف.

(2) "اعتقال مشتبه بهم في "فان"، هم أعضاء في "اتحاد الأئمة" في سياق المواجهة مع القاعدة"، وكالة الأنباء التركية أناتوليا، 19 شباط 2002.

درّبهم الزرقاوي بمجموعة نوعية على المسرح الإقليمي. إنهم، وقد جعلوا من هيرات قاعدتهم، يتحرّكون، مدربين تدريباً جيداً وبوسعهم الذهاب والإياب إلى كردستان العراقية عن طريق إيران. وخلافاً للجزائريين، الذين مزّقتهم صراعات على السلطة في جلال آباد، أو التونسيين في معسكر "داورنتا"، فإن الأردنيين هم في آن واحد "رائدون" و"مبشّرون" لتنظيم القاعدة في الجبهة الجديدة في كردستان العراق. من أجل كل تلك الأسباب، نوى الزرقاوي بسرعة كبيرة الاستقلال الإيديولوجي - وأيضاً الاستقلال العملياتي.

في السابق، حرص الزرقاوي على أن يجعل بينه وبين المقدسي مسافة. أما الآن، فإنه يميل إلى التحرّر من الخط السياسي الذي فرضه أسامة بن لادن نفسه، وخاصة ذلك الخط الذي فرضه أيمن الظواهري. إن تلك الرغبة في الاستقلال عزّزها البعد الجغرافي لمعسكر هيرات والانتقادات المتكررة التي وجّهها كثير من المجاهدين نحو أسامة بن لادن. فقد عُرف عن "السعودي" بأنه يريد أن يبني أسطورته الخاصة بحضرة القضية المشتركة من أجل مجيء الخلافة، إلى حدّ أن اثنين من "الفصائل الأجنبية" في أفغانستان ذاع صيت معارضتهما له، ومن بينهما، فصيل الزرقاوي[1]. لكن، وخلال العام 2000، كان الدعم المالي والسياسي من أسامة بن لادن لا يزال ضرورياً للزرقاوي، وعليه الصبر أشهراً أخرى قبل أن يستطيع الاستقلال برأيه، وهذا لم يحدث إلا حينما هرب من أفغانستان عبر إيران، ثم عبر سوريا، ووقتذاك أخذ على عاتقه التمويل بواسطة أتباع شبكاته في أوروبا وفي الشرق الأوسط.

في أوروبا، اعتمد الزرقاوي على خليتي دعم هامتين، تنشطان في ألمانيا وفي إيطاليا. أما في الشرق الأوسط، فاستفاد من الدعم في سوريا والأردن، ومن بين ذلك الدعم ما قدّمه بلال منصور حياري، وهو مواطن أردني ستتهمه محكمة أمن المملكة الهاشمية بالمشاركة في تمويل جماعة الزرقاوي في العراق[2].

---

(1) صفحة "المراجعة الاستخباراتية في موقع جينز (Jane's)"حول التوحيد، 21 أيلول 2004.

(2) "محكمة أمن الدولة الأردنية تبدأ محاكمة مشتبه "بعمالته للزرقاوي"، BBC هيئة الإذاعة البريطانية، 16 أيلول 2004.

في ذلك الوقت، كان معسكر هيرات معسكر تدريب مثل باقي المعسكرات تقريباً. لكن الزرقاوي بدأ يحيط نفسه فيه بالمخلصين. بعضهم أردنيون جاؤوا للإلتحاق به قادمين من معسكرات اللاجئين الفلسطينيين في لبنان، وينتمون إلى منظمة عصبة الأنصار[1]. إن هذه الجماعة التي أُنشئت في وسط مخيم عين الحلوة للاجئين الفلسطينيين، في لبنان، قادها في بداية التسعينيات "أحمد عبد الكريم السعدي"(المعروف بأبي محجن). إن العديد من الاعتداءات المرتكبة ضد المصالح الغربية في لبنان خلال عقد التسعينيات تحمل طابع عصبة الأنصار. إن الإيديولوجية السلفية للجماعة تشابه المبادئ المفروضة على أعضاء القاعدة؛ وهي أيضاً إيديولوجية الزرقاوي.

علاوة على هؤلاء الأردنيين، فإن غالبية المقربين من الزرقاوي هم عراقيون أو فلسطينيون. وكثير من هؤلاء الرجال هم أصغر سنّاً من أن يكونوا قد عرفوا سنوات الجهاد ضد السوفيات.

وعلى غرار أسامة بن لادن، فرض الزرقاوي يمين الولاء على المتطوعين الجدد. إن قوة شخصيته ترسّخ وحدة جماعة متجانسة وأهل للثقة. وهكذا، وبعيد إنشاء معسكر هيرات، تورّط الكثير من أنصار الزرقاوي في اعتداءات أو في مشاريع اعتداء في الأردن، والعراق، وإسرائيل.

خلال عقد التسعينيات التحق بالزرقاوي على نحو خاص، خمسة أردنيين. بعضهم جاء من مناطق القتال الشيشانية، وآخرون قدموا من الأردن مباشرة لتعزيز صفوف القاعدة في أفغانستان. وقد أدلى والد أحدهم، واسمه نضال عربيات، بشهادته حول الظروف التي التحق خلالها ابنه بالزرقاوي عام 1999.

كان نضال عربيات قد وصل في دراسته إلى الثانوية قبل أن يتطوّع في الجيش الأردني لعامين. وبعد حادث سيارة، التجأ إلى الدين، وبدأ بقراءة كتب عديدة حول الجهاد. وما لبث أن انعزل في صمت، وبقي وحده أياماً بأكملها، إلى أن جاء يوم أعلن فيه لأبيه أنه سيذهب لأداء الحج في مكة. عندها اعتقد أبوه أنه لن

(1) مقابلة مع مدير قسم مخابرات عربي، 8 تموز 2004.

يعـود مـن هـناك أبداً. وبعد أن قاتل إلى جانب الزرقاوي وأسامة بن لادن في أفغانـستان، وصـل نضال عربيات إلى العراق عبر إيران وكردستان العراق. إن عـسكريَّ الـزرقاوي ذاك، المختص بتصميم السيارات المفخخة، قُتل أخيراً أثناء عملية أميركية تمّ إطلاقها في شمال بغداد في شهر شباط من العام 2004[1].

وجـاء أحد الأردنيين الأشد عزماً من منطقته في السلط، وهي مدينة تقع إلى الغرب من عمان، يسيطر عليها "الإخوان المسلمون" يدعى معمر الجغبير (المعروف بمعمر أحمد يوسف الجغبير). وهو رفيق الزرقاوي في العمل العسكري، وقد اعتقل مؤخراً في العراق، ثم سلّم إلى السلطات الأردنية في أيار من العام 2004. وهو متهم بالمـشاركة في اغتيال "لورنس فولي" في عمان، في تشرين الأول من العام 2002. ومـثل الـزرقاوي، حكـم علـيه القضاء الأردني بالإعدام لاغتياله الدبلوماسي الأميركـي؛ ومثله مثل الزرقاوي قبله، كان قد استفاد من عفو عام 2000 بضغط من النواب الإسلاميين في محافظة "بلقا".

اعـتقل شـريك آخر أيضاً للزرقاوي في بغداد في الوقت نفسه: وهو علي مـصطفى يوسـف صيام، أحد الإرهابيين الذين شاركوا في اغتيال لورنس فولي. وبـصحبة الـزرقاوي، وهو شارك أيضاً، بمعية الزرقاوي، في مشروع اغتيال علي بـرجك، المـسؤول في GID عـن عملـيات مكافحة الإرهابيين[2]. ومثله مثل الزرقاوي، كان علي مصطفى يوسف صيام قد استفاد من العفو الملكي.

هناك أيضاً عزمي الجيوسي، الذي حاول في 26 أبريل من العام 2004 تفجير شـحنة كيماوية في قلب عمان، معرضاً للقتل 80000 شخص بحسب ما ذكرت الـسلطات. وأثـناء اعترافاته، التي جرى بثّها كاملة عبر التلفاز الأردني، أوضح الجيوسي كيف بدأ كل شيء: "في هيرات، بدأت تدريـبي لدى أبي مصعب. كان الـتدريب يشمل استعمال متفجرات ذات مستوى عالٍ والتدرّب على السموم. ثم

(1) "مقـتل الإرهـابي نـضال عـربيات، مساعد الزرقاوي، في عملية أمنية شمال بغداد"، بغداد، 24 شباط 2004.

(2) "US forces hand criminal over to Jordan", UPI, 20 juillet 2004. "القوات الأميركية تسلّم مجرماً إلى الأردن"، UPI يونايتد برس إنترناشيونال، 20 تموز 2004.

أقسمت يمين الولاء لأبي مصعب الزرقاوي، ورضيت أن أعمل بأمره دون طرح أسئلة"[1].

هنالك أردني آخر أصله من السلط (إنهم حوالى العشرين في هذه الحالة، من أصل خمسين من الأنصار)، وهو "رائد خريسات" (المعروف بأبي عبد الرحمن الشامي)، سرعان ما أصبح عميلاً للزرقاوي. وبناء على أمر من هذا الأخير، ما لبث أبو عبد الرحمن الشامي وثلاثة شبان آخرون من السلط (محمود محمد النسور، معتصم موسى عبد الله محمد الدريكا، وإبراهيم خريسات) أن غادروا معسكر هيرات لتوسيع محيط عمل الجماعة في كردستان العراق[2]. هذه المهمة التي تمّ تنسيقها من جانب الزرقاوي، ومن جانب السلطة العليا أسامة بن لادن نفسه، هدفت إلى إعادة تنظيم" المقاومة الإسلامية" في كردستان العراق.

هدفت هذه المجموعة الصغيرة من المجاهدين المزروعة في كردستان العراق إلى تكرار تجربة طالبان في هذه المنطقة وإلى التحضير لانسحاب محتمل من جانب مقاتلي القاعدة. في الأول من أيلول عام 2001، شارك الشامي ومساعدوه الثلاثة في إنشاء المجموعة الإسلامية "جند الإسلام"، قبل أن يشنّوا معركة بعد عدّة أسابيع ضد "الاتحاد الوطني الكردستاني" الذي يتزعّمه جلال طالباني. وسرعان ما ستغير الجماعة اسمها إلى "أنصار الإسلام"[3] لقد أمّنت هذه الجماعة انسحاب الزرقاوي وأتباعه بعد القصف الأميركي على أفغانستان. إن الاهتمام الذي يوليه الزرقاوي لكردستان العراق ليس أمراً مفاجئاً. إنه يعمل، في الواقع، باسم تنظيم القاعدة الذي يخطّط إلى إعادة انتشار تدريجي لأعضائه في كردستان تحسباً لما بعد الحادي عشر من أيلول. منذ العام 2000، عرف أسامة بن لادن أن اعتداءات الحادي عشر من أيلول ستكون مدمِّرة وأن ردّ الفعل الأميركي سيكون على مستوى الأضرار الحاصلة. وهكذا، فإن أسامة بن لادن، الحذر، جعل للزرقاوي وأتباعه هدف إنشاء خلايا في منطقة كردستان العراق.

---

(1) "تصريحات عزمي الجيوسي على شاشة التلفاز الوطني الأردني، أبريل 2004".

(2) "أردني رابع من مدينة السلط يستشهد في أفغانستان"، صحيفة الدستور، 24 تشرين الأول 2001.

(3) تقرير شامل من BKA (الشرطة الجنائية الألمانية) حول أبي مصعب الزرقاوي، 2004، وثائق الكاتب.

إن وكالة المخابرات الكردية "بارستن"، التابعة للحزب الديمقراطي الكردستاني (PDK) الذي يتزعّمه مسعود برزاني، اهتمّت منذ فترة طويلة بجماعة "أنصار الإسلام". وأصرّ أحد موظفي الوكالة الكبار، دانا أحمد مجيد، على أن المنظمة متصلة بالقاعدة: "قبل الحادي عشر من أيلول، كان لدى القاعدة مخطّط بأن تؤمّن لنفسها قاعدة جديدة لتلجأ إليها بعد هجمات الحادي عشر من أيلول، ذلك أنهم [أعضاء القاعدة] كانوا يعلمون جيداً أنهم سيُهاجمون في أفغانستان بعد هجمات الحادي عشر من أيلول، وأن عليهم أن يجدوا أرضاً جديدة [...]. كانوا يعتقدون أن الحكومة الكردية هي من الضعف بحيث لا تستطيع فرض الرقابة عليهم"[1].

في العام 2000، أكثر الزرقاوي من تحركاته بين كابول وهيرات، فارضاً على نحو تدريجي سلطته المتعلقة بالمقاومة الإسلامية على كردستان العراق. راقب الطريق الذي يمرّ عبر "مشهد"، في إيران، والذي يؤدي إلى الجبال الكردية. وأدار الزرقاوي أيضاً معسكر التدريب في "سرغات" في كردستان العراق، الذي وصف مرات عديدة على أنه مكان لصنع عناصر كيماوية وذيفانات بيولوجية. وستكشف الفحوص التي أجراها الجيش الأميركي بعد قصف كردستان العراق عن وجود عناصر سامة للأعصاب بالغة التأثير، مثل الذيفان البَخَصي[2] أو سم الريسين، في وسط معسكر سرغات[3].

وليؤمّن الزرقاوي لنفسه ضبط الفصائل الإسلامية في كردستان العراق، استدعى طليعة رفاقه، أولئك الذين كانوا قد شاركوا في مجموعة "بيعة الإمام"، والذين أطلق سراحهم، مثله، في العام 1999، وبخاصة جيرانه القدامى في الزرقاء، خالد العاروري (المعروف بأبي أشرف) وعبد الهادي أحمد محمود دغلس (أبي عبيدة). كان الرجلان يعيشان آنذاك في إيران، على حدود كردستان العراق. وسرعان ما نسّقا عمليات "أنصار الإسلام" بناء على أوامر قائدهما، أبي مصعب

(1) "تحت المجهر"، مصدر سبقت الإشارة إليه.

(2) بخصي: صفة عصبية لا هوائية تنمو في المعلبات واللحوم غير المطبوخة. (المترجمة).

(3) "الريسين في معسكر للإرهاب"، صحيفة ديلي ستار، 5 نيسان 2003.

الـــزرقاوي. إن الجماعـــة الـــتي يوجّهاها والمكوّنة من حوالى خمسة عشر رجلاً، معظمهم من الأردنيين، أنشأها الزرقاوي بنفسه في إيران ومهمتها مساعدة "أنصار الإســـلام" علـــى شنّ هجمات في الأردن وعلى القتال ضد "الحزب الديمقراطي الكردســـتاني". وفي الوقت نفسه، تستفيد جماعة "أنصار الإسلام" من سعة الحشد المالي لمؤسّس التنظيم، "الملا كريكار".

بالنسبة للأجهزة الأردنية المكلّفة بمقاومة الإرهاب، فإن الحساب النهائي مرير الطعم. فقد أظهر العفو الملكي في العام 1999 فيما بعد خطأ ذا نتائج جسيمة. فبعد عـــام واحـــد فقط من إطلاق سراح الزرقاوي، والمقدسي، والعاروري، ودغلس، والجغبير، وفراس سليمان علي هجير، وأحمد محمد مصطفى وآخرين، تُبْصِر GID (دائرة المخابرات الأردنية) من جديد انبعاث تهديد جديد، وهو تهديد صريح جداً لا ســـيما أن الجماعـــة تخطّـــط لاغتيال ضباط من GID[1] نفسه، وبخاصة اغتيال المسؤول عن مقاومة الإرهاب، علي بيرجك.

بين العفو عن أعضاء "بيعة الإمام"[2] في آذار من العام 1999 وبين إعادة بناء تنظيم الزرقاوي، انقضى عام واحد فقط. في أثناء ذلك، عزّز الزرقاوي أوجه دعمه في إيران، وأفغانستان، وكردستان العراق. وسيتحتّم على الأجهزة الأردنية من الآن فـــصاعداً أن تجابه تهديداً خطيراً إلى أبعد الحدود، وخاصة التصدي لحملة هجمات تـــستهدف مباشرة الأردن. باختصار، إن الإخوان المسلمين الأردنيين، الذين كما نذكـــر، كانـــوا قد قادوا حملة ضغط لجوجة في بداية التسعينيات، لإطلاق سراح الإسلاميين، قد حقّقوا فعلاً غاياتهم. من الآن فصاعداً، إن المتطرفين، الأشد تصلباً، هم أحرار... وفي موقع قوة.

بالاتفـــاق مـــع القاعدة، أخيراً ستكون منظمة" أنصار الإسلام" تحت مراقبة ثلاثـــية: أبو مصعب الزرقاوي في أفغانستان، الشامي في كردستان العراق، والملا كـــريكار، اللاجئ في النروج بدءاً من العام 2002. إن الأعضاء العملياتيين لجماعة

(1) "الأردن يعلـــن عن اكتشاف مجموعة أنصار الإسلام المرتبطة بالقاعدة"، صحيفة فاينانشل تايمز، 13 أيلول 2003.

(2) في الأصل الفرنسي "بيعة الإسلام" والأصح "بيعة الإمام". (المترجمة).

"أنصار الإسلام" اتخذوا من جبال كردستان العراق قاعدة لهم، لكن الشبكة اللوجستية للجماعة موجودة في إيران وهي تقريباً مكونة بالكامل من أنصار الزرقاوي[1].

واصل الزرقاوي وقد أنشأ شبكته في كردستان العراق بالتنسيق مع القاعدة، إدارة معسكر التدريب في هيرات على نحو مستقل. وستتعزّز هذه الرغبة في الاستقلال خلال العام 2001. بيد أن القرب من إيران وعلاقة الزرقاوي المستمرة مع جماعة "أنصار الإسلام" سيحثّانه على مدٍّ شبكاته الخاصة إلى أوروبا، وعلى الخصوص إلى ألمانيا وبريطانيا العظمى. إن تلك الخلايا، التي ستسميها لاحقاً السلطات القضائية الأوروبية بالتوحيد، لا تشكّل في الواقع إلاّ امتداداً لشبكات "أنصار الإسلام". وسيكون لمنظمة "التوحيد"، التي أغلب أعضائها متمركزون في ألمانيا وبريطانيا العظمى، وظيفة مزدوجة بإدارة الزرقاوي: شنّ هجمات على الأراضي الأوروبية، وأيضاً تأمين دعم لوجستي عند هروبه من أفغانستان بُعيد عملية "الحرية الدائمة".

(1) المصدر السابق.

الفصل الرابع

إرهابي محلي

أصبح الزرقاوي يمثّل تهديداً خطيراً كما تشهد على ذلك العديد من الاعتداءات ومحاولات الاعتداء المنظّمة في الشرق الأدنى بين عامي 1999 - 2004. لقد نظّم بعد رحيله إلى باكستان في صيف العام 1999 سلسلة عمليات استهدفت في المقام الأول المملكة الأردنية، والتي لم يفلح في إخماد حقده ضدها. لقد صنع الزرقاوي لنفسه شهرة "إرهابي محلي" قبل أن يصبح شخصية فذّة على مسرح الإرهاب الدولي.

إن أحد أوائل الهجمات التي نظّمها لدى خروجه من السجن استهدفت أهدافاً سياحية في الأردن. رغم أن اسم أحمد فضيل نزال الخلايله لم يدرج على لائحة الأشخاص المتهمين، كما هي الحال في القائمة التي أرسلتها الحكومة الأردنية إلى "لجنة الأمم المتحدة لمكافحة الإرهاب" في 29 كانون الثاني من العام 2002، إلا أن القضاء الأردني أثبت مشاركة الزرقاوي في تلك العملية منذ ذلك الحين. أضف إلى ذلك، فقد حكم على الزرقاوي غيابياً، في 11 شباط من العام 2002، بخمسة عشر عاماً من السجن لمشاركته في مشروع الهجوم هذا، المعروف باسم *Millenium Plot* (أو "مؤامرة الألفية").

إن مؤامرة الألفية تلك قد خطّط لها بالكامل في أفغانستان أردنيون يعملون لحساب القاعدة. فالزرقاوي الذي خرج حديثاً من السجون الأردنية، لم يكن قد مارس بعد أي سلطة تنسيق: إن ذلك الدور قد آل آنذاك إلى رئيس العمليات العسكرية في القاعدة، الأردني زين العابدين، المعروف بأبي زبيدة. لقد زار هذا الأخير خلال عام 1999 في أفغانستان رجلان أردنيان عازمان على القيام بالجهاد في بلدهما الأصلي: أحمد الرياتي ورائد حجازي. لقد اعترف أبو زبيدة أنه أخذ على عاتقه تدريب الرجلين على استخدام المتفجرات في معسكرات القاعدة. وفي

تـــشرين الثاني من العام 1999، عندما غادر الزرقاوي على نحو مبكر باكستان إلى أفغانستان، التقى في كابول بالشابين الأردنيين بناء على توصية من أبي زبيدة. كان الزرقاوي آنذاك رجل ثقة لدى أبي زبيدة، الذي هو نفسه أحد العسكريين الكبار لدى أسامة بن لادن[1].

مـــنذ ذلـــك الوقت، شارك الزرقاوي، بصحبة رفيق السلاح المخلص خالد العاروري، في مشروع مؤامرة الألفية. ومن بين الأهداف في ذلك المشروع، فندق "راديـــسون ســـاس"، في قلب عمان، المكان الذي عُمِّد فيه المسيح على ضفة نهر الأردن، وأيـــضاً جـــسر "الملك حسين" الذي يربط الأردن بإسرائيل[2]. إن تلك الأهـــداف طموحة وربما تتجاوز، في اتساعها، قدرات تلك المجموعة من الأردنيين الـــذين لا خـــبرة لـــديهم في مجال التخريب. رغم دعم القاعدة المالي ومساعدة الـــزرقاوي التقنـــية، إلا أن الشرطة الأردنية أحبطت بسرعة المؤامرة وحُكِمَ على المـــسؤولين عـــنها، ومـــنهم الزرقاوي. وفي نهاية الأمر، قبضت القوات الخاصة الأميركـــية على أبي زبيدة في 12 أبريل من العام 2002 في باكستان. وحكم عليه القـــضاء الأردني بالإعـــدام، وأكّد أثناء استجوابه تورّط أبي مصعب الزرقاوي في مؤامرة الألفية.

خـــلال المحاكمـــة، أثبت القضاء الأردني مسؤولية مختلف المتورطين في العملية. وعلى هذا النحو جرّم المدعي العسكري المكلف بالقضية، العقيد "فواز البقور"، الزعيم العسكري للشبكة الكردية "أنصار الإسلام"، نجم الدين فرج أحمد، المعروف على نحو أوســـع باسم "الملا كريكار". لقد قدّم هذا الأخير مساعدة للعديد من أعضاء الخلية المكلفين بالقيام بالهجمات، وبخاصة مساعدة المتهم الرئيسي، الأردني أحمد محمود صالح الرياتي. ولعدم وجود اتفاق تسليم المجرمين بين النروج، التي هاجر إليها الملا كريكار، وبين الأردن، فإن زعيم "أنصار الإسلام" لا يزال طليقاً.

---

(1) طلـــب الاتهام النهائي في عدم وجود وجه جزئي لإقامة دعوى، وفي الإحالة أمام محكمة الجنح وفي الإبقـــاء على الاعتقال المؤقت، محكمة باريس للدعاوى الكبرى، قضية "بيغال" وآخرين، 2004، وثائق المؤلف.

(2) المملكة الأردنية الهاشمية، محكمة الأمن، قضية "مؤامرة الألفية"، 2000، وثائق الكاتب.

لقد أوقف ما يناهز سبعة وعشرين شخصاً متهمين بالمؤامرة بعضهم في سوريا والأردن. عند صدور الحُكم، أعلن القاضي "طايل راكاد" حكم الإعدام بحق أحد المشاركين الرئيسيين في المجموعة، رائد حجازي، الموجود في قاعة المحكمة. فصرخ الحجـــازي: "الله أكـــبر"، ثم الـــتفت نحو القاضي مستفهماً: "أين إرادة الله؟ لماذا تحكمـــون عليّ بالموت؟ أنتم تحكمون البلد ضد المواطنين الأردنيين. إن شارون لا يحكـــم على مواطنيه بالموت. من أجل حفنة دنانير، تحاربون مواطنيكم[1]. أما أبو مـــصعب الزرقاوي، فحُكِم عليه، للمرة الثانية، بخمسة عشر عاماً من السجن، إلا أن الحكم هذه المرة كان غيابياً. لقد كشفت مؤامرة الألفية تلك عن عقلية مقاتلي القاعـــدة المتطرفين، العازمين عزماً أكيداً على محاربة نظام يرون أنه فاسد ويناصر سياسة التعاون مع العدو.

رغـــم هـــذا الإخفاق، واصل الزرقاوي مخططاته الدموية، مصمماً أكثر من أي وقت آخر على ضرب النظام الإسرائيلي. وقرّر مجدداً الشروع في عملية استشهادية. ما إن وصـــل إلى أفغانـــستان، والتحق بالقاعدة، حتى خطّط، كما ذكرنا سابقاً، لعملية مشابهة لتلك التي كانت قد فشلت في العام 1994، مع نفس الشركاء، جيرانه في حي "معصوم" في الزرقاء، فراس سليمان، علي هجير، وأحمد محمد مصطفى. إن الأسباب نفـــسها تؤدّي إلى النتائج ذاتها، وتمّ اعتقال الرجلين في "فان"، في تركيا، في شباط من العام 2002، بينما كانا يستعدان للاقتراب من إسرائيل لشنّ هجومهما...

إن هـــاتين المحاولتين الفاشلتين لم تثبطا عزم الزرقاوي، الذي نسّق انطلاقاً من سوريا عملاً استهدف الأردن خلال العام 2002. وهو ضرب المصالح الأميركية في الأردن، وبالـــتحديد اغتـــيال دبلوماســـي أميركي في قلب عمان: لورنس فولي. استلزمت العملية دعماً لوجستياً وتنظيماً معقداً تولّى أمرهما الزرقاوي.

حـــضّر الـــزرقاوي ونسّق لاغتيال الدبلوماسي بينما هو هارب في سوريا. وليتولى على نحو جيد تلك العملية، جمع حوله العديد من أنصاره المقربين، وكذلك أعضاءً في شبكة القاعدة. وهؤلاء هم سالم سعد سالم بن صويد (المعروف بأبي عبد

(1) "محكمـــة عسكرية تصدر حكماً بالإعدام على المتهم بمؤامرة الألفية الإرهابية، وكالة أسوشيتد برس"، 11 شباط 2002.

الله)، ياسر فتحي إبراهيم فريحات (المعروف بأبي فراس، وأبي معاذ)، وأردني مقيم في الرصيفة، محمد أمين أحمد سعيد أبو سعيد، ومواطن ليبي مقيم هو أيضاً في الرصيفة، نعمان صالح حسين الهرش، ومواطن كويتي مقيم في عمان، شاكر يوسف العبسي (المعروف بأبي يوسف)، وفلسطيني مقيم في سوريا، محمد أحمد طيورة (المعروف بأبي الأنس)، وسوري الجنسية مقيم في سوريا، محمد عيسى محمد دعمس (المعروف بأبي أمان)، ومقيم في الرصيفة، معمر أحمد يوسف الجغبير (المعروف بأبي محمد)، وأردني سيُقتل في العراق، أحمد حسين حسون (المعروف بأبي حسن) ومحمود عبد الرحمن ظاهر (المعروف بأبي عبد الرحمن) وهما مواطنان سوريان هاربان، وبالطبع، أبو مصعب الزرقاوي[1].

خطّط لمشروع الهجوم ذاك ضد الدبلوماسي انطلاقاً من العلاقة المتميزة القائمة بين سالم سعد سلم بن صويد وأبي مصعب الزرقاوي. إن صويد وهو مقاتل سابق في أفغانستان، التقى بالزرقاوي في معسكر تدريب "صدى"، في أفغانستان، في العام 1989. واعترف أيضاً بلقائه في أفغانستان بأسامة بن لادن، وأيمن الظواهري، وعبد الله عزام. وتطوّع صويد، وهو رفيق الزرقاوي في الجهاد، في بداية التسعينيات، ليتولّى معه عملية فوق التراب الأردني. لقد تمتّع الزرقاوي في الواقع بدعم لوجستي من منظمة القاعدة، وأسلحة وموارد مالية.

في أوساط الشبكات الإسلامية الراديكالية، كانت لصويد شهرة رجل محترف. وبسبب مذكرة قبض ليبية لمشاركته في مجموعة إسلاميين متطرفين، ذهب مع امرأته إلى سوريا، ثم إلى الأردن، في العام 1992. وبقي خمس سنوات فوق الأراضي الأردنية. في ذلك الوقت، التقى بالزرقاوي بانتظام في مسجد بلال في منطقة "عوجان". ووطّد الاثنان علاقة صداقة متينة إلى حين حبس الزرقاوي في "سواقه". في شهر آب من العام 1997، غادر صويد الأردن ليعود إلى سوريا. وأقام في "ريف دمشق"، ثم قام على نحو منتظم بذهاب وإياب إلى الأردن، وبحوزته جوازات سفر تونسية مزيفة.

(1) المملكة الأردنية الهاشمية، محكمة أمن الدولة، قضية لورنس فولي، قرار رقم 545/2003، وثائق المؤلف.

وعــزز وقــتها تدريجياً مجموعته من المتطرفين، وضمّ إليه ياسر فتحي إبراهيم فــريحات، الذي سيتواطأ معه عند اغتيال لورنس فولي. وقد التقى صويد وفريحات في الأردن في نهاية العام 1999.

غــير أن صويد اقترب على نحو خاص من السوري محمد أحمد طيورة، الذي زوّده بجــواز ســفر مزيف باسم "علي لافي" ليتمكّن من مغادرة سوريا، وطلب صــويد مــن فــريحات، في شهر نيسان من العام 2002، التدرّب على استعمال الأسلحة وصنع الأسلحة الكيماوية.

وقــتها اتــصل فــريحات بالسوري المدعو محمد أحمد طيورة (المعروف بأبي الأنــس) لمواصــلة هذا التدريب. وفي اليوم التالي، اصطحب طيورة فريحات إلى إحــدى "الثكــنات العسكرية"[1] (هكذا وردت من الأصل) في دمشق. وأمضى فــريحات أســبوعاً في هذا المخيم العسكري السوري. وتدرّب، وهو محاط بثلاثة عــسكريين، علــى إطــلاق النار بالرشاش، والمسدس، وعلى صنع قنابل نترات الأمونــيوم. خــلال العــام 2002 نفسه، تدرّب أيضاً عناصر آخرون من جماعة الــزرقاوي في الثكــنات العسكرية في سوريا. وتلك هي حال محمد عيسى محمد دعمس وأيضاً حال الكويتي نعمان صالح حسين الهرش. وفي سياق تلك التدريبات، تعلّم فريحات، ودعمس، والهرش استخدام البنادق الهجومية M16، والقنابل اليدوية الهجومية، والكلاشنكوف.

مــا إن انتهــى تدريب فريحات في سوريا، حتى انضمّ إلى صويد في الأردن. واستأجر الرجلان منــزلاً بسيطاً في "الرصيفة"، في ضاحية عمان، بناء على نصائح الزرقاوي. وفي حزيران من العام 2002، انضمّ السوري طيورة إلى صويد وفريحات في الرصــيفة، واســتخدم منــزلهما أيضاً كمخبأ لإخفاء خمسة كلاشينكوفات وأســلحة أخرى ضرورية للعملية. ومن سوريا المجاورة، مدّ الزرقاوي الخلية النائمة في الرصيفة بالمال، محوّلاً إليها مبلغي 1000 دولار ثم 5000 دولار.

وســرعان ما أمر الزرقاوي عسكرييه المخلصين، محمد عيسى محمد دعمس

(1) المملكــة الأردنية الهاشمية، محكمة أمن الدولة، قضية لورنس فولي، قرار رقم 545/2003، وثائق المؤلف.

ومعمــر أحمد يوسف الجغبير، بأن يعودا بصويد إلى سوريا لينسق بنفسه العملية. وخــلال هــذا اللقــاء، تسلّم صويد من الزرقاوي، في حزيران من العام 2002، مــسدساً من عيار 7 ملم، وكاتم صوت، وسبعة مخازن. إن هذا المسدس هو الذي سوف يُستخدم في قتل لورنس فولي.

أشــار المــتهمان إلى أنــه، خلال صيف 2002، "كان الزرقاوي مقيماً في سوريا"، في حين أن كولين باول، وزير خارجية أميركا، حدّد مكانه، بين شهري أيار وتموز من العام 2002، في مستشفى "أوليمبيك" في بغداد، حيث أكّد أنه تلقّى فيها معالجة طبية[1].

في شهر أيلول من العام 2002، ولكي يتحقّق الزرقاوي من أن كل شيء على مــا يرام، دخل بنفسه إلى الأردن على نحو غير شرعي قادماً من سوريا. وأمضى بــضعة أيــام في "طــرفة" بصحبة صويد ودعمس. وأكمل مخطّط العملية. سلّم الــزرقاوي صويد مبلغ 13000 دولار، وطلب منه تجنيد متطوعين إضافيين ليكلّل الاغتيال بالنجاح. ووعد الزرقاوي آنذاك صويد بأنه سيرسل إليه من العراق أسلحة ومتفجرات[2] وأنه سيسلّمه قذائف بهدف القيام بعملية ثانية.

بعد مرور شهر، في تشرين الأول من العام 2002، أرسل الزرقاوي، لصويد، عن طريق وسيطين، مبالغ كبيرة من العراق - 10000 ثم 33000 دولار. إن تلك المــبالغ أتاحت تمويل سلسلة عمليات فوق الأراضي الأردنية، ومنها عملية اغتيال لورنس فولي. لقد وصلت المبالغ إلى الإرهابيين بواسطة بنك "الرافدين" العراقي، أو سلّمت باليد بواسطة عملاء الزرقاوي. في نهاية المطاف، إن أكثر من نصف تمويل العملــية تمّ تمريــره عــبر هذا البنك الذي كانت تملكه في ذلك الوقت الحكومة العراقية[3].

---

(1) "النقاط الرئيسة في خطاب كولين باول"، وكالة الأنباء الفرنسية AFP، 5 شباط 2003.

(2) المملكــة الأردنــية الهاشمــية، محكمة الأمن، قضية لورنس فولي، قرار رقم 545/2003، وثائق المؤلف.

(3) "أحــد مــسؤولي البنك التابعين لصدام وهو مدير بنك الرافدين الحكومي يصرح: "إن الأمم المتحدة ليست بمشكلة"، إذ إن العقوبات الدولية مصممة لمنع تحويل الأموال إلى داخل البلاد"، "غازيت (مونتريال، كيبيك)، 21 شباط 2003.

وبطلب من الزرقاوي، حضّرت المجموعة في الوقت نفسه هجوماً ضد الولايات المتحدة. ولأجل ذلك، روقب مطار "ماركا" العسكري، الذي تقلع منه طائرات أميركية لتقصف أفغانستان. لقد رغب الزرقاوي بالإعداد لتوجيه قذائف لإسقاط طائرة أثناء إقلاعها. لكن تمّ التخلي عن تلك العملية البالغة التعقيد في نهاية الأمر.

في 28 تشرين الأول من العام 2002، اغتيل "لورنس فولي" وهو دبلوماسي أميركي في الستين من عمره، وعمل مُلحقاً في" الوكالة الأميركية للتنمية الدولية" (USAID)، في مرآبه بثمان رصاصات أطلقها صويد كلها. إن هذا الاعتداء هو الأول من نوعه الذي يوجّه ضد دبلوماسي أجنبي يعمل في الأردن.

لقد صرّح الوزير محمد عدوان قائلاً: "إن هذا الاعتداء، مهما تكن دوافعه، هو اعتداء ضد البلد وأمنه الوطني". وما لبثت GID أن عثرت على مطلق النار، صويد، وأيضاً على فريحات، الذي كان ينتظره في السيارة، وحدّدت هوية الشريك الممول، أبي مصعب الزرقاوي.

خلال الاستجوابات الأولى في GID، أقرّ صويد بقتله للورانس فولي: "لأنه كان هدفاً سهلاً لنا"[(1)]. وبناء على أمر الزرقاوي، كان فريحات وصويد قبل كل شيء مهتمين بتعقب هدفهما، ودراسة كل تحركاته في عمان. باختصار، قبل قتل الدبلوماسي الأميركي، قاما بتحرٍ دقيق حول الشخص المعني، وبتحليل دقيق للبيئة على غرار عمليات "مماثلة Homo" تقوم بها أجهزة المخابرات التقليدية. وما إن تمّ "القضاء على الهدف"، حتى اتصل صويد بعسكري الزرقاوي في العراق، الجغبير، ليؤكّد له "نجاح العملية".

إن الوسائل التي استخدمها الزرقاوي وفريقه لإنجاح الاغتيال تبدو تقريباً متفاوتة. وقد أدهشت الاحترافية التي أظهراها محققي مكافحة الإرهاب الأردنيين. إلى ذلك الوقت، لم يكن أبو مصعب الزرقاوي قد شارك إلا في محاولات اعتداء. لكن، وبعد اغتيال الدبلوماسي الأميركي، فإن التهديد الذي يمثّله حُمل كثيراً على

---

(1) المملكة الأردنية الهاشمية، محكمة الأمن، قضية لورنس فولي، قرار رقم 545/2003، وثائق المؤلف.

محمل الجدّ. وفي 6 نيسان من العام 2004، عقب محاكمته غيابياً، حكم على المتهم التاسع، "أحمد فضيل نـــزال الخلايله" بالإعدام شنقاً[1].

لقـــد دلّ اغتيال لورنس فولي، في الواقع، على تحوّلٍ في مسار الزرقاوي. لقد برهن أنه كان قادراً على تنسيق عملية محددة الهدف وهو في الخارج، وعلى قدرته أيـــضاً علـــى زعـــزعة استقرار بلده الأصلي، الأردن، على نحو عميق. لكن حملة الترويع التي أطلقها الزرقاوي قد بدأت لتوّها وحسب.

لقـــد كشفت العملية عن شبكات الزرقاوي. وبحسب قرارات الاتهام الأردنية، فـــإن الزرقاوي كان في الواقع موجوداً في سوريا من شهر أيار وحتى شهر أيلول من العـــام 2002. وقد يكون استفاد من سوريا في دخول "الثكنات العسكرية" الشهيرة لتدريب مجنديه، وفي امتلاك جواز سفر سوري وفي التنقل دون صعوبات حقيقية من ســـوريا إلى الأردن والعراق. إضافة لذلك، رأى التحقيق الأردني أن شبه كمال عملية فولي قد تمّ التخطيط له في دمشق من جانب الزرقاوي ومساعديه الأكثر قرباً منه.

إن تلـــك الاتهامات هي أشدّ خطورة بكثير من الاتهامات التي استطاعت في وقـــت مـــا أن تُثقل على نظام صدام حسين، ولكنها أخمدت حتى يومنا هذا. إن وجـــود الزرقاوي في سوريا قد أكده أيضاً على الأقل جهاز من أجهزة المخابرات الغربية، الذي أثبت، استناداً إلى التنصّت على المكالمات الهاتفية، وجوده في ضاحية دمشق في نفس الوقت.

لكن هذا ليس كل شيء. فعندما عاد الزرقاوي في شهر أيلول عام 2002 إلى العراق، أخبر صويد بأن بوسعه الاتصال به في بغداد إن لزم الأمر. وأكّد قاتل فولي أنـــه كـــان يتوجّب عليه الحضور إلى مطعم "الغوطة"، الواقع على بعد عدّة دقائق مـــشياً على الأقدام من فندق "فلسطين" في بغداد، وأن يعطي اسم "الخلايله" حتى يمكّنه أصحاب المطعم من الاتصال بالزرقاوي[2].

(1) المملكـــة الأردنـــية الهاشمـــية، محكمة الأمن، قضية لورنس فولي، قرار رقم 545/2003، وثائق المؤلف.

(2) المملكـــة الأردنـــية الهاشمـــية، محكمة الأمن، قضية لورنس فولي، قرار رقم 545/2003، وثائق المؤلف.

وتـــشاء الصدف أن يكتب الممثل "شون بين"، ملاحظاته عن رحلته لدى عـــودته مـــن بغـــداد[1]، متخذاً من وجود رجال الأعمال السوريين هؤلاء، أصحاب مطعم "الغوطة" الذي تعشى فيه، ومن حضور السياح الإيرانيين، مثالاً موضحاً لـــ "سخرية الوضع العراقي"، حيث تضع الدول المجاورة كل آمالها في سقوط النظام[2]. يبدو أنها حقيقة قد غابت عن الأميركيين، اللهم إلا إن كانوا يتملّصون منها برضاهم.

عند وقت العشاء، في 26 نيسان من العام 2004، وفي غمرة الحرب العراقية، يفتـــتح الـــتلفاز الوطني الأردني نشرته الإخبارية المسائية" ببرنامج خاص". وأدرك الأردنيون بهلع أن الموت كان يمسهم عن قرب.

كان للرعب اسم وهو: "عزمي الجيوسي". إن ذاك الشخص الذي تكلّم أمام الكـــاميرا ذو وجه مستدير، أردني، كان يتكلّم بطلاقة ووصف بالتفصيل، خلال ذلـــك "الاعتـــراف المتلفـــز" الإجباري، أشار إلى أن الطريقة التي نظّم بها الهجوم الكـــيماوي في عمان كان من الممكن أن يقتل 80000 شخص. إن السيناريو يشبه في خطته الهجوم الذي وجّه ضد لورنس فولي قبل عامين. ويقول الجيوسي إنه تلقّى أوامـــره، وجوازات سفر مزيفة ونقوداً من أبي مصعب الزرقاوي. وفي هذه المرة، كانـــت الوسائل المستخدمة وكذلك الأغراض مختلفة: فالأهداف هي مبنى رئاسة الـــوزراء، والمقـــر العام لجهاز المخابرات الأردني (GID)، والسفارة الأميركية في عمان.

ولإنجـــاح تلـــك الهجمات، صنعت تلك الجماعة عشرين طناً من المتفجرات الكيماوية، القادرة على قتل 80000 شخص وجرح 160000 شخص آخر. كانت المتفجـــرات موضّبة في حاويات، وهي نفسها موضوعة بعناية في شاحنات صغيرة. وقد نسّق الزرقاوي من العراق تلك العمليات بأكملها، وهو الذي وظّف، سلفاً، الوسائل المالية والبشرية الضرورية.

في 20 نيسان من العام 2004، وقبيل تنفيذ العملية، والتي كان من الممكن أن

(1) مقابلة مع "شون بين"، 5 كانون الأول 2003.

(2) شون بين "تعليقات"، سان فرانسيسكو كرونيكل، 14 كانون الثاني 2004.

تكــون أوســع عمل يتمّ إنجازه على الإطلاق، استجوبت الشرطة الأردنية زعيم المجموعة، عزمي الجيوسي. فيما رفض الأعضاء الآخرون في التنظيم، موفق عدوان، حسان سمسمية، صالح مرجم، وإبراهيم أبو الخير الاستسلام وقُتلوا أثناء غارة شنّتها قوات الأمن الأردنية.

كــان الجيوســي، مثله مثل آخرين قبله، قد التقى بالزرقاوي في معسكرات تدريب القاعدة في أفغانستان. ومثل الآخرين أيضاً، كان قد تدرّب على استخدام المتفجــرات في معــسكر "هيرات". كما أدّى أيضاً يمين الولاء للزرقاوي، واعداً "بالطاعــة دون طرح أسئلة، وبأن يكون دائماً إلى جانبه"[1]. بعد سقوط طالبان، التقــى الجيوســي بالزرقاوي في العراق. وقد زوّده هذا الأخير بوسائل بناء خليته الخاصــة في الأردن، ملتمساً المساعدة من أحد المخلصين له في سوريا، وهو خالد درويش (المعروف بأبي الغادية).

وبُعــيد تلــك اللقاءات مع الزرقاوي في العراق، تسلّل الجيوسي إلى الأردن بصحبة رجل مقرَّب من الزرقاوي نفسه، وهو موفق عدوان. وبفضل الأموال التي جمعتها مجموعة الدعم اللوجستي في سوريا، اشترى بالتدريج كل المعدات الضرورية لــصنع أسلحة كيماوية. وعبر نظام مبعوثين معقد، أرسل الزرقاوي مبلغ 170000 دولار إلى المجموعة المكلفة بالعملية. وانضمّ آنذاك إلى المشروع متطوعون جدد مثل أحمــد سمــير، الذي شارك مباشرة في تجهيز المتفجرات بالقرب من جسر الرمثة. واشترى الجيوسي أخيراً عدّة مركبات لازمة للعملية، وكذلك سيارة شحن صفراء ماركة "مان"، ضخمة بما يكفي لخرق حواجز (GID) والانفجار في داخل حرمه. بالإجمــال، ســتكلف العملية أكثر من 250000 دولار، بحسب أجهزة المخابرات الألمانية[2].

وتمّ التواصــل بــين رجال المجموعة بواسطة بطاقات هاتفية مدفوعة سلفاً،

(1) تقريــر شــامل مــن BKA (الشرطة الجنائية الألمانية) حول أبي مصعب الزرقاوي، 2004، وثائق الكاتب.

(2) تقريــر شامل من BKA (الشرطة الجنائية الألمانية) حول أبي مصعب الزرقاوي، 2004، وثائق الكاتب.

وطـــبّقوا إجـــراءات أمنية بالغة الصرامة خلال مكالماتهم الهاتفية. وهنالك طريقة موثوقة أكثر تمّ استخدامها من جانب المجموعة: تقوم على استخدام رسل مؤتمنين. وتمّ تجنـــيد هؤلاء الرسل في سوريا، هناك حيث توجد القاعدة اللوجستية لشبكة الزرقاوي.

علـــى مرّ الشهور، لاحظ بعض جيران حي "البرحا" بالقرب من إربد، تغيّراً في سلوك الجيوسي. لقد بدا أن هذا الأخير يبتعد عن المجتمع، وينعزل. وبعد فترة، تمركزت المجموعة في مكان أكثر قرباً من الأهداف. نظّم الجيوسي التفاصيل الأخيرة للعملـــية، مثل قاذفات الصواريخ من طراز RPG، التي ستستخدم لتدمير الحواجز. إن كـــل فـــرد حوله عازم على المضي إلى النهاية والانسحاق مع المتفجرات على الأسوار إن هي قاومت و لم تتحطّم.

أثناء "الاعترافات المتلفزة" الشهيرة، صرّح أحد المعتقلين لدى الشرطة، حسين شريف، أمام الأردنيين، المذهولين أمام أجهزة التلفاز: "لقد قبلت بالمشاركة في هذه العملية لأنني أعتقد أن ذلك سيخدم الإسلام".

في هذه المرة، أصبح الزرقاوي الرهان الأكبر بالنسبة للأجهزة الأردنية.

الفصل الخامس

الهروب

في الحادي عشر من أيلول من العام 2001، في الساعة العاشرة وثمان وعشرين دقـيقة، انهار برجا مركز التجارة العالمي على بعضهما، وأوقعا 2823 ضحية. لقد ارتكبت القاعدة، فوق الأرض الأميركية، أهم هجوم انتحاري في التاريخ. لم يجد العالم الكلمات، وكذلك الحكومة الأميركية لشجب هذا العمل الإرهابي. وتشكّل تحالـف حول الولايات المتحدة، وانطلقت عملية Enduring Freedom ("الحرية الدائمة") في خريف العام 2001 في الجبال الأفغانية.

باشر التحالف الدولي سلسلة عمليات قصف بالقنابل على أفغانستان، تبعتها علـى الأرض عملـيات مضادة للإرهاب. على المستوى العملياتي، لم تحقّق تلك الأعمـال الـثأرية إلا نجاحـاً منقوصاً. فرغم أن عملية "الحرية الدائمة" أصابت وزعـزعت مـنظمة القاعدة، إلا أن النواة الأولى للجماعة، أسامة بن لادن وأيمن الظواهري أفلتا من 30000 مقاتل أميركي وكذلك من 350 طائرة مقاتلة انتشرت في المنطقة. بيد أن عنصراً لا يُضبط، أفلت أيضاً من القوات الأميركية المتمركزة في أفغانستان: أبو مصعب الزرقاوي.

بعـد الحـادي عشر من أيلول 2001، لم يعد الوضع كما كان أبداً بالنسبة لمقاتلي جماعة القاعدة. لقد أصبحت تلاحقهم جميع أجهزة شرطة العالم، وكذلك الجـيش الأميركـي. وأثـناء الانتقام لهجمات 11 أيلول، قصف التحالف المعالم، ومعـسكرات التدريب وكذلك مخابئ الجماعة. وطيلة أيام، دكّت قاذفات القنابل الأميركية جبال "تورا - بورا". وفي ذلك الحين نظّم أفراد طالبان ورجال القاعدة الكبار هروبهم ومعظمهم هرب عن طريق باكستان والمناطق القبلية في وزيرستان. وخـلال الهجـوم، انعقد اجتماع في قندهار ضمّ الزرقاوي، وأبا زبيدة، وسيف العـدل، ورمـزي بن الشيبة، الذي نسق خلية هامبورغ. وأشار أبو زبيدة إلى أنه

خلال ذلك الاجتماع أصدر الزرقاوي أمره بإخراج سرّي لمجموعة تضمّ ما بين 12 إلى 15 مقـاتلاً مـن أفغانستان لتذهب إلى العراق. وأضاف أن صاروخاً أميركياً أصـاب منـزل قـندهار حيث كانوا مجتمعين. وقد انتشل الزرقاوي من تحت الأنقاض، وأصيب ببعض الجروح الخفيفة[1].

وهكذا، أصيب الزرقاوي بعد أن سقط في شرك الضربات الأميركية. وفي 12 تـشرين الثاني من العام 2001، ذكر أحد قادة شبكته في إيران، أبو علي، (خلال محادثة هاتفية مراقبة) الحالة الصحية السيئة "للحبيب"، أي الزرقاوي. في 12 كانون الأول مـن العـام 2001، روى أحد أتباع الزرقاوي، المدعو أشرف عماد، الذي سـبق أن هرب من أفغانستان عبر إيران، أنه لم يتم بعد إخراج الزرقاوي سراً من أفغانـستان، وأنـه كـان مصاباً إصابات خفيفة في ساقيه ومعدته، لكن بوسعه المشي[2]. وأكّد الزرقاوي لمجموعة أنصاره المتمركزة في إيران أمر الخسائر الأميركية في أفغانـستان. فقـد أحـصى في بدايـة شهر تشرين الثاني عام 2001، ثمانين "خنـزيراً" [جندياً] وأربع "فراشات" [طائرات هليكوبتر][3].

إن إخراج الزرقاوي السري نُظّم عن طريق إيران، بينما شرع القادة الآخرون في الهـروب عبر غرب أفغانستان. منذ نهاية العام 1999، طُلب مراراً وبإلحاح من خلية الدعم اللوجستي الشهيرة "التوحيد" العمل بين إيران وألمانيا. لقد عملت تلك الخلـية المخلصة للزرقاوي، كل ما تستطيع لنقله، على الأقل مؤقتاً، إلى الأراضي الإيرانية.

لقد اشترى أحد أعضاء الخلية الألمانية، أبو أيوب، بعد مرور بضعة أيام على هجمات 11 أيلول، هاتفاً يعمل عبر الأقمار الصناعية من أجل الزرقاوي. وسرعان ما قام أعضاء خلية "التوحيد" في ألمانيا بإرسال كل ما هو ضروري للزرقاوي لبقائه حـياً وسـط محـيط عدائي مثل جهاز رؤية ليلية وهاتف لاسلكي. إن عليه الآن

---

(1) تقريـر شامل من BKA (الشرطة الجنائية الألمانية) حول أبي مصعب الزرقاوي، 2004، وثائق الكاتب.

(2) الدعوى القضائية الألمانية، قضية "التوحيد"، تحقيق BKA، 2002، وثائق المؤلف.

(3) المصدر السابق.

الوصول بأقصى سرعة إلى طهران لتتمّ العناية به، وعليه على نحو خاص النجاة من عمليات التحالف المناوئة للإرهاب.

قرّر الزرقاوي بلوغ إيران عبر أقصى جنوب البلاد، عن طريق مدينة زهدان. إن العبور عن طريق بيرجاند وطريق "كيسلا إسلام" الحدودي، عند الخروج من هيرات، أمر غير وارد لأن السلطات الإيرانية تترصّد أعضاء القاعدة الذين يغادرون أفغانستان عبر هيرات. فمنذ إقامة معسكر التدريب في هيرات، ومتطرفو الزرقاوي معروفون لدى الأمن الإيراني. ويعرف "السافاك" أيضاً أن جماعة الزرقاوي تراقب طريق مشهد، في إيران، وتستخدمه في نقل المجاهدين إلى كردستان العراق...

أنجز الزرقاوي آخر تفاصيل هروبه. وحوّل 40000 دولار إلى ألمانيا لشراء جوازات السفر المزوّرة اللازمة لعبور الحدود.

كشف التنصت الهاتفي من جانب الشرطة الألمانية عن وجه جديد للزرقاوي. إن حديثه قد لان على نحو واضح تجاه أولئك الذين يؤمّنون له بقاءه. إنه يحاول فعلاً أن يجعل من نفسه "حبيباً".

بمساعدة بعض أتباعه، سافر الزرقاوي إلى إيران في 12 كانون الأول من العام 2001. بعد انقضاء أسبوع، عبر الحدود الجنوبية وتوقف في زهدان[1]. واتصل هاتفياً بألمانيا ليخبر أتباعه بأن الأمور تجري على ما يرام. وبعد توقف استراحة وحسب، تابع الزرقاوي سفره إلى طهران. وبعد مرور عدّة أيام، وفي 5 كانون الثاني من العام 2002، وصل إلى مشهد، في إيران.

وسرعان ما اهتمّت بأمره مجموعة أنصاره، التي اصطحبته إلى طبيب. وتعافى الزرقاوي بسرعة. وأكّد اعتباراً من منتصف كانون الثاني من العام 2002، خلال محادثاته مع أبي علي، مسؤول خلية "التوحيد" في ألمانيا، أنه قد "تعافى".

أقام الزرقاوي في إيران لغاية 4 نيسان من العام 2002. واستخدم خط الهاتف الثابت في طهران العائد لشخص يدعى رشيد هارون. واستخدم أيضاً هواتف تعمل عبر أقمار صناعية وهواتف خلوية، واحتاط لمسح كل أثر من مكالماته.

(1) المصدر السابق.

وشـــعر أنه مراقب، وخطواته مرصودة. وأطلع على مخاوفه "إخوانه" الألمان، بينما يتنصّت BKA لمحادثاته. أوضح الزرقاوي أن كثيراً من أتباعه مدرجون على قوائم المشتبه بهم، ويخشى على وضعه.

في العاشـــر مـــن كانون الثاني، أبلغ أبا علي، الذي كان ما يزال موجوداً في ألمانيا، بأنه بحاجة إلى هاتف خلوي جديد عربي، وأحذية ذات رباط خفيفة مقاس 42.5 وأحذيـــة عالية الساق مقاس 43، وسترة من الجلد طويلة الأكمام. ذلك أنه يتأهّب لاجتياز جبال كردستان العراق. على الصعيد المالي، تحسّن وضع الزرقاوي. ففي الثاني من نيسان من العام 2002، ذكر للخلية الألمانية أن "الله القادر على كل شـــيء أنعم عليه ببحبوحة مالية"[1]. لقد أصبح بوسع الزرقاوي من الآن أن يغطي مـــصاريف هـــروبه وأن يـــؤمّن لنفسه ثلاثين جواز سفر تمّ إرسالها من ألمانيا إلى طهران. إن جوازات السفر تلك مرصودة له ولأتباعه المقيمين مؤقتاً معه في إيران.

لكـــن في 23 نيسان من العام 2002، سقطت الخلية الألمانية. وفكّك BKA مجموعة "التوحيد" بأكملها.

إن الخلـــية الألمانـــية التي ساعدت الزرقاوي خلال هروبه عبر إيران تتمفصل حول أحد الرعايا العراقيين "ياسر حسان" (المعروف بمحمد أبو دهيس، أبو علي)، المولـــود في الأول من شباط عام 1966 في "حسميجا"، في العراق. وتتضمّن تلك الخلية أيضاً الأردني من أصل فلسطيني "أشرف الدغمة"، المولود في 28 نيسان عام 1969، والأردني إسماعـــيل شلبي، المولود في 27 أيلول عام 1976، والعراقي زيدان عماد عبد الهادي (المعروف بعماد)، المولود في "الحمزة" في العراق، والكويتي أسامة أحمـــد، المولـــود في 4 أيـــار عام 1974 في "حوالى"، في الكويت، والعراقي طاهر منـــصور (المعروف بعثمان) والمصري سيد عجمي مهلهل[2]، المولود في 25 شباط عام 1964 في القاهرة.

لقد حدّدت الشرطة الألمانية هوية مجموعة "التوحيد" في نفس وقت هجمات

(1) الدعوى القضائية الألمانية، قضية "التوحيد"، تحقيق BKA، 2002، وثائق المؤلف.

(2) ورد الاســـم في النص الفرنسي على هذا النحو: سيد عجمي مُهول، والأصح هو: سيد عجمي مهلهل. (المترجمة).

الحـــادي عشر من أيلول عام 2001، وذلك بالضبط قبل أن يهرب الزرقاوي إلى إيـــران. لقـــد التقـــى زعيم المجموعة، أبو علي، بالزرقاوي لدى مروره عبر إيران وتـــباحث معه حول التفصيل العملياتي لعدّة عمليات في أوروبا، وبخاصة في ألمانيا. وخلال هذا اللقاء، رفض الزرقاوي أن ينخرط أبو علي طوعاً في مهمة استشهادية في ألمانيا. فهو ما زال بحاجة إليه للبقاء في إيران...

قامت استراتيجية الزرقاوي والمقاتلين المحيطين به على الانقسام إلى مجموعتين، تمضيان، من إيران، في اتجاهين مختلفين. إن القسم الأكبر من الجماعة عليه الذهاب للقـــتال في جـــبال كردستان العراق إلى جانب "أنصار الإسلام". وعلى الآخرين الانضمام إلى "التوحيد"، للتحضير لهجمات ضد "أهداف يهودية" في ألمانيا. خلال محادثاتـــه مع أبي علي، التي عرض فيها الزرقاوي عليه مشاريعه، يقول إن "إخوانه" هم تحت مراقبة الأجهزة الإيرانية.

ما إن بدأ الزرقاوي في إعادة تنظيم جماعته في إيران حتى أوقفته أجهزة الأمن الإيـــرانية بصحبة "إخوانه". إن المعلومات التي رشحت حول ظروف هذا التوقيف شـــحيحة وكذلك حول السجن الذي أعقبه. لقد أكّد الحارس الشخصي السابق لأســـامة بـــن لادن، شـــادي عبد الله، أثناء التحقيق بخصوص الخلية الألمانية، أن الـــزرقاوي قد احتجز لفترة قصيرة في السجون الإيرانية[1]. وأشار شادي عبد الله، في هـــذه المناسبة، للشرطة الألمانية بأن الزرقاوي كان قد استفاد من حماية النظام الإيـــراني. ستتأكّد تلك المعلومات أثناء زيارة موظفين كبار أردنيين خلال صيف العام 2003 إلى إيران. في تلك المناسبة، حصلت السلطات الأردنية، في الواقع، على تأكـــيد بأن الزرقاوي قد اعتقل في السجون الإيرانية خلال ربيع العام 2002. وأن اعـــتقاله قـــد تمّ بسبب جواز سفره المزوّر. لقد نسّق الزرقاوي وموّل كما ذكرنا سابقاً من سوريا اغتيال الدبلوماسي الأميركي لورنس فولي في الأردن.

في العـــام 2002، حذّرت السلطات الأميركية النظام الإيراني بسبب سياسته الـــتي تراها بالغة التساهل إزاء أعضاء القاعدة الهاربين: فعلى غرار الزرقاوي، وجد عـــددٌ كبيرٌ من المجاهدين وقتذاك ملجأً مؤقتاً في إيران. ولتظهر إيران بمظهر لائق،

(1) الدعوى القضائية الألمانية، قضية "التوحيد"، شهادة شادي عبد الله، 2002، وثائق المؤلف.

قامــت بطرد عدّة أعضاء يفترض أنهم من القاعدة، ومن بينهم عمر جميل الخلايله، ابــن أخ أبي مصعب الزرقاوي. وحدث هذا الطرد بعد موجة اعتقالات قامت بها الشرطة الإيرانية في شباط وآذار من العام 2002، وهي الفترة التي تمّ خلالها توقيف الــزرقاوي نفــسه. وتمّ اعــتقال حوالى 150 عضواً من القاعدة وقتذاك، ومنهم، حسب عدّة مصادر، المصري سيف العدل، عقيد سابق في القوات الخاصة المصرية، وذو مركــز هام في القاعدة. وكان يوجد أيضاً في إيران ابن أسامة بن لادن، سعد بن لادن. لقد سعت المملكة العربية السعودية مراراً إنما دون جدوى، وراء استرداد رعاياها المطلوبين.

بعد بضعة أسابيع من اعتقاله، خرج الزرقاوي من السجون الإيرانية. وما إن تمّ تحريــره، حتى سافر إلى سوريا عن طريق العراق. ويُشار إلى أنه تواجد في بغداد في أيار من العام 2002، حيث تطبَّب في مستشفى "أوليمبيك". وبحسب معلومات الحكومة الأميركية، فإن الزرقاوي ظلّ حوالى شهرين تقريباً في بغداد قبل الذهاب إلى سوريا.

وعلى حدّ زعم الوثائق القضائية التي أثبتتها السلطات الأردنية في إطار قضية فــولي، فإن وجود الزرقاوي في سوريا قد حُدِّد من شهر أيار إلى شهر أيلول عام 2002، حيــنما كان يُحضّر مع فريقه لاغتيال لورنس فولي، في 28 تشرين الأول عــام 2002. إن أحد أجهزة المخابرات الأوروبية كان عليه أن يحقّق حول سلسلة اتــصالات هاتفــية أجــراها الزرقاوي مع أوروبا ستثبت وجود الزرقاوي على الأراضي السورية خلال صيف العام 2002.

أثــناء إقامــته في سوريا، رتّب الزرقاوي شخصياً آخر تفاصيل الاغتيال وذهــب خلسة إلى الأراضي الأردنية، رغم أنه محكوم بخمسة عشر عاماً سجناً لمــشاركته في مؤامــرة الألفية. في معرض حديث سري قالت زوجة الزرقاوي الأولى، أم محمد، أنها التقت ذات يوم بزوجها، في منــزل قاتل لورنس فولي.

لقد تميّز المرور السريع للزرقاوي على الأرض العراقية عام 2002 ببداية حقبة جديدة، حقبة الحرب العراقية. إن مداخلة وزير الخارجية الأميركي، كولين باول، أمــام مجلــس أمــن الأمم المتحدة، بتاريخ 5 شباط من العام 2003، جعلت من

الـــزرقاوي الحلقة المفقودة بين القاعدة ونظام صدام حسين. لكن تلك المعلومات تخلّلـــتها أخطاء فعلية[1]. فوزير الخارجية أظهره على أنه فلسطيني، والزرقاوي في الواقـــع أردني. واعتـــبره موجوداً في العراق بدعوة من صدام حسين، بينما كان موجـــوداً في سوريا في ذلك الوقت. لكن الأمر الصحيح هو أن التهديد الذي يمثّله خطير، وهذا ما سيثبته تعاقب الأحداث.

إن تكرار عملياته على الأرض العراقية وفي كافة الشرق الأوسط جعل منه من الآن فـــصاعداً الشخص الأكثر بحثاً عنه في العالم، على قدم المساواة مع أسامة بن لادن[2].

(1) خطاب كولين باول أمام مجلس أمن منظمة الأمم المتحدة، 5 شباط من العام 2003.

(2) إن الحكومة الأميركية ستعرض، في الأول من تموز من العام 2004، الجائزة نفسها للقبض على أسامة بن لادن وأبي مصعب الزرقاوي، وهي 25 مليون دولار.

القسم الثالث

عراق الزرقاوي

اشحذوا سيوفكم واحرقوا الأرض تحت أقدام الغزاة!

رسالة أبي مصعب الزرقاوي

6 نيسان 2004

الفصل الأول

الإرهاب في العراق
من الأسطورة إلى الحقيقة

"يـــأوي العراق اليوم شبكة يتزعّمها أبو مصعب الزرقاوي، مساعد ومعاون أسامة بن لادن"[1]. بهذه الكلمات، أراد كولين باول، أثناء خطاب اتهام ألقاه أمام مجلس أمن الأمم المتحدة في 5 شباط من العام 2003، إثبات وجود علاقات وطيدة بين العراق وتنظيم أسامة بن لادن وتبرير عمل عسكري ضد نظام صدام حسين. إن الوجـــود المفترض للزرقاوي على الأراضي العراقية كان يشكّل وقتذاك عنصراً جوهرياً في الحجج الأميركية.

هكـــذا طفا إلى السطح ثانية الاعتقاد القديم بإرهاب الدولة. في العام 2002، صرّح مدير وكالة الاستخبارات الأميركية CIA جورج تينت عندما استجوبته لجنة القـــوات المـــسلحة في مجلـــس الشيوخ الأميركي الأميركية، بأنه "قد يكون خطأً جسيماً استبعاد فرضية إرهاب الدولة، الإيرانية أو العراقية"[2] خلال التحقيق حول هجمـــات 11 أيلول. إن هذا الكلام يدلّ على نقص بصيرة لدى البعض في وكالة الاســـتخبارات، اللـــهم إن لم يكن يستخدم، في الحقيقة، كتبرير سياسي للهجوم الأميركي.

ذلـــك أن أسامة بن لادن جسّد تماماً نقيض إرهاب الدولة، وهو الذي تحرّر مـــنذ ســـنوات من الحدود الدولية. إن هذا التحليل ستدافع عنه وكالة المخابرات الأميركـــية نفسها بعد عدّة شهور من تصريح تينت: ففي أيلول من العام 2002،

(1) "النقاط الرئيسة في خطاب كولين باول"، وكالة الأنباء الفرنسية AFP، 5 شباط من العام 2003.

(2) مداخلـــة جـــورج تينت، مدير CIA، أمام لجنة القوات المسلحة في مجلس الشيوخ الأميركي، كونغرس الولايات المتحدة، 19 آذار 2002.

وفي تقرير بعنوان "الدعم العراقي للإرهاب"، أشارت الوكالة، إلى أنه وبحسب قائد في القاعدة، أبو زبيدة، فقد يكون من "أبعد الاحتمالات" أن يكون أسامة بن لادن قد عقد تحالفاً مع العراق[1]. إن خالد شيخ محمد، الذي خطّط لهجمات 11 أيلول، أدلى بنفس الإجابة بعد اعتقاله. لم يتوقّف أسامة بن لادن عند معارضة إيديولوجية وحسب. بل إنه خلال التسعينيات، أصدر فتوى دعا فيها إلى التمرّد ضد صدام حسين وأبدى أمانيه في اغتياله[2].

إن أحدث التحقيقات والدعاوى القضائية التي أطلقها العالم ضد شبكات القاعدة تظهر أن أسامة بن لادن وصدام حسين لم يبرما قطّ تحالف وسائل وأهداف بغرض شنّ كفاح... مشترك. إذاً إن الفكرة القائلة بأن القاعدة قد تكون تعبيراً عن إرهاب الدولة العراقية هي فكرة خاطئة. وبالمقابل، فإن تلك التحقيقات تظهر بوضوح أن التنافر الإيديولوجي والديني الذي يواجه الطرفين قد تلطّف غالباً أمام منطق المصالح المشتركة.

إن تلك العلاقات هي في البداية علاقات قائمة بين أشخاص. ومن المعلوم أنه وبمبادرة من زعيم القاعدة (لاحقاً) تمّ مراراً تنظيم لقاءات تتبع مخططاً واحداً، فقد التقى عدّة سفراء عراقيين على التوالي بأسامة بن لادن، وكذلك بأعضاء ناشطين في شبكته.

إن أولى الاتصالات جرت في السودان عامي 1991 و1996. وبحسب المدير السابق للبرنامج النووي العراقي، خضير حمزة، فقد قام أسامة بن لادن في تلك السنوات بزيارات متكررة للسفارة العراقية في الخرطوم[3]. وفي كانون الأول من العام 1998، وبحسب المصدر نفسه، فإنه التقى بفاروق حجازي، سفير العراق في

(1) تقرير لجنة الاستخبارات المختارة في مجلس الشيوخ الأميركي عن التقديرات الاستخباراتية لأجهزة المخابرات الأميركية قبيل الحرب على العراق، 7 تموز من العام 2004.

(2) شهادة دزكالار دو مازاتيدو المدير السابق للمركز القومي للمخابرات الإسبانية، لجنة التحقيق حول اعتداءات 11 آذار 2004، مجلس النواب الإسباني، 19 تموز من العام 2004، وثائق الكاتب.

(3) شهادة الدكتور خضير حمزة، في جلسة استماع لتفحص التهديدات وردود الفعل والاعتبارات الإقليمية المحيطة بالعراق، أمام لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ الأميركي. 31 تموز والأول من آب من العام 2002.

تركيا والرئيس السابق للعمليات الخاصة في المخابرات العراقية. هذه المحادثة جرت في قندهار، في أفغانستان. وبعد هجمات 11 أيلول 2001، تمّ إبعاد الدبلوماسي من تركيا بسبب تقرّبه من الجماعات...[1]. وبحسب "فنسنت كانيسترارو"، المسؤول السابق عن مكافحة الإرهاب في CIA، فإن تلك المعلومات قد أكّدها "تقارير عديدة من أجهزة المخابرات". إن المحيطين بأسامة بن لادن هم أنفسهم من أذاع تلك المعلومات[2].

بالإضافة لما سبق، فإن كثيراً من الاتصالات قد جرت بين مبعوثين عراقيين وأعضاء ناشطين في القاعدة، مثل محمد عطا، الذي ثبت من الآن فصاعداً أنه التقى مع دبلوماسي عراقي في جمهورية تشيكيا في نيسان من العام 2001. إن القائد العملياتي لمنفذي الحادي عشر من أيلول ذهب على الأقل مرتين إلى براغ. وبحسب إدارة الهجرة والتجنيس الأميركية (INS)، عندما دخل محمد عطا للمرة الأولى الولايات المتحدة، في 3 حزيران من العام 2000، نزل في مطار "نيوآرك"، في نيوجيرسي، من طائرة قادمة من براغ[3].

في 8 نيسان من العام 2001، كان لدى عطا موعد في السفارة العراقية في براغ مع أحمد خليل إبراهيم سمير العاني، القنصل الثاني، الذي ينتمي أيضاً إلى المخابرات العراقية الخارجية. إن الممثل الدائم لجمهورية تشيكيا في الأمم المتحدة، هينيك كمونيسيك، ووزير الداخلية التشيكية، ستانيسلاف غروس، سيؤكدان هذا الخبر[4]. وفي 19 نيسان من العام 2001، اعتُبر الدبلوماسي العراقي "شخصاً غير مرغوب فيه بسبب نشاطات تتعارض مع وضعه كدبلوماسي"، حيث أبعدته السلطات التشيكية بعد أسبوع[5].

---

(1) المصدر السابق.

(2) "الإذاعة الوطنية العامة"، 18 شباط من العام 1999.

(3) "اتصالات (إدارة الهجرة والتجنيس) مع اثنين من إرهابيي 11 أيلول"، مكتب المفتش العام، التابع (لدائرة العدل) في الولايات المتحدة، 20 أيار من العام 2002.

(4) "مبعوث الأمم المتحدة يؤكد حدوث لقاء مع إرهابيين، صحيفة"براغ بوست"، 5 حزيران من العام 2002.

(5) Associated Press, 26 avril 2001. وكالة أسوشيتدبرس، 26 نيسان من العام 2001.

فـــضلاً عـــن ذلك، فقد أثبتت لجنة التحقيق المتصلة بالكونغرس في الولايات المـــتحدة حـــول هجمات 11 أيلول 2001 أنه في شباط 1999 "حصلت وحدة الاستخبارات على معلومات تقول بأن العراق كان قد درّب طياراً في سبيل مهمة انتحارية ضد القوات البريطانية والأميركية في الخليج العربي"[1] خلال حرب العراق الأولى، طريقة تذكّر بـــأسلوب عمليات (operandi modus) هجمات 11 أيلول 2001.

وكـــشفت عناصر أخرى - بالرغم من أنها غير ذات قيمة نهائية كبيرة - عن علاقـــات عرضية بين بعض أعضاء القاعدة وموظفين كبار عراقيين. وهكذا، فإن خوسيه لويس غالان غونـــزاليس، المعروف بيوسف غالان، عضو شبكة بن لادن في إســـبانيا، تلقّـــى في منـــزله، في 26 حزيران من العام 2001، دعوة من السفير العراقي في مدريد للاحتفال بالذكرى السنوية للثورة العراقية في 17 تموز من العام 2001[2]. إن يوســـف غـــالان[3] هـــو أحد أعضاء القاعدة القلائل ذوي الأصل الإســـباني ولقـــد اســـتجوب بعـــد 11 أيلـــول 2001 في إطـــار تحقيق القاضي بالتـــسار غارزون حول القاعدة. وقد عاد اسمه إلى مسرح الأحداث بعد هجمات 11 آذار 2004. إن يوسف غالان وقبل أن يعتنق الإسلام ويلتحق بمعسكر تدريب عـــسكري في إندونيـــسيا، كان في الواقع ينتمي لحين من الوقت إلى منظمة "إيتا" (ETA) Euskadi Ta Askatasuna الباسكية.

إن الـــتقاء المـــصالح الأكثر وضوحاً بين القاعدة والعراق يظهر عندما نعكف علـــى الشبكة الاقتصادية والمالية التي أنشأها أسامة بن لادن عندما كان مقيماً في الـــسودان في العام 1991، بترحيب من الزعيم الديني حسن الترابي. لقد شجّعت

(1) شهادة أليانور هيل، مديرة لجنة التحقيق المشتركة، في جلسة استماع حول فشل الطوارئ 911، أمـــام لجنة مشتركة من مجلس الشيوخ للاستخبارات ومجلس النواب، 18 أيلول عام 2002.

(2) الدعـــوى الإســـبانية ذات الـــرقم 35/2001، المتعلقة بنشاطات القاعدة في إسبانيا، وثائق الكاتب.

(3) تمّ توقـــيف يوسف غالان في نيسان عام 2002 في إسبانيا، ومنذ كانون الأول عام 2004، هو في حبس احتياطي.

الـــصناعة الكـــيماوية، بشكل خاص، هذا التقارب، حيث كان العراق في ذلك الوقت، يتعاون مع السودان لتطوير ترسانته، ويحاول الاستفادة من وجود منظمات مماثلـــة للقاعدة في ذلك البلد. وقد أدلى أعضاءٌ سابقون في القاعدة بشهاداهم عام 2001 أثـــناء محاكمـــة المـــسؤولين عـــن هجمات 1998 الموجّهة ضد السفارتين الأميركيتين في دار السلام ونيروبي، وكشفوا أن بعض المشاريع التي يمتلكها أسامة بـــن لادن كانـــت آنذاك بإدارة عراقيين، وتستخدم موظفين جاؤوا من العراق. وهكذا، فإن العديد من المهندسين العراقيين كانوا يعملون حتى العام 1998 لصالح شـــركة بـــناء "الهجرة"، التي يمتلكها أسامة بن لادن. وخلال المحاكمة نفسها، تمّ الكـــشف عـــن أن المـــسؤول عن الشركة كان مهندساً عراقياً، وهو أبو إبراهيم العراقـــي[1]، وما لا يقل عن تسعة عراقيين آخرين تمّ تحديدهم كأعضاء ينضوون تحت جناح القاعدة في السودان.

علـــى نحـــو موازٍ، تعدّدت الاتصالات بين مدراء مصنع الإنتاج الكيماوي "الـــشفاء"، الذي يملكه أيضاً بن لادن، وبين مسؤول عراقي عن برنامج الأسلحة الكيماوية، وأيضاً مع عماد العاني، أحد مدراء الشركة العراقية: "Samarra Drug Industries"، الـــذي وبحسب الأميركيين، ساهم في تطوير الأسلحة الكيماوية[2]. في ذلك الوقت، تمّ العثور أيضاً على آثار أحد مكونات غاز" في إكس"[3]، حيث إن العـــراق هو الذي استخدم صيغته دون سواه، وذلك في عينة أخذها CIA من مصنع الشفاء.

وقـــتها أشـــارت مصادر أميركية "أنه بالرغم من نفي وإنكار السودان، فإن الأدلة التي تورّط معمل الشفاء في تصنيع الأسلحة الكيماوية واضحة ومفحمة"[4]

(1) الولايات المتحدة في مواجهة أسامة بن لادن، النسخة المدوّنة لحوار المحاكمة، 26 شباط من العام 2001، شهادة الحسين خرشتو.

(2) صحيفة نيويورك تايمز، 4 تشرين الأول من العام 1998.

(3) غاز الأعصاب. (المترجمة).

(4) ملاحظـــات مـــن مـــوظفين تـــابعين لوزيـــر الخارجية إلى قسم الشؤون السياسية في "معهد الـــشرق الأوســـط"، في العاصـــمة واشـــنطن "مراسلات وزارة الخارجية الأميركية"، تشرين الثاني 1998.

وأنها كانت تمتلك معلومات حول "التمس السودان المساعدة من بلاد أخرى لتطوير قدراته في الأسلحة الكيماوية، وخصوصاً من العراق"[1]. وأخيراً هدمت القوات الأميركية المصنع، في 20 آب من العام 1998، في إطار عمليات انتقام شنّت عقب الهجمات على سفارتي أميركا في نيروبي ودار السلام[2]. (اعترفت الولايات المتحدة لاحقاً بخطأ استخباراتها وقامت بتعويض للمصنع - الناشر).

علاوة على ذلك، تشارك العراق والقاعدة نفس العداء تجاه الولايات المتحدة. في إعلانه الحرب على الولايات المتحدة والغرب بتاريخ 23 آب عام 1996، بعنوان "رسالة أسامة بن لادن إلى إخوانه المسلمين في العالم وخاصة في شبه الجزيرة العربية"، التزم زعيم القاعدة صراحة بالوقوف إلى جانب الشعب العراقي: "إن أطفال العراق أطفالنا [...] ودمنا يسيل في العراق"[3]. كذلك، وفي مقابلة جرت في العام 1996، صرّح أسامة بن لادن أن "قتل أطفال المدارس العراقيين أمر تستسيغه الحرب الصليبية على الإسلام"[4]. وأكّد في السنة نفسها، أن شبكته أصبحت تغطي ثلاثة عشر بلداً، منها العراق[5].

إضافة إلى ذلك، وفي 13 شباط من العام 2001، وخلال محاكمة مرتكبي الاعتداءات ضد سفارتي أميركا في أفريقيا، أدلى عضو سابق في القاعدة بشهادة ألقى الضوء فيها على موقف الجماعة تجاه العراق. فعندما سأله ممثّل الاتهام إن كانت القاعدة ترى أنه إن تمّ قتل عدد كاف من الأميركيين، فإن الولايات المتحدة قد تتوقّف عن قصف العراق، أجاب: "أجل، تلك هي قناعة القاعدة"[6].

(1) تصريح جيمس فولي، "المتحدث في الخارجية الأميركية"، وكالة أسوشيتد برس، 26 آب من العام 1998.
(2) مؤتمر صحفي لساندي بيرغر، مستشار الأمن القومي. 26 شباط من العام 1999.
(3) إعلان أسامة بن لادن الحرب، 23 آب من العام 1996.
(4) مقابلة روبرت فيسك، صحيفة الإندبيندت، 6 كانون الأول من العام 1996.
(5) صحيفة ساندي تايمز، 16 أيلول من العام 2001.
(6) الولايات المتحدة في مواجهة أسامة بن لادن، النسخة المدونة لحوار المحاكمة، 13 شباط من العام 2001، شهادة جمال أحمد محمد الفضل.

علاوة على ذلك استطاعت بعض التصريحات في الجانب العراقي، أن تحمل على الاعتقاد بأن نظام صدام حسين لم يكن بعيداً عن هجمات 11 أيلول 2001. وهكذا، وفي 11 أيلول، علّقت القناة التلفزيونية الرسمية بالعبارات التالية على الاعتداءات ضد "مركز التجارة الدولي" و"البنتاغون" قائلة: "إن راعي البقر الأميركي يحصد ثمار جرائمه ضد الإنسانية. إنه يوم كريه في تاريخ الولايات المتحدة، التي تتذوّق مرّ إخفاق جرائمها ورفضها لإرادة الشعوب في العيش حياة حرة ولائقة. إن الهجمات الجماعية في مركز السلطة الأميركية، وخاصة في البنتاغون، هي ضربة مؤلمة موجّهة للسياسيين الأميركيين ليكفّوا عن هيمنتهم غير الشرعية وعن محاولاتهم فرض أنظمتهم على الشعوب. إنها ليست مصادفة أن يتمّ هدم "مركز التجارة العالمي" خلال هجمات [...]. إن تلك الأحداث هي ثمار النظام الأميركي الجديد"[1].

ووراء الخطابات، هناك حدث لم تتمّ مناقشته منذ نهاية العام 2001: لقد ظهر العراق كمنطقة انسحاب استراتيجي بالنسبة لمقاتلي القاعدة المطاردين في أفغانستان، وذلك قبل أن يصبح قاعدة عملياتية بعد قلب نظام حكم الرئيس صدام.

إن الإضاءة الأكثر إزعاجاً حول تلك العلاقات الحديثة بين العراق والقاعدة تأتي من منظمتين إسلاميتين كرديتين جند الإسلام وأنصار الإسلام (الثانية خلفت الأولى). وقد أكّد ذلك تصريحات زعيم أنصار الإسلام الأول، الملا كريكار، اللاجئ، كما ذكرنا، في النروج، والذي كان قد صرّح، في العام 2002، معتبراً بن لادن "رأس الإسلام". دون حساب للدور الذي يلعبه في هذه الحركة عضو القاعدة النشيط جداً: أبو مصعب الزرقاوي.

إن التفحص الدقيق للعلاقات بين العراق والقاعدة يكشف بالتأكيد عن أكثر من مجرد اتصالات عرضية. إن هذين الممثلين على المسرح الشرق أوسطي، علاوة على عدائهما المشترك للولايات المتحدة، استطاعا أن يجعلا مصالحهما

(1) شهادة قدّمها الدكتور أماتزيا بارام، أمام الكونغرس الأميركي، 24 أيلول من العام 2002 (مترجمة عن FBIS).

تلتقـــي بدقـــة. لكن تلك الأحداث، ونكرر ذلك، إن هي استطاعت تشكيل بـــواعث قلـــق خطرة بالنسبة للمجتمع الدولي، فإنها لا تثبت أي تحالف بنيوي ومستمر بين المعسكرين.

الفصل الثاني

طالبان في كردستان

بعـــد قلب نظام حكم طالبان، أدرك حامي القاعدة الأول، أسامة بن لادن وكبار عسكرييه أنه لن يكون بوسعهم لوقت طويل مقاومة عملية عسكرية بتلك الـــضخامة، فشرعوا في إعادة بناء شبكتهم خارج أفغانستان. إضافة إلى باكستان، منطقة نفوذ المجاهدين العرب القادمين للقتال في أفغانستان خلال عقد الثمانينيات، فرضت كردستان العراق نفسها كقاعدة خلفية قابلة لأن تشكّل جبهة ثانية بالنسبة لمقاتلي القاعدة.

تتجزأ الحركات الإسلامية في كردستان، حيث مزّقتها خلافات الزعماء منذ عقـــود عـــدّة. وتعود بداية تاريخ الحركة الإسلامية في كردستان إلى العام 1924، عـــندما غزت تلك الأراضي جيوش مصطفى كمال أتاتورك. لقد شجّعت إرادة الحفاظ على الجذور الإسلامية لكردستان على ظهور منظمات ضعيفة التنظيم بتأثير من الإخوان المسلمين وذلك بدءاً من العام 1952. لقد تأصّلت الحركة السلفية في المـــنطقة في نهايـــة الستينيات، بدعم من أموال المؤيدين. لكن في نهاية السبعينيات فقـــط، تـــشكّل فعـــلاً تيار المجاهدين السلفيين، وقد شجّعه في ذلك حظر حركة الإخوان المسلمين عام 1971[1].

إن الحياة السياسية في كردستان تنتظم حول حركتين تلهم الأولى إيران، بينما تلـــهم الثانية تركيا، وتأسّست الحركتان في الستينيات: فهنالك الحزب الديمقراطي الكردســـتاني (PDK)، الـــذي أنشأه عام 1961 الملا مصطفى البرازاني، وهو والد زعـــيمه الحالي مسعود البرازاني، الذي تدعمه تركيا، والاتحاد الوطني الكردستاني

(1) "أنـــصار الإســـلام، جـــيش أنصار السنة، أبو مصعب الزرقاوي، ألوية أبي حفص"، البصرة، 14 آذار من العام 2004.

(UPK)، بزعامة جلال طالباني، والذي تدعمه إيران وتأسّس في العام 1965.

استفاد قسم من كردستان من نظام الحكم الذاتي منذ القانون العراقي الصادر في العام 1974 والذي أنشأ المجلس التشريعي الكردستاني العراقي. في العام 1991، وعقب حرب الخليج الأولى، تمّ إيجاد "منطقة حماية" للأكراد، لتوفّر حالة شبه استقلال لتلك المنطقة، التي تتمتّع بحكومة مستقلة ذاتياً.

في السبعينيات، وجدت المنطقة نفسها مبلبلة بحدثين عظيمين: الثورة الإيرانية واحتلال القوات السوفياتية لأفغانستان. وفي هذا السياق، ولدت أول جماعة إسلامية مسلحة كردستانية في العام 1980 باسم الجيش الإسلامي الكردستاني، ثم ولدت الجماعة الثانية، جمعية الجهاد الإسلامي. لقد اندمجت الجماعتان في العام 1987 في الحركة الحركة الإسلامية في كردستان العراق، التي يتزعّمها عراقي، وهو عثمان عبد العزيز. عرفت تلك الحركة العديد من الانشقاقات، وبخاصة انشقاق جماعة النهضة، في العام 1992، أو انشقاق الاتحاد الإسلامي، الملهم من الإخوان المسلمين عام 1994.

في العام 1999، وحّد عثمان عبد العزيز النفوذ الإسلامي الكردي في منظمة جديدة، هي حركة الوحدة الإسلامية. لكن إصلاح ذات البين ذاك الذي أجراه في مناطق النفوذ الإسلامي لم يستمرّ إلا عامين. منذ بداية العام 2001 برزت عدّة جماعات منشقة. كان بعضها بتأثير ودعم من الدول الأجنبية. وهكذا أُنشئت جماعة التوحيد الإسلامي في نيسان من العام 2001، ثم انشقت جماعة قوات سوران خلال صيف 2001.

وقتذاك تدخّل أبو مصعب الزرقاوي. فبعد أن رأى نفسه وقد عهد إليه أسامة بن لادن بمسؤولية معسكر هيرات عام 2000، فقد عمل على تجهيز - كما ذكرنا - سلسلة من الهجرات ليستقدم إليه متطوعين أردنيين. إن تلك السلسلة مرّت عبر العراق وإيران، وبخاصة عبر "مشهد"، في شرق إيران. وهكذا سرعان ما فرض نفسه وسيطاً حتمياً في المنطقة.

في العام 2003، حدث أمر أوضح أصل التحالف الذي عقده الزرقاوي مع الجماعات الإسلامية في كردستان. فقد اعتقل الأميركيون في كردستان العراق،

أردنيـــاً عمـــره 34 سنة، وهو عضو في شبكة الزرقاوي. وبعد تسليمه لسلطات بلاده، باح أحمد محمود صالح الرياتي بمعلومات هامة لدائرة المخابرات العامة الأردنية GID. لقـــد أتاحت المعلومات التي باح بها الرياتي، إثبات أن الزرقاوي وبدءاً من نهايـــة العـــام 1999، كان قد اقترح على الكثير من المؤيدين القادمين من الأردن، والـــذين في غالبيتهم، كانوا ينتمون إلى جماعتي جيش محمد وبيعة الإمام، وكذلك علـــى عراقيين موالين للملا كريكار، أن يتدرّبوا في معسكرات تدريب القاعدة في أفغانـــستان. وهكذا، وبعد بضعة أشهر، شُكّلت جماعة عالمية مكونة من عراقيين، وأردنـــيين، ومقـــاتلين أفغـــان وشيـــشان يعيشون بين كردستان العراق، وإيران وأفغانستان. وكانت أعمار أعضاء تلك الشبكة تتراوح بين 17 و43 عاماً[1]. ولم تكـــن تلـــك الشبكة تتمتّع فقط بدعم القاعدة اللوجستي والمالي وبقاعدة إقليمية يقدمها إسلاميو كردستان، وإنما أيضاً سرعان ما استفادت من شبكات الدعم التي كان يشرف عليها الزرقاوي والممتدة إلى أوروبا. على أي حال، في شهر تموز من العـــام 2001، ذهـــبت مئات عدّة من الإسلاميين الأكراد إلى أفغانستان وتدربت عـــسكرياً في معسكر يشرف عليه الزرقاوي، في هيرات، غير البعيدة عن الحدود الإيرانية.

انعقـــد اجـــتماع حاســـم في شهر آب من العام 2001 في طهران بين كبار عسكريي الزرقاوي. كان هنالك الرياتي، وخالد العاروري، وعبد الهادي دغلس، ورافقهم إسلاميون عراقيون قريبون من الملا كريكار. وكان العاروري ودغلس قد بـــدأا العمل إلى جانب الزرقاوي في الأردن، حيث حُكم فيه عليهما، مع قائدهما، في إطار قضية بيعة الإمام، عام 1996.

اتفقـــوا آنذاك، باسم الزرقاوي، على تأسيس قاعدتهم في كردستان على نحو دائم، وعلى فتح معسكراتهم التدريبية في هذه المنطقة، وذلك لتسهيل عودة العرب الأفغان، وكذلك لتجنيد أردنيين. وكانوا يريدون أيضاً تدريب أعضاء من الشبكة على استخدام أسلحة كيماوية وجرثومية.

(1) "الأردن يكشف عن جماعة أنصار الإسلام المرتبطة بالقاعدة"، صحيفة الرأي الأردنية، 13 أيلول من العام 2003.

لقد أسّس أبو عبد الله الشافعي واسمه الحقيقي وريا صالح عبد الله وهو مقاتل عراقي سابق في أفغانستان والشيشان جند الإسلام في الأول من أيلول من العام 2001 في منطقة الطويلة في العراق. لكن تأسيس هذه الجماعة من المقاتلين لا يدين بشيء للصدفة. فقد كان الشافعي قد تلقّى موافقة أسامة بن لادن نفسه، بحسب نشرة من المنظمة بتاريخ أيلول عام 2001.

نشأت جند الإسلام من دمج جماعتين إسلاميتين في كردستان، وكلتاهما تحدّرتا من الحركة الإسلامية في كردستان العراق، جماعة التوحيد، منظمة أسسها الشافعي، وقوات سوران التوحيد (أو توحيد جميع المؤمنين)، التي كانت معروفة إلى ذلك الحين كمنظمة ذات أصل سنّي أردني موجودة في فلسطين.

في ذلك الوقت تلقّت جند الإسلام 300000 دولار من أسامة بن لادن(1). وتمّ نقل النقود إلى المنظمة بواسطة عضوين في القاعدة كانا يقيمان في ذلك الوقت في لندن، أبو مصعب السوري وأبو بصير، والاسم الحقيقي لأبي بصير هو الشيخ عبد المنعم مصطفى أبو حليمة. لقد نشر هذا الأردني عدّة مؤلفات، أصبحت مصدراً شرعياً من الطراز الأول بالنسبة للأصوليين، مثل "*حكم استحلال أموال المشركين*" (2)، و"*قواعد في التكفير والصنم*". وهو أيضاً مؤلف "*الأجوبة الحسان على أسئلة غرباء كردستان*"(3).

إن أبا بصير، هو أحد المنظرين الرئيسيين لثقافة الجهاد، مع الشيخين السنيين المقدسي وأبي قتادة. فهم يكوّنون معاً مرجعاً دينياً للحركات الأصولية الرئيسية في العالم.

أما الوسيط الآخر فهو ليس شخصاً مجهولاً. إنه أبو مصعب السوري، واسمه

(1) "أنباء صحفية تقول إن أسامة بن لادن قد أنشأ جماعة جند الإسلام في كردستان العراق"، صحيفة الشرق الأوسط، 28 أيلول من العام 2001.

(2) العنوان الكامل لهذا الكتاب هو "حكم استحلال أموال المشركين لمن دخل في أمانهم وعهدهم من المسلمين". (المترجمة).

(3) "أنباء صحفية تقول إن أسامة بن لادن قد أنشأ جماعة جند الإسلام في كردستان العراق"، صحيفة الشرق الأوسط، 28 أيلول من العام 2001.

الحقيقـــي مصطفى ست مريم نصر، ولد في العام 1958 في حلب، في سوريا. وهو الذي يحمل الجنسية الإسبانية. ظلّ أبو مصعب السوري في إسبانيا لسنوات عديدة حـــيث باشـــر اتصالات منتظمة مع أعضاء خلية محلية من القاعدة، يتزعّمها أبو الدحـــداح، وهو مدير تحرير سابق للأنصار مجلة GIA[1]، وعضو جماعة الإخوان المـــسلمين، في العـــام 1995 أقـــام في لندن، حيث أصبح معاوناً لأبي قتادة، وهو شخصية بارزة أخرى سبق أن تقاطعت مع القاعدة وشبكات الزرقاوي. وفي العام 1997، اســـتقرّ مع عائلته في أفغانستان، حيث أدار معسكر تدريب يشرف عليه أســـامة بـــن لادن. وقد فوَّضه أسامة بن لادن آنذاك جمع المعلومات المتوفرة حول اليورانـــيوم المخـــصَّب، والحـــصول على عينات منه[2]. وبحسب الاستخبارات الإســـبانية، فقد زار السوري أحد أعضاء خلية هامبورغ في العام 1996. والتقى أسامة بن لادن بصحبة محمد بهية، ناقل البريد الأساسي في المنظمة في إسبانيا وصهر أحـــد مسؤوليها. وبحسب الاستخبارات الإيطالية، فإن أبا مصعب السوري ذهب إلى العـــراق بعـــد سقوط نظام طالبان في أفغانستان، وشارك منذ ذلك الوقت في "المقاومة" إلى جانب أبي مصعب الزرقاوي[3].

لقد تلقت صحيفة الشرق الأوسط العربية الصادرة في لندن أول بلاغ لمنظمة جند الإسلام في 10 أيلول من العام 2001. حيث أعلنت فيه أنها "كرّست نفسها مـــنذ ســـنوات للـــتدريب العسكري" وأن "الوقت قد حان لإعلان الجهاد ضد الجماعـــات والأحزاب الموجودة في كردستان العراق ومحاربتها للاطمئنان على أنها لا تستولي على مناطق تحت سيطرة إسلامية"، وأضاف البلاغ أن الجماعة اتصلت "بالعديد من الشخصيات الإسلامية في الخارج قبل إعلان الجهاد"[4].

تأسّست منظمة جند الإسلام في كردستان، حول قريتي الطويلة وبيارة، وهي

(1) GIA، أي "الجماعة الإسلامية المسلحة" في الجزائر. (المترجمة).

(2) دعـــوى الولايات المتحدة ضد أسامة بن لادن، شهادة جمال أحمد محمد الفضل، 13 شباط من العام 2001.

(3) الدعوى الإسبانية 35/2001، المتعلقة بنشاطات القاعدة في إسبانيا، أرشيف المؤلف.

(4) "جماعة كردية متطرفة جديدة تعلن (الجهاد) ضد الأحزاب العلمانية"، صحيفة الشرق الأوسط، 11 أيلول من العام 2001.

منطقة في العراق تلقب بـــ "تورا - بورا كردستان" وتقع على الحدود.

لقـــد جمعـــت تلك المنظمة مجدداً على نحو جوهري عرباً أفغان انضمّوا إلى القاعـــدة خلال التسعينيات. وبدت، في الواقع، منذ بداياتها، كزائدة فطرية لحركة طالبان. لقد التزم هؤلاء "الطالبان الأكراد" تماماً بأفكار رفاقهم الأفغان.

إن هـــدفهم الأساسي هو "تطبيق الشريعة الإسلامية في الحياة اليومية" وذلك "بـــتقويض قوانين الديمقراطيين والامتثاليين[1] وكل قانون آخر من الكافرين"[2]. ونادت جند الإسلام بتطبيق صارم للعقيدة السلفية.

في نهايـــة العـــام 2001، وجّهت الهيئة الشرعية في جماعة جند الإسلام قائمة قواعد للانصياع لها. ونقرأ فيها اختلاط حابل بنابل: "على النساء ارتداء الحجاب عـــندما يخرجن من منازلهن، ويحظر عليهن السفر بمفردهن إلى مدينة أخرى"، "إن صـــور النساء محظورة في كل مكان، في المحلات، ومراكز المدينة، والسيارات.."، "يحظـــر سمـــاع الموسيقى والأغاني، ويحظر جلب وبيع الآلات الموسيقية"، "وتحظر المقتنيات غير الإسلامية مثل التلفاز وأجهزة التقاط البث الفضائي"[3].

لم تخـــفِ منظمة جند الإسلام تحالفها مع المجاهدين العرب ولا الدعم الذي تـــستفيد مـــنه الجماعة. وهكذا صرّح الناطق باسمها في العام 2001: "نحن حلفاء إخواننا المجاهدين. لقد تمّ تكويننا وفق الدين، وتدرّبنا على استخدام السلاح، ونحن مقتـــنعون أن الحـــل هو في رفع راية الجهاد من جديد"، وأضاف: "بفضل إخواننا المجاهدين، درّبنا أطفالنا على فن القتال"[4]. حتى أن الجماعة أطلقت صحيفة تحمل عنواناً بالغ الدلالة على ذلك نداء إلى الجهاد في كردستان.

إن أغلب الهجمات التي تبنّتها جماعة جند الإسلام ضد UPK، بدءاً من شهر أيلـــول مـــن العام 2001، يقودها "عرب أفغان" سبق أن قاتلوا في أفغانستان. لقد انضم إلى قوات جند الإسلام، التي يبلغ عددها حوالى 500 رجل مسلح، ما لا يقل

(1) امتثالي: عامل وفقاً لعُرف أو عادة. (المترجمة).

(2) موقع: http://www.geocities.com/kordestaan/jundalislamenglish11.htm.

(3) موقع: http://www.geocities.com/kordestaan/jundalislamenglish9.htm

(4) موقع: http://www.geocities.com/kordestaan/jundalislamenglish1.htm

عن 50 عضواً من القاعدة منذ شهر أيلول من العام 2001[1].

كمـــا لم تخفِ الجماعة انتماءها إلى القاعدة. فهنالك نداء موجّه إلى مجاهدي العـــالم لشنّ الجهاد في كردستان، يذكر مثلاً: "إن جماعة جند الإسلام أنهت تهيئها لاســتعمال الأســلحة والاتصالات. خلال هذه الفترة، استفدنا من أفكار وخبرة مخــتلف المفكــرين والقــادة العسكريين. وبعون الله، أنجزنا إعدادنا العسكري، والفكــري والديني. ونحن الآن مستعدون للدفاع عن الإسلام والمسلمين في وجه الحكام المحافظين وأسيادهم اليهود والنصارى. هذه المعركة موجّهة ضدهم إن شاء الله. وستتواصل هذه المعركة إلى أن يصبح الإسلام الشريعة الواحدة ونعاقب أعداء الإسلام بأيدينا"[2].

أعلــنت الجماعة الإسلامية أن "مولانا أسامة [بن لادن] يرافقها وأنها صديقة لأولــئك القريبون من الإسلام وعدوة لأولئك الذين يناوئون الله. إن جند الإسلام تتبنّــى رسمــياً علاقــات مــع إيران، والعراق، وأسامة بن لادن الذين هم أعداء للأميركيين"[3].

مــع ذلــك، لم يعــر أحــد انتباهاً إلى تلك الجماعة الصغيرة من طالبان في كردســتان، التي قُلّل من شأن نجاحاتها العسكرية وقدرتها السياسية. إن الملاّ عبد العزيز، الذي استلم المشعل الإسلامي من أبيه عثمان عبد العزيز عند موته، في العام 1999، لم يتخلَ عن هذا الرأي حيث يقول: "نعتقد أن هذه الحركة والأفكار التي تحملــها ليس لها مستقبل في كردستان [...]. إن أفرادها قلائل [...]. ويتكوّنون مــن فتية زقاقيين". ويشاركه جلال طالباني، زعيم UPK، هذا الرأي فيقول: "إن الحركة لن تجد أي أساس في كردستان العراق لشنّ معركة سياسية"[4].

---

(1) "كردســتان العراق: الزعماء الأكراد الواردة أسماءهم على لائحة نشاط حركة جند الإسلام"، "المجلة"، 10 شباط من العام 2002.

(2) موقع: http://www.geocities.com/kordestaan/jundalislamenglish2.htm

(3) موقع: http://www.geocities.com/kordestaan/jundalislamenglish10.htm

(4) "كردســتان العراق: الزعماء الأكراد الواردة أسماءهم على لائحة نشاط حركة جند الإسلام"، مصدر سبقت الإشارة إليه.

بعـــيداً عن اللعبة السياسية في كردستان، لقد امتازت جماعة جند الإسلام عن القوى الأخرى الحاضرة بالتزامها العسكري وفاجأت المراقبين بقوة خطابها الديني وانتصاراتها العسكرية. إن بعض مسؤولي الحركة الإسلامية في كردستان العراق لم يلبثوا أن أدركوا ذلك. وبمبادرة من زعيم عسكري قليل الشهرة، هو فرج أحمد نجم الدين، المعروف بالملا كريكار، وهو مريد سابق لعبد الله عزام في باكـــستان، مرشد أسامة بن لادن[1]، ترتّبت أمور الانفصال وأصبحت مجموعة جند الإسلام نقطة الجذب الرئيسة لإسلاميي كردستان العراق في خريف العام 2001.

(1) "العـــراق: الجهود الأميركية لتغيير النظام، ولتحديد الحكم في مرحلة ما بعد صدام، قسم أبحاث الكونغرس"، 25 تشرين الثاني من العام 2003.

الفصل الثالث

أمير حرب في كردستان

ولد الملا كريكار في العام 1956 في السليمانية، في كردستان العراق، ودرس لمدة عامين علم الاجتماع في طهران، ثم استقرّ في العام 1985 في كراتشي حيث أصبح أستاذاً في أحكام القضاء والتاريخ الإسلاميين في جامعة الدراسات الإسلامية في تلك المدينة، التي بقي فيها حتى العام 1988. وقد تزوّج من شيوعية سابقة اعتنقت الإسلام، واقتبس أسماء أبنائه الأربعة من كتب "سيد قطب"، المرشد الروحي لجماعة الإخوان المسلمين المصريين[1].

إن هذا الرجل الفارع الطول الملتحي الذي تشبه ملامحه ملامح راسبوتين يصفه أولئك الذين اختلطوا به في العراق بأنه "رجل متعطش للسلطة"، ويصدر أوامر قاسية لرجاله. وهو الخطيب المفوَّه، الذي قال عنه زعيم كردي بأنه كان بوسعه عندما يلقي خطبة صلاة الجمعة، "أن يُبكي جميع مستمعيه"[2].

وقد أقام الملا كريكار بدءاً من العام 1988، في بيشاور في مركز لاستضافة المقاتلين الأكراد المستعدين للذهاب إلى الجبهة الأفغانية[3] وكان قد تدرّب عسكرياً في معسكر تدريب تشرف عليه القاعدة في أفغانستان[4]. ولم يؤكّد الملا كريكار أبداً تلك النقطة الأخيرة، لكنه أقرَّ بأنه التقى بأسامة بن لادن خلال زيارة تمّت

(1) "العراق: رؤية قادة أنصار الإسلام للحرب الأميركية، واستنكار الاتهامات النروجية"، صحيفة الشرق الأوسط، 25 نيسان من العام 2003.

(2) RFI "راديو فرانس إنترناشيونال"، 20 و29 أيلول من العام 2002.

(3) "جاسون بورك، "القاعدة: قالب الإرهاب"، لوندرز، آي. بي.توريز، 2004، صفحة 210.

(4) "عدو عدوي: الارتباط الغريب بين أنصار الإسلام والعراق وإيران"، المعهد الكندي للدراسات الاستراتيجية، نيسان من العام 2003.

على الحدود الأفغانية في العام 1988[1].

في حزيران من العام 1988، انضمّ إلى الحركة الإسلامية في كردستان العراق (MIK). وعيّن في العام 1992 قائداً لفرعها العسكري، قبل أن يصبح مسؤولاً عن تخطـيط وتطويـر الجماعة في العام 1995. وأنشأ وقتها عدّة معسكرات للتدريب العسكري في كردستان، وكذلك أكاديمية عسكرية، لتنظيم المتطوعين الجدد. وعلى نحـو مـواز، وسّع شبكات دعم الحركة الإسلامية في كردستان للعراق MIK في أوروبا، مضاعفاً من حملات جمع الأموال في هولندا، والنروج، وبريطانيا العظمى، وألمانيا[2].

إن الـرجل الـذي يحلـو له أن يعرِّف نفسه بأنه مفكر (بل وحتى شاعر) إسـلامي، والـذي نشر أكثر من عشرين مؤلفاً، هو رجل عسكري حقيقي، إذ أشرف بنفسه على تدريب الإسلاميين الأكراد حاملاً كلاشينكوفه على كتفه.

لم يـستطع المـلا كريكار أن يوافق على اتفاق السلام الذي وقّعته في العام 1997، حـركة MIK والاتحاد الوطني الكردستاني بزعامة جلال طالباني، فقرّر في نفـس العام، وعلى هامش حركة MIK، تأسيس الاتحاد الإسلامي في كردستان، الـذي اتخـذ من إربيل قاعدة له، وهي مدينة تقع في منطقة يسيطر عليها الحزب الديمقراطي الكردستاني بزعامة مسعود البرازاني. واستقرّ فيما بعد في قرية "غُلب"، القريبة من مدينة "خورمال"[3]. ومع ذلك احتفظ الملا كريكار بعلاقات وثيقة مع MIK وامتنع دائماً عن إدانة هذه الحركة.

في شـهر تشرين الأول من العام 2001، جرت مفاوضات واسعة بين مختلف الجماعات الإسلامية في كردستان للتوصّل إلى اتحاد مع جند الإسلام. لكنها كانت تتعثـر عموماً بخصوص توزيع المراكز ومسألة الزعامة الحساسة. فقد كانت جند الإسـلام في موقع قوة. وأخفق التحالف مع الجماعات الإسلامية في ذلك الوقت، بـسبب مطالـب جـند الإسلام التي تنص على أن: الجماعة تريد الحصول على

(1) مقابلة مع الملا كريكار، صحيفة الشرق الأوسط، 21 شباط من العام 2003.

(2) مقابلة مع الملا كريكار، "نضال الإسلام"، أيلول من العام 1997.

(3) "العراق: قائد إسلامي كردي يفسر انشقاقه، صحيفة حولتي، 10حزيران من العام 2001.

ضـــمانات تتعلق بأمن مقاتليها العرب الأفغان ذوي الأصول الأجنبية، وترفض أن تعهد بالمسؤوليات العسكرية إلى أحد سوى المقاتلين الأفغان[1].

وقد أكّد الملا كريكار، منذ شهر تشرين الثاني من العام 2001، على تعاطفه مـــع جماعة جند الإسلام، ووصف أعضاءها بأنهم هم "المجاهدون الحقيقيون". وفي خطاب ألقاه أمام أنصاره، امتدح أيضاً أسامة بن لادن، و لم يعد يخفي أمنيته في أن يرى انبثاق تحالف كبير بين الأحزاب الجهادية في كردستان[2]. وقد أكّدت حركة MIK وقـــتها علانية خوفها من أن تحاول جماعة جند الإسلام أن تحقّق لمصلحتها وحدة مستحيلة بين الحركات الإسلامية[3]. وفي كانون الأول من العام 2001، قرّر المـــلا كـــريكار الـــتحالف مع الحركة الرئيسة للعرب الأفغان في كردستان، جند الإسلام، والتي أصبحت تفرض نفسها كأهم قوة عسكرية إسلامية في المنطقة.

هكـــذا، بـــرزت في نهايـــة العام 2001 جماعة مختلطة، نجمت عن دمج جند الإسلام مع الحركات المنشقة عن MIK. وسيطر على ذلك التنظيم قادة عسكريون قدمـــوا من أفغانستان، لكن إيديولوجية ذلك التنظيم تأثرت بالتيار السلفي بقدر تأثرها بجماعة الإخوان المسلمين. في الحقيقة لم يكن هناك من تباين بين إيديولوجية الجماعـــتين، "جند الإسلام" و"أنصار الإسلام"، لدرجة أن موقعهما على الإنترنت كانـــا عملـــياً متماثلين في العام 2001، وكان الملا كريكار يذكر بشكل متعاقب المنظمـــتين عندما كان يتكلّم عن القناعات العقائدية لأنصار الإسلام، تلك المنظمة الجديـــدة[4]. واستولت الشرطة الهولندية في العام 2002 على وثيقة من حقيبة الملا كـــريكار زعـــيم أنصار الإسلام موقّعة ومؤرخة بتاريخ 3 أيلول من العام 2002، حـــيث كـــان الملا كريكار معتقلاً في أمستردام. وفيها يتكلّم عن ولادة منظمته

(1) "فشل المحادثات حول توحيد الجماعة الإسلامية وجند الإسلام في شمال العراق"، صحيفة الشرق الأوسط، 19 تشرين الأول من العام 2001.

(2) "العـــراق: جماعـــات إســـلامية كردية توافق على حلّ الجماعات الأصولية المسلحة"، BBC، 28 تشرين الثاني من العام 2001.

(3) "العـــراق: الجماعـــة الإسلامية الكردية تظفر بتأييد الجماعات المحايدة سابقاً"، صحيفة حولتي، 16 أيلول من العام 2001.

(4) مقابلة مع الملا كريكار، صحيفة الشرق الأوسط، 21 شباط عام 2003.

ومقاصـــدها فيقول: "ليست [أنصار الإسلام] إقليمية، ولا عرقية [...] إنها تستند إلى شـــرع الإسلام وتستعد للجهاد [...]. وهي تهدف إلى إعادة الخلافة وتعمل على ذلك في 76 منطقة تضمّ 56 قومية"(1).

إن أنـــصار الإسلام، وعلى غرار جند الإسلام، تتّخذ من الإخوان المسلمين مـــرجعاً لهـــا في دعـــوتها، وبخاصة من حسن البنا، مؤسس جماعة الإخوان تلك، ويوســـف القرضاوي، أحد زعمائها الدينيين. كما تتّخذ الحركة أيضاً مرجعاً لها أسامة بن لادن وعبد الله عزام، مرشد بن لادن والذي اغتيل في العام 1989. ونشر أنصار الإسلام أيضاً مؤلفات الأستاذ عمر عبد الرحمن، الذي حُكم عليه بالسجن مدى الحياة في الولايات المتحدة لمشاركته في الاعتداءات الأولى على مركز التجارة العالمـــي في العـــام 1993، وكذلك مؤلفات الأردني أبو محمد المقدسي، وهو كما ذكرنا، مرشد الزرقاوي(2).

في العاشر من كانون الأول في العام 2001، تزعّم الملا كريكار أنصار الإسلام ومكوناتها الجهادية الثلاثة، جند الإسلام، حماس الكردية، وحركة التوحيد. وتتألّف المـــنظمة مـــن أمير (الملا كريكار) يساعده معاونان، ومن لجنة عسكرية، ومجلس شرعي، ومحكمة إسلامية، ومجلس أمن.

وسرعان ما وفّرت أنصار الإسلام لنفسها عدّة معسكرات تدريب في منطقة بـــيارة، في ســـارغات وفي خورمال، وعلى الخصوص معسكرات هيّأتها للأطفال، حيث يقترن فيها التعليم الديني بالعسكري.

ولجـــأت المنظمة إلى حرب العصابات لقتال المنظمات التقليدية في كردستان. ونـــادراً مـــا استخدم كوادرها أدوات اتصال حديثة، فقد فضّلوا عليها استخدام مبعوثين من الأفراد.

لقـــد تبـــنّت أنصار الإسلام العديد من الأعمال ضد منافسها الأول، الاتحاد

---

(1) المحكمة المدنية في ميلانو، غيدو سالفيني، رقم R.G.N.R. 5236/02 "قرار تطبيق إجراء التوقيف الاحتياطي"، 21 تشرين الثاني 2003، وثائق المؤلف.

(2) موقع إنترنت تركي لأنصار الإسلام:
WWW.cihad.net, site Internet turc d'Ansar Al-Islam.

الـوطني الكردستاني (UPK) بزعامة جلال الطالباني، لا سيما محاولة الاعتداء على رئـيس الـوزراء الكردي، برهام صالح، عضو UPK، في نيسان من العام 2002، والمعارك العنيفة في شهر كانون الأول من العام 2002 حول حلبجة، والتي أوقعت أكثر من مائة قتيل في صفوف UPK. وقد بلغت تلك الأعمال أوجها بتدمير المقر العـام للاتحـاد الـوطني الكردستاني، في 2 شباط من العام 2004، وذلك بهجوم انـتحاري أوقع أكثر من مائة ضحية. بيد أن العمل الأساسي لأنصار الإسلام، في نهاية العام 2001، تكرّس في تجميع المجاهدين الذين يفرون من أفغانستان.

ومـنذ العام 1997، لم يعد الملا كريكار يخفي تعاطفه الجهادي. فقد صرَّح قـائلاً: "إنـه لأمـر ضروري أن ندعم الحركات الجهادية عبر العالم، وإن هي لم تدعمنا"[1]. وهو نفسه سوف يجنّد من وراء الحدود العراقية؛ مناضليه القادمين من المغـرب، وفلسطين، والأردن. لقد درّبتهم القاعدة في أفغانستان، ولم يكن يتصل بالـزرقاوي إلا عـبر أحد عسكرييه، وهو أبو عبد الرحمن الشامي، ذلك الأردني الذي قُتل في نهاية العام 2002، أثناء المعارك مع UPK[2].

أما تمويل المنظمة فأتى من عدّة مصادر. فعلاوة على المساهمات الأساسية من أسـامة بـن لادن الـتي خُصِّصت في زمن تشكيل جند الإسلام[3]، كان بوسع جماعـة المـلا كـريكار الاعـتماد على الأموال التي يتمّ جمعها في باكستان وفي أوروبـا خـلال حمـلات التـبرع لصالح القضية الإسلامية في كردستان، والتي تجـري خاصـة في المساجد البريطانية والألمانية. لقد تناوب أيضاً على تقديم تلك المـساعدة المالية عدد من المنظمات الخيرية في الخليج، مثل الندوة العالمية للشباب الإسـلامي (World Assembly of Muslim Youth)، التي تأسّست في المملكة العـربية الـسعودية. ومنظمة سعودية أخرى، وهي هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية

(1) مقابلة مع الملا كريكار، نضال الإسلام، مصدر سبقت الإشارة إليه. (المترجمة).

(2) صـفحة "المراجعة الاستخباراتية في موقع جينـز (Jane's) حول التوحيد"، 21 أيلول من العام 2004.

(3) تقريـر تحليلي لوكالة الاستخبارات الأميركية CIA، "أنصار الإسلام: حلفاء القاعدة في شمال شرق العراق"، CTC 2003-40011CX الأول من شباط من العام 2003، تقرير لجنة التحقيق حول الحادي عشر من أيلول.

(International Islamic Relief Organization)، وهـــي فـــرع من رابطة العالم الإســـلامي (Muslim World League)، التي أسّسها الإخوان المسلمون، لا سيما ســـعيد رمـــضان، أحد أنشط الداعمين للإسلاميين الأكراد، وهو ابن حسن البنا. وشـــيّدت IIRO[1] أكثر من عشرة مساجد في كردستان خلال السنوات الخمس الأخـــيرة، وبحـــسب المـــلا صـــدِّيق، المسؤول المالي السابق في الحركة الإسلامية في كردســـتان، فقـــد تدفّـــق منذ العام 1994، 20 مليون دولار إلى الإسلاميين الأكراد[2].

لكـــن جند الإسلام وخليفتها أنصار الإسلام طوَّرتا أيضاً نواة اقتصاد محلي، وبخاصـــة شبكة استيراد وقود وإسمنت مصدرهما إيران حيث كان يعاد بيعهما في السوق العراقية. ويستوفي المجاهدون أيضاً ضرائب على البضائع التي تمرّ عبر المناطق الحدودية التي يسيطرون عليها[3].

إن تلـــك الموارد الهامة جعلت من أنصار الإسلام حركة تؤثّر على نحو كبير علـــى المسرح العسكري والسياسي الإقليمي، دون أن تتمتّع باعتراف حقيقي من جانب الدول المجاورة.

وروابـــط الملا كريكار مع القاعدة وزعمائها معروفة أيضاً منذ زمن طويل. فقـــد صـــرّح لـــصحيفة كـــردية بأن أسامة بن لادن يمثّل "تاجاً على رأس الأمة الإسلامية"[4]. وبحسب شهادة عضو سابق في شبكة أنصار الإسلام، جمعتها دائرة اســـتخبارات أوروبية، فإن الملا كريكار التقى أيضاً بأيمن الظواهري في طهران في العام 2002[5]. وفضلاً عن ذلك، فقد التقى بأسامة بن لادن وبأيمن الظواهري في أفغانـــستان في العام 2002، مفسراً ذلك بأنه سبق له في الماضي أن "التقى بالعديد مـــن المفكـــرين المسلمين مثل أسامة بن لادن ومعاونه أيمن الظواهري، اللذين هما

(1) هيئة الإغاثة الاسلامية العالمية.

(2) انظر موقع أنصار الإسلام على الإنترنت، WWW.ayobi.com.

(3) صحيفة حولتي، 28 تشرين الأول 2001.

(4) "التهديد بالحرب: مخيمات الجبال: المسلحون الأكراد يدرّبون مقاتلي القاعدة: متطرفون يشتبه بهم في اختبار الأسلحة الكيماوية ولهم ارتباطات مع العراق، صحيفة الغارديان، 23 آب 2002.

(5) مقابلة مع مسؤول أوروبي في مكافحة الإرهاب، 2004.

مسلمان حقيقيان مؤمنان"[1]. وسيؤكّد في العام 2003، أن أسامة بن لادن هو "رجل كريم، نذر حياته وماله لشرع الله"[2]. إن تلك المعلومات أكّدها مصادر قضائية إيطالية ذكرت أن الملا كريكار قد "اعترف للسلطات النروجية بأنه، وخلال إقامته في باكستان، التقى بأسامة بن لادن، وبعبد الله عزام، وبأيمن الظواهري"[3]. وحتى أن أنصار الإسلام كانت قد استقبلت أسامة بن لادن في الأول من تشرين الثاني من العام 2001 لتسجيل رسالة بثّتها قناة الجزيرة[4].

خلال مقابلة أجرتها صحيفة الشرق الأوسط السعودية مع الملا كريكار في العام 2003، روى كريكار لقاءه الأول مع زعيم القاعدة في أواسط العام 1988 قائلاً: "جرى الاجتماع في فيلا في حياة آباد بالقرب من بيشاور. وصاحب الفيلا أمير سعودي، وكان برفقة أسامة بن لادن سبع شخصيات سعودية". وعلى حدّ قول الملا كريكار، فإنه لم يعلّم إلا بعد انقضاء ساعة على الاجتماع بأن الشخص الذي كان يكلّمه بصوت رخيم لم يكن إلا أسامة بن لادن. وكان هدف اللقاء هو "الحصول على أموال لصالح عائلات ضحايا القصف الكيماوي العراقي على مدينة حلبجة في آذار من العام 1988"[5]. وكان قد سلّم الأمير السعودي الموجود مجموعة صور تتعلق بالقصف على حلبجة.

كما حاول أيضاً إقناع الشيخ عبد الله عزام بالاقتراب من القضية الكردية، وبجمع المال لصالح ضحايا حلبجة. وبحسب أقواله، فإن عبد الله عزام حاول أن يجمع أموالاً من بلاد الخليج، لكن جهوده لم تُثمر، بسبب شعبية صدام حسين في البلاد العربية في ذلك الوقت.

وعلى الرغم من تلك التصريحات المتوالية، فقد أكّد الملا كريكار في العام

(1) UPI، 25 أيلول 2002.

(2) صحيفة دير شبيغل الألمانية، 10 شباط 2003.

(3) المحكمة المدنية في ميلانو، غيدو سالفيني، رقم R.G.N.R. 5236/02 "قرار تطبيق إجراء التوقيف الاحتياطي"، 21 تشرين الثاني 2003، وثائق المؤلف.

(4) وكالة EFE الاسبانية للأنباء، الأول من تشرين الثاني 2001.

(5) "الملا كريكار: التقيت بابن لادن في فيلا فخمة في حي الأفغان العرب عام 1988"، صحيفة الشرق الأوسط، الأول من آذار 2003.

2002 أن صلاته مع القاعدة "لا أساس لها إطلاقاً"[1].

وبحسب أجهزة الاستخبارات الأردنية، لقد التقى أبو مصعب الزرقاوي شخصياً في كردستان بالملا كريكار وبأبي عبد الله الشافعي، مؤسس جند الإسلام، والذي أصبح مساعداً للزرقاوي. لقد وطّد مسؤولا أنصار الإسلام، في تلك المناسبة، تحالفهما وقرّرا دمج إمكاناتهما معاً، وبخاصة الأسلحة والمتفجرات. وكان قد شارك في هذا الاجتماع أيضاً عدّة أردنيين أعضاء في شبكة الزرقاوي، ومنهم إسعاف عبد الله النسور، وشحادة ناجي شحادة الكيلاني، ومحمد راتب إبراهيم قطيشات، ومنذر عبد اللطيف يوسف شما، وعمر عز الدين عصام العتيبي.

هكذا، واعتباراً من خريف العام 2002، أصبح بوسع أنصار الزرقاوي الوصول إلى أسلحة وقواعد أنصار الإسلام العسكرية الهامة. وفي نصّ وقّعه بيده ومؤرخ بتاريخ 3 أيلول من العام 2002، وضع الملا كريكار قائمة جرد بمجموعة الأسلحة التي يمتلكها أنصار الإسلام: "بحوزتنا مدفع عيار 155 ملم، وحوالى ألف قنبلة إيرانية الصنع اشتريناها بسعر منخفض وكذلك قنابل أخرى تمّ الحصول عليها عقب النزاع الأخير بين العراق وإيران [...]. وقد شيّدنا أيضاً أنفاقاً وأقبية لتحمينا من غارات جوية محتملة [...] في حال حدوث هجمات من التحالف الأميركي - البريطاني"[2]. لقد تدرّب رجال الزرقاوي خصوصاً في معسكر خورمال، الواقع على الحدود الإيرانية في منطقة حلبجة، التي سيتمّ تحويلها في نفس العام إلى معسكر اختبار وإنتاج للأسلحة الكيماوية[3]. لقد قام بالتدريب العسكري لرجال الزرقاوي الأردني أحمد محمود صالح الرياتي، الذي اعتقلته القوات

(1) "كردستان العراق: مجموعة أنصار الإسلام تنفي ارتباطها بالقاعدة وبالنظام العراقي"، صحيفة الشرق الأوسط، 29 أيلول 2002.

(2) المحكمة المدنية في ميلانو، غيدو سالفيني، رقم R.G.N.R. 5236/02 "قرار تطبيق إجراء التوقيف الاحتياطي"، 21 تشرين الثاني 2003، وثائق المؤلف.

(3) عند الاستجواب، سيؤكد عضو في الخلية الإيطالية لأنصار الإسلام أن معسكر خورمال كان معدّاً للمجاهدين المتطوعين. المحكمة المدنية في ميلانو، غيدو سالفيني، رقم R.G.N.R. 5236/02 "قرار تطبيق إجراء التوقيف الاحتياطي"، 21 تشرين الثاني 2003، وثائق المؤلف.

الأميركية في آذار من العام 2003 ثم سلّمته إلى السلطات الأردنية[1]. وكُلِّف عبد الهادي دغلس بالاشراف على المختبر الكيماوي في خورمال[2].

في نهايـــة العام 2002، تنقّل الزرقاوي وأنصاره باستمرار بين بغداد والمنطقة الحدوديـــة مـــع إيران. وينتهي الأمر بالسلطات العراقية، وقد ساورها القلق، إلى توقـــيف ثلاثة من عسكريي الزرقاوي بين نهاية العام 2002 وبداية العام 2003[3]، ولم تطلق سراح إلا واحد منهم قبل بدء الهجوم الأميركي.

على الرغم من تقارب الملا كريكار مع قادة القاعدة المشهورين، إلا أنه سرعان مـــا رأى منظمته وقد اكتسحها العرب الأفغان. ووقعت معسكرات تدريب المنظمة تدريجياً تحت سيطرة رجال الزرقاوي، وحلّ محل قادته العسكريين مقاتلون أفغان. لقد غيّـــرت أنصار الإسلام شيئاً فشيئاً من طبيعتها. وكان زعيمها، الملا كريكار قد طلب اللجـــوء الـــسياسي إلى النروج، التي منحته إياه في العام 1991، في إطار كوتا لاجئي الأمـــم المتحدة. وفي 6 أيلول من العام 2002، أوقفته السلطات الإيرانية [4]في طهران وأبعدتـــه بعد ستة أيام إلى هولندا. ولدى وصوله إلى أمستردام في 13 أيلول، احتجزته السلطات الهولندية[5]. وتلقّت تلك السلطات في اليوم نفسه طلباً بالتعاون القضائي من الأردن، الذي كان قد أصدر مذكرة بالقبض على الملا كريكار بسبب "التواطؤ بغرض زهق الأرواح"[6]. وكان زعيم أنصار الإسلام قد اتُهم أيضاً بانتهاك القوانين الأردنية المـــتعلقة بالمخدرات[7]. ولم يتمّ تنفيذ ذلك الطلب لأن الملا كريكار اعتقل في هولندا

(1) "الأردن يكشف عن جماعة أنصار الإسلام المرتبطة بالقاعدة"، صحيفة الرأي الأردنية، 13 أيلول 2003.

(2) تقرير شامل من (الشرطة الجنائية الألمانية BKA) حول أبي مصعب الزرقاوي، 2004، وثائق المؤلف.

(3) "مراجعة لوكالة الاستخبارات الأميركية CIA تتوصّل إلى عدم وجود أدلة على أن صدام كانت له علاقات مع إرهابيين إسلاميين"، نايت ريدر، 5 تشرين الأول 2004.

(4) "CIA review finds no evidence Saddam had ties to Islamic terrorists", Knight Ridder, 5 octobre 2004.

(5) المحكمـــة المدنية في ميلانو، غيدو سالفييني، رقم R.G.N.R. 5236/02 "قرار تطبيق إجراء التوقيف الاحتياطي"، 21 تشرين الثاني 2003، وثائق المؤلف.

(6) مديرية الأمن العام، الأردن، وثيقة 8846/C/31/10، أرشيف المؤلف.

(7) المحكمة المدنية في ميلانو، غيدو سالفييني، رقم R.G.N.R. 5236/02 "قرار تطبيق إجراء التوقيف الاحتياطي"، 21 تشرين الثاني 2003، وثائق المؤلف.

لغايــة 13 كانون الثاني 2003، وهو التاريخ الذي تمّ فيه إبعاده أخيراً إلى النروج. وقد تمّ مجدداً استجوابه في النروج لأشهر عدّة قبل أن يستعيد حريته[1].

لــدى مرور الملا كريكار الإجباري بهولندا، استولت الشرطة الهولندية على مفكّرة وفهرس هاتفي يثبتان العلاقة بين الملا والزرقاوي، الذي كان رقم هاتفه عبر القمر الصناعي موجوداً تحت اسم "رشيد"[2] في وثائق تمّت مصادرتها.

مــنذ نهايــة العام 2001، سيطر الزرقاوي في واقع الأمر على منظمة أنصار الإســلام، التي زوّدته بالضروري من وسائلها المالية والعسكرية، وأيضاً بالمتطوعين والمدربين العسكريين.

في شــباط من العام 2003، أقال أربعة عشر عضواً من المجلس التشريعي في أنــصار الإسلام الملا كريكار. وأعلن آنذاك هذا المجلس، الذي يديره أبو عبد الله الــشافعي، بــأن الملا كريكار قد ابتعد عن "الصدق الجهادي"، وعن إيديولوجية ومــنهج الجماعــة[3]. وفي الــشهر نفسه، وصفت الولايات المتحدة رسمياً أنصار الإسلام بأنها كيان إرهابي[4].

اليوم ينكر الملا كريكار كل صلة له بالإرهاب، إلا أنه مع ذلك لا يتخلّى عن الجهــاد. فعند استجوابه في تشرين الثاني من العام 2003 حول عودته المحتملة إلى العراق، صرّح بأن الجهاد هو "واجب ديني"، وأنه يفضّل "حمل كلاشينكوف على أن يصبح شخصاً تافهاً"[5] في ملجأه النروجي.

ومهمــا يكــن الأمر، وعشية الهجوم الأميركي على العراق، كانت أنصار الإسلام تضمّ أكثر من 600 مقاتل عربي، جاؤوا من أفغانستان، ووضعوا تحت إمرة أبي مصعب الزرقاوي.

(1) المصدر السابق.
(2) المصدر السابق.
(3) "تقارير عن صرف جماعة أنصار الإسلام للملا كريكار عن زعامتها"، صحيفة الشرق الأوسط، 23 آب 2003.
(4) تصريح وزارة خزانة الدولة المتعلق بتسمية أنصار الإسلام، 20 شباط 2003.
(5) صحيفة حولتي، 12 تشرين الثاني 2003.

الفصل الرابع

لعبة إيران الغامضة

في 23 آذار من العام 2003، بدأ هجوم التحالف ضد أنصار الإسلام. وقصفت الطائرات المعاقل الهامة لتلك المنظمة في البيارة وفي القرى المحيطة بوادي حلبجة. وسبق الضربات الجوية انتشار حوالى مائة من أفراد القوات الخاصة الأميركية وحوالى عشرة آلاف مقاتل كردي. وبحسب السلطة الكردية، فإن ذلك الهجوم أوقع 180 قتيلاً في صفوف أنصار الإسلام، إضافة إلى 150 أسيراً.

عندها التجأ معظم أفراد أنصار الإسلام إلى إيران وإلى المثلث السني، في الشمال الغربي من بغداد. وتم تحديد وجود قادة الجماعة الكبار وهم: أبو عبد الله الشافعي، وأيوب الأفغاني، وأبو وائل في شهر حزيران من العام 2003 في مدينة ساناندج الحدودية[1].

يروي كايوان قادر، الذي جندته أنصار الإسلام في ذلك الوقت، بمرتب 22 دولار شهرياً، قائلاً: "بعد بدء الهجوم الأميركي على العراق، هربنا إلى إيران حيث بقينا هناك حوالى شهر"[2].

إن الاهتمام الإيراني بالإسلاميين السُّنة في كردستان يعود أصله إلى الصراع على السلطة من أجل السيطرة على هذا الجزء من العراق، الذي أصبح منذ عدّة سنوات خارج مجال السلطة البعثية المركزية.

و لم يقتصر الدعم الذي قدّمته إيران على UPK وحسب، وإنما لعبت طهران أيضاً، وبصمت أكبر، بالورقة الإسلامية. تلك الطريقة في العمل منحتها مزايا

(1) "أنصار الإسلام تدعم الشبكة الأوروبية"، صفحة المراجعة الاستخباراتية في موقع جينز (Jane's)، 21 أيلول من العام 2004.

(2) صحيفة الشرق الأوسط، 18 آذار من العام 2004.

إقليمـــية واضحة. فبالدرجة الأولى، واجهت إيران نـــزاعان إقليميان يحدثان على حـــدودها، فمن جهة هنالك الحرب الأفغانية (والتي ظلت، إلى حين استقرار نظام طالـــبان اعتباراً من العام 1996)، وكردستان من الجهة الأخرى. وبدءاً من العام 1999، قرّر الإسلاميون المجاهدون، وبتحريض من أسامة بن لادن وطالبان، تصدير معـــركتهم إلى الجبهة الكردية. واختارت إيران موقف الحياد العطوف. وبالدرجة الثانـــية، حرصت على أن تراقب بعين يقظة هؤلاء الإسلاميين السنّة الذين ينالون دعمهـــم الأول من الإسلاميين السلفيين. وأخيراً، دخل الإسلاميون، في صراع مع الـــنظام البعثـــي، فقـــد جلبوا لـــ UPK ما يفتقر إليه افتقاراً شديداً، ليعرف قوة عسكرية حقيقية مدرّبة ومجهّزة، والتي يقودها زعماء حرب ضرّستهم الخبرات التي اكتسبوها في أفغانستان.

حاولت إيران بسرعة كبيرة فرض تسوية وقتية بين مختلف الأحزاب الإسلامية من جهة، وبين UPK من جهة أخرى. فقدّمت وساطتها في مناسبات كثيرة، ولم تتردّد في استقبال وفود رسمية من أنصار الإسلام، وبخاصة الملا كريكار، الذي عاش في إيران قبل انخراطه في وسط مختلف الحركات الجهادية.

ومضى البعض إلى حدّ اعتبار أنصار الإسلام مجرد أداة بيد النظام الإيراني. مع أنه لم يتمّ التحقّق من تلك الفرضية حتى يومنا هذا، فلم يبقَ إلا وقائع قليلة مقلقلة تـــأتي لـــتدعم ذلك التحليل. وهكذا، فإننا نجد أن حركة جند الإسلام قد اتخذت اللغة الفارسية لغة رسمية، ونشرت بلاغاتها باللغة الفارسية[1].

أنكـــرت طهران، من جانبها، كل دعم منها لأنصار الإسلام، وحتى رفضت رسمـــياً دخول جرحى الجماعة لأراضيها عقب عمليات القصف الأميركي في آذار مـــن العام 2003. بيد أن هذا التحول العام حديث ويتزامن مع الحزم الذي أعلنته واشنطن تجاه النظام الإيراني.

بـــدءاً من العام 1991، نجد أن خيار إيران الاستراتيجي، القائم على تفضيل نفوذها الإقليمي في كردستان ولو على حساب المنطق الدبلوماسي، دفعها إلى عدم

(1) نشرات جند الإسلام، وثائق المؤلف.

الاكتفاء فقط بتقديم عبور مؤقت أو مساعدة خفية للإسلاميين، وإنما أصبحت ملاذاً حقيقياً، إن لم تكن قاعدة خلفية لبعض الشبكات المتطرفة.

أظهرت لجنة التحقيق المستقلة حول هجمات 11 أيلول، استناداً إلى استجوابات العديد من مسؤولي القاعدة، ومنهم توفيق بن عطاش، طموح النظام الإيراني للتقارب مع أسامة بن لادن عقب الاعتداء على السفينة الحربية الأميركية كول في تشرين الأول من العام 2000. وبهذا الخصوص، أشارت اللجنة إلى أن إيران "سهلت تنقلات أعضاء القاعدة الذين يعبرون البلاد من أفغانستان أو إليها". كما أن ضباط أمن الحدود "تلقّوا تعليمات ألاّ يضعوا تأشيرة على جواز السفر نفسه "وإنما على استمارة ملحقة، لئلا يتركوا أي أثر يدل على المرور عبر إيران. لقد استفاد بالدرجة الأولى من هذا الإجراء أعضاء الشبكة السعوديون[1].

لقد توصّلت اللجنة إلى وجود "براهين قوية تدلّ على أن إيران سهّلت عبور أعضاء القاعدة من أفغانستان أو إليها، بمن فيهم عدد من المشاركين في هجمات الحادي عشر من أيلول". في الحقيقة، لقد مرّ عبر إيران ما بين ثمانية إلى عشرة متورطين في اعتداءات الحادي عشر من أيلول وذلك ما بين شهري تشرين الأول 2000 وشباط 2001[2].

في بداية العام 2002، وبعد أسابيع من انطلاق العمليات العسكرية ضد أفغانستان، أشار وزير الدفاع الأميركي، دونالد رامسفيلد، إلى أن إيران كانت قد تساهلت حول وجود أعضاء القاعدة وطالبان فوق أراضيها. وردّ الناطق باسم وزير الخارجية الإيراني، حميد رضا آصفي، مؤكداً أن إيران "كانت قد سلمت جميع الأجانب المرتبطين أو المشتبه بارتباطهم بالقاعدة إلى بلدانهم الأصلية"[3].

(1) تقرير استخباراتي، التحقيق مع خلاّد، 12 أيلول 2003؛ تقرير تحليلي لوكالة الاستخبارات الأميركية، "إيران والقاعدة: توثيق علاقات التطرف الإسلامي"، CTC 2004-40009HCX، آذار 2004، الصفحات 6–12، لجنة التحقيق حول الحادي عشر من أيلول.

(2) تقرير استخباراتي يحلل علاقة حزب الله وإيران بأحداث الحادي عشر من أيلول، 20 كانون الأول؛ تقرير استخباراتي عن استجواب بن الشيبة، 16 تموز 2004؛ "لجنة التحقيق حول الحادي عشر من أيلول".

(3) IRNA "وكالة الأنباء الإيرانية"، 22 حزيران 2002.

لكـــن، وفي الأول مـــن أيلول من العام 2003، أعلنت السلطات الأردنية رسمـــياً بـــأن إيـــران كانـــت قد ردّت بالرفض على طلب تسليم أبي مصعب الـــزرقاوي، الـــذي أوقفـــته سلطات طهران مؤقتاً عام 2002 عند هروبه إلى كردســـتان العـــراق. واستندت الحجة التي ساقتها إيران إلى أن الزرقاوي الذي كان يحمل جواز سفر سوري، لا يمكن إبعاده إلى الأردن[1]. ولتسهيل تنقّلاته، امتلك الزرقاوي العديد من جوازات السفر المزيفة، وخاصة جوازات بريطانية، ولبنانية، وأردنية، وإيرانية، ويمنية [2].

وبحسب أجهزة الاستخبارات الألمانية - كما ذكرنا - وبعد إصابة الزرقاوي أثناء الهجوم الأميركي على أفغانستان، فإنه وجد ملاذاً له في مدينة مشهد الإيرانية، في إيران، في 5 كانون الثاني من العام 2002، حيث تلقّى فيها العناية الطبية. وظلّ الـــزرقاوي في إيران حتى شهر نيسان من العام 2002 ومنها نسّق انسحاب أعضاء شـــبكته إلى كردســـتان. وبعد ذلك ذهب إلى طهران، ثم إلى زهدان، في جنوب البلاد. و لم يستمر اعتقال السلطات الإيرانية له إلا لمدة قصيرة. ولقد أكّد مراسلوه في ألمانـــيا بـــأن العديد من إخوانه قد تمّ توقيفهم في طهران، لكن مساعده الخاص أوضـــح أن الـــزرقاوي كـــان طيلة تلك المدة "تحت حماية النظام الإيراني وجماعة حكمتيار[3].

أضـــف إلى هـــذا، واستناداً إلى اعترافات الأردني أحمد محمود صالح الرياتي، الـــذي اعتقلـــته قوات التحالف في شهر آذار من العام 2003[4]، استطاعت دائرة المخابـــرات الأردنية أن تؤكّد أن جميع قادة شبكة الزرقاوي تقريباً في العام 2003 كانوا في إيران.

---

(1) "تقارير إعلامية عن رفض إيران للطلب الأردني بتسليمها الزرقاوي"، صحيفة الشرق الأوسط، 2 أيلول 2003.

(2) تقريـــر شامل من (الشرطة الجنائية الألمانية BKA) حول أبي مصعب الزرقاوي، 2004، وثائق المؤلف.

(3) الدعوى القضائية الألمانية، قضية التوحيد، تحقيق BKA، 2002، وثائق المؤلف.

(4) "الأردن يعلـــن عن اكتشاف مجموعة أنصار الإسلام المرتبطة بالقاعدة"، مقال سبقت الإشارة إليه.

وفي العام 2003، اتهمت الولايات المتحدة إيران اتهاماً أكثر وضوحاً وصراحة. وأوضح دونالد رامسفليد على الخصوص بأن إيران "تأوي العديد من قادة القاعدة الكبار". وبضغط أميركي، كان لا بد لإيران من الاعتراف بأنها قد أوقفت في تموز 2003، كثيراً من أعضاء الشبكة، وأنها طردت بعضهم إلى بلادهم الأصلية. وأوضح وزير الإعلام، علي يونسي قائلاً: "اعتقلنا عدداً آخر كبيراً من أعضاء مهمين نوعاً ما في شبكة أسامة بن لادن"(1).

لقد تكلّمت الكثير من المصادر عن وجود سيف العدل، أحد زعماء القاعدة، في إيران، وكذلك سعد بن لادن، أحد أبناء أسامة بن لادن، الذي كانت تحميه وحدة عسكرية إيرانية. لقد أنكرت الحكومة الإيرانية إنكاراً شديداً تلك الاتهامات، واعترفت في الوقت نفسه أنه كان من المستحيل مراقبة 1900 كيلومتر بتمامها من الحدود التي تفصل باكستان وإيران عن أفغانستان، وأقرَّت بأن "بعض عناصر القاعدة [كان بوسعهم] دخول إيران"(2).

في شهر تشرين الأول من العام 2003، قدّمت إيران للجنة عقوبات منظمة الأمم المتحدة قائمة تضمّ 225 مشتبهاً بهم أوقفوا وطردوا منذ الهجوم الأميركي على أفغانستان، لكنّ أياً منهم لم يكن اسمه مدرجاً على لائحة الأشخاص المشار إليهم على أنهم إرهابيون ومطلوبون لدى الأمم المتحدة. وأكّدت الحكومة الإيرانية أنه في أقل من عامين حاول أكثر من 2300 شخص الدخول على نحو غير شرعي إلى إيران قبل أن تتمّ إعادتهم مجدداً إلى الحدود الباكستانية(3). وقد عبّرت الحكومة الإيرانية لاحقاً، في بداية العام 2004، عن رغبتها بمقاضاة العديد من أعضاء القاعدة، على الرغم من طلبات الإبعاد المتعلقة بهم، والتي قدّمتها عدّة بلدان – ومنها الولايات المتحدة(4). أما

(1) "وزير يقول: إن إيران تحتجز أعضاء كباراً في شبكة القاعدة «الإرهابية»"، AFP (وكالة الأنباء الفرنسية)، 23 تموز 2003.

(2) "إيران تنفي إيواء القاعدة، وتتحدّى وكالات المخابرات الأجنبية"، AFP، 14 تشرين الأول 2003.

(3) "إيران ترفع تقارير إلى لجنة مجلس الأمن UNSC حول جهودها لتجميد نشاط طالبان والقاعدة"، IRNA، 28 تشرين الأول 2003.

(4) "بدأت إيران بمحاكمة 12 مشتبهاً بهم بالانتماء إلى القاعدة"، إيران نيوز، 25 حزيران 2004.

بالنسبة للحاكم المؤقت في العراق، بول بريمر، فقد تكلّم في أيار من العام 2004، بصدد بعض المتطرفين المقلقين في العراق والذين هم من طرف إيران.

لقد سقطت إيران، التي تقع في ملتقى صراعات إقليمية، في فخ التنازلات التي منحتها هي نفسها لإسلاميي أفغانستان وكردستان.

وهكذا، وعشية الهجوم الأميركي على العراق، تحوّل المجاهدون العازمون على قتال العدو الأميركي نحو طهران. وجميع أفراد شبكة الزرقاوي تقريباً تواجدوا وقتها في إيران، كما اعترف بذلك فيما بعد أحد عسكريي الزرقاوي[1].

(1) "الأردن يعلن عن اكتشاف مجموعة أنصار الإسلام المرتبطة بالقاعدة"، مقال سبقت الإشارة إليه.

الفصل الخامس

التوحيد والجهاد

شكّل الهجوم الأميركي على العراق، في آذار من العام 2003، منعطفاً بالنسبة للحـــركات الإسلامية في كردستان، التي كشفت، في تلك المناسبة عن مقاصدها وعـــن وجهها الحقيقي. وفي حزيران، نشر المجلس الشرعي لأنصار الإسلام بلاغاً دعـــا فـــيه "جمـــيع المـــتطوعين إلى الانضمام إلى صفوف أنصار الإسلام لمقاتلة الأميركـــيين". وفي الـــسياق نفـــسه، حذّرت المنظمة من أنها ستلجأ إلى "حرب العـــصابات المدينـــية" وأنها "سوف تجابه الكفرة الأميركيين لتبيدهم في جميع أنحاء العراق"، موضحة أن "مناطق دخول وخروج الأراضي قد تمّ تعزيزها أمنياً لضمان تمـــوين المقاتلين"[1]. كما أطلقت أنصار الإسلام أيضاً نداءً من أجل جمع الهبات، الـــتي هـــي "عصب الجهاد" بحسب تعبيرها، قائلة: "لقد تعرّضت المنظمة لعمليات القـــصف الأميركـــي مؤخـــراً وفقدت عتادها وهي بحاجة لشراء أسلحة وأغذية للمجاهدين المرغمين على الابتعاد عن كردستان مع عائلاتهم".

أكّـــد المـــلا كـــريكار، في آب، أنّـــه ليس هنالك أدنى فرق بين "الاحتلال الأميركي للعراق وبين الاحتلال السوفياتي لأفغانستان عام 1979"، وأوضح أنه "لا يشك أبداً في مشاركة أعضاء القاعدة في تدريب وتنظيم مجاهدي كردستان"[2].

لقد وسّعت منظمة أنصار الإسلام، منذ بداية الهجوم الأميركي على العراق، وجودها على الأرض العراقية.

وفي حزيـــران مـــن العام 2003، برزت منظمة جديدة، وهي أنصار السنة.

(1) "جماعـــة أنـــصار الإســـلام تهدّد بمحاربة الأميركيين، والعلمانيين في العراق"، صحيفة الشرق الأوسط، 13 حزيران 2003.

(2) من وثائق محطة LBC الفضائية، 10 آب 2003.

بـــزعامة أبي عبد الله حسن بن محمود، شقيق أبي عبد الله الشامي، أحد عسكريي الـــزرقاوي الذي قتل في كانون الأول من العام 2001 في كردستان[1]. لقد قدّمت الجماعـــة نفـــسها على أنها منشقّة عن أنصار الإسلام، لكنها اتّخذت على الدوام مرجعاً لها الجماعة التي أسّسها الملا كريكار.

في شـــهر أيلول من العام 2003، أكّدت منظمة أنصار السنّة في أحد بلاغاتها علـــى أن "الجهاد في العراق أصبح واجباً على جميع المسلمين"[2]. وفيما بعد دعت مـــنظمة أنـــصار الـــسنّة إلى "الانتصار على الولايات المتحدة" وتبنّت العديد من الهجمات على قوات التحالف، لا سيما الهجوم الذي استهدف السفارة التركية في 14 تشرين الأول من العام 2003، واغتيال العديد من أفراد الاستخبارات الإسبانية في 29 تشرين الثاني من العام نفسه.

شـــاركت منظمة أنصار الإسلام مشاركة فعّالة في الهجوم الإسلامي المضاد، كمـــا يـــشير إلى ذلك نشرها على موقعها على الإنترنت لبيان كتائب أبي حفص المصري، التي تبنّت هجمات مدريد في 11 آذار 2004. وفضلاً عن ذلك، كرّست أنصار الإسلام صفحة من موقعها، بعنوان "جبهات الحرب الصليبية"، وبشأن تلك الجبهات، عرضت العديد من صور الهجمات. وقد عُثر لاحقاً على فيديو كاسيت يحـــتوي علـــى تهديـــدات في أنقاض شقّة سكنها العديد من أعضاء شبكة مدريد الإرهابـــية ويحمـــل بالإضافة لذلك، علامة "أنصار القاعدة"، إشارة إلى التقارب الموجود بين المنظمتين.

لقـــد أصابت الهزيمة أنصار الإسلام عقب الهجوم الأميركي الكبير الذي شُنّ علـــى كردستان في آذار من العام 2003، لكنها، ورغم فقدانها لحوالى ثلث قواتها، إلا أنهـــا أعـــادت بـــناء ذاتها في العراق واستأنفت بسرعة عملياتها. وفي 5 أيلول، أشـــارت الجماعة إلى أن أعضاءها أفلحوا في "اللجوء إلى البلدان المجاورة" (إشارة ضمنية إلى إيران)، حيث أعادوا تنظيم أنفسهم "بدعم من إخواننا الذين هم امتداد

(1) "صحيفة حولتي تكشف سر تفجيرات أربيل"، حولتي، 11 نيسان 2004.

(2) "أنصار الإسلام"، مركز المقريزي للدراسات التاريخية، 14 آذار 2004.

طبيعي لنشاطنا"، وذلك لينتشروا مجدداً على كافة الأراضي العراقية[1].

واشـتدّت التوترات بين مختلف القوى المسلحة في كردستان في ذلك الوقت. فقد هاجم أبو عبد الله الشافعي - الذي خلف الملا كريكار في تزعم أنصار الإسلام في شهر شباط من العام 2003 - جلال الطالباني هجوماً عنيفاً في أحد البيانات، الأمين العام لـ UPK، الذي شاركت قواته، إلى جانب الأميركيين، في الهجوم على معاقل أنصار الإسلام في شهر آذار. وانتقد أيضاً بعض الجماعات الإسلامية الكردية، المتّهمة باتخاذها مسلك "الخونة" خلال الهجوم.

حاولت أنصار الإسلام، ولأسابيع عديدة، أن تجمع تحت رايتها الحركات الجهادية الموجودة في العراق. وأوضح الشافعي أن عمل أنصار الإسلام، الذي كان لفترة طويلة يتاخم أرضاً ضيقة ومحدودة، أصبح يمتد من شمال العراق إلى جنوبه، ومن شرق حدوده إلى غربها، وأكّد على وجود "إجماع بين المجاهدين المقاتلين في البلاد على الانضواء تحت رايتنا". وبيَّن الشافعي أيضاً أن بوسع الجماعة أن تغيّر اسمها بحسب التحالفات التي يُحتمل أن تعقدها مع جماعات أخرى. موضّحاً أن هذا الاسم سيتمّ الكشف عنه قريباً. وتبنّى الشافعي من جهة أخرى عملاً استشهادياً ضد القوات الأميركية، دون أن يوضح التفاصيل.

أخيراً طلب الشافعي "بألاّ يطلق أي شيخ مسلم فتوى تحرِّم العمليات الموجّهة ضد الأميركيين". وأشار إلى فتوى أصدرها قبل بضعة أشهر أحد المراجع الدينية لأنصار الإسلام، وهو الأردني أبو محمد المقدسي.

في شهر نيسان من العام 2003، تجافى المقدسي عن المقاومة الجهادية في العراق، وأدان إرسال "عرب أفغان" إلى الأرض العراقية[2].

إن المقدسي الذي تراجع تراجعاً مفاجئاً عن كتاباته السابقة، انتقد التضحية بالشباب المسلم في حروب "لا علاقة لنا بها" معلناً أنه "يحرم على المسلم أن يضحّي بحياته لأجل الانتصار في حرب تدور بين فريقين كافرين [الأميركيين ونظام صدام

(1) صحيفة الحياة، 5 أيلول 2003.

(2) "الإسلاميون المذكورون في الصفقة الأميركية العراقية السورية، العناصر الانتحارية في العراق"، صحيفة الشرق الأوسط، 13 نيسان 2003.

حـــسين]"، داعـــياً إلى إيقاف "محرقة الأرواح التي تلقى فريسة في ساحة المعركة. وهكذا سأل المقدسي المسلمين: "عن أي عراق تتكلّمون؟ عن العراق البعثي لصدام حسين [...]، الذي أفنى المسلمين في حلبجة بالغازات الكيماوية؟ [...] أين كنتم في كل مرة ساندت الولايات المتحدة إسرائيل ضد إخواننا مسلمي فلسطين؟ [...] أين كنتم عندما قصفت طائرات الصليبيين كابول، وغارديز، وهيرات، وقندهار؟".

كـــان المقدسي في ذلك الوقت سجيناً في الأردن، وكل شيء يدعو للاعتقاد بـــأن هذا البيان قد تمّ تحريره بإرشاد من دائرة المخابرات العامة الأردنية GID، في الـــوقت الذي شرع فيه الأميركيون في هجومهم على النظام العراقي، في حين أن المقدســـي كـــان مـــستعداً، قبل عشر سنوات، لاستخدام كل الأسلحة، بما فيها الأسلحة الكيماوية، ضد النظام الأردني والمصالح الأميركية.

كتب المقدسي في العام 2004 بياناً آخر من سجن "قفقفا" الأردني، وكشف فيه عن وجه آخر لشخصيته، وهو على الأرجح أكثر مصداقية من السابق. وفيه لم يتـــردّد المقدسي في نقد بعض الاختيارات العملياتية للزرقاوي حيث قال: "لم تكن قرارات الزرقاوي أحياناً جيدة، فقد اختار أشخاصاً لا خبرة لهم بالجهاد"(1). لكنه دعـــم معـــركته في العراق فقال: "وأضيف بصراحة أنني أؤيد أخي الزرقاوي ضد جمـــيع أعدائـــه [...]. وما أعرفه عن الزرقاوي، أنه مستعدّ لبذل روحه، ودمه، وماله، وحياته لمساعدة إخوانه [...]. حفظه الله وسدّد خطاه في الطريق الصحيح، الأمر الذي يتيح له وللذين معه أن يساعدوا **التوحيد**"(2).

منذ نهاية شهر آذار من العام 2003، عرضت أنصار الإسلام في موقعها على الإنتـــرنت صور جثث عسكريين أميركيين وأجساد مبتورة من شريط دعائي بثّته هيئة من القاعدة.

ودعا ثابت بن قيس، الناطق الجديد باسم القاعدة، في 24 آذار، المسلمين إلى "المـــشاركة في الجهاد ضد الأميركيين في العراق"، ورفض في الوقت نفسه التكلّم بشأن عمليات القصف الأميركي على قواعد أنصار الإسلام في كردستان العراق،

(1) رسالة بعنوان "نصيحة من الشيخ المقدسي إلى أبي مصعب الزرقاوي"، 2004، وثائق المؤلف.

(2) المصدر السابق.

إذ قـال: "لست معنيّاً بتقديم خدمة للأميركيين، من أجل أغراض الدعاية التي لن تكون لها حتماً إلا فائدة محدودة بالنسبة للأعمال التي يشنّها بنجاح المجاهدون ضد قوى الغطرسة"[1]. إن تلك الرسالة ليست أقل وضوحاً مما سبق، وتمّ بثّها بالكامل في موقع أنصار الإسلام على الإنترنت.

في 15 نيسان من العام 2004، أخيراً شاركت منظمة أنصار الإسلام بشكل رسمي في المقاومة المسلحة ضد الولايات المتحدة ببيان[2] دعت فيه العراقيين إلى الردّ على الاحتلال الأميركي بالجهاد وبقتال "عصابة الخونة والمجرمين" عن طريق الاستشهاد و"العمليات البطولية" التي ستبقى في التاريخ "درساً بليغاً وعميقاً" لجميع أولـئك الذين يريدون مهاجمة الإسلام والمسلمين. وفي البيان نفسه، تبنّت المنظمة عدّة هجمات، ضدّ طائرة عسكرية، وضدّ موكب بول بريمر، وضدّ الجنرال أبي زيد.

وختم البيان قوله مهدّداً باستعمال "جميع الأسلحة التي بحوزتنا، سواء أكانت عادية، أو كيماوية، أو نووية أو جرثومية" ضد العدو الأميركي، وحذّر قائلاً: "استعدّوا لأيام أكثر حلكة من الحادي عشر من أيلول 2001".

وأضاف الناطق باسم أنصار الإسلام، كما لو أنه بحاجة لأن يكون أكثر وضوحاً: "نحن ندعم دعماً قوياً الأبطال الذين يقومون بمهام صعبة، مثل أعضاء تنظيم القاعدة، بقيادة الصاحب الجليل والشجاع، حامل لواء الجهاد، الرجل المقدام أسامة بن لادن". إن أنصار الإسلام ستكون أداة الرعب الجديدة.

منذ خريف العام 2003، أثبتت العديد من الأحداث التقارب القائم بين شبكة الزرقاوي وشبكات أنصار الإسلام. وهكذا، اعتقلت القوات الأميركية حسان اليمني، مساعد الزرقاوي، في حين أنه ممثل أنصار الإسلام في مدينة الفلوجة. وفي 22 كانون الثاني من العام 2004، أسر الجنود الأكراد عضواً آخر من

---

(1) "المتحدث الجديد باسم القاعدة يتوقّع "مصيراً مشؤوماً للحملة الصليبية الأميركية في العراق"، صحيفة الشرق الأوسط، 24 آذار 2003.

(2) موقع تركي على الإنترنت لأنصار الإسلام www.cihad.net, site Internet turc d'Ansar Al-Islam.

أعـــضاء الحـــركة في كردســـتان، وهـــو حسن غول، مقاتل باكستاني سابق في أفغانـــستان، مقرَّب من أسامة بن لادن وخالد شيخ محمد، ومخطط اعتداءات 11 أيلـــول 2001. واستجوب الأميركيون أيضاً في الموصل، في تشرين الأول من العام 2003، آصو هولري، المعروف باسم آزاد محمد حسن، وهو الرقم ثلاثة في أنصار الإســـلام ومقـــرَّب من الزرقاوي. وفي 30 أيار من العام 2004، تمّ اعتقال عمر بايزاني، مخطّط الهجمات ضدّ القوات الأميركية في العراق[1].

في شـــهر أيار من العام 2004، أصبحت الحركات السنية المتطرفة في العراق تكافح من أجل بقائها. وطمح أنصار الإسلام، وأنصار السنّة، والسلفية الجهادية، وكـــتائب أبي حفـــص المـــصري بالمقدار نفسه إلى لعب الدور المحفِّز للجماعات الجهاديـــة. وكمـــا كـــان الزرقاوي قد فعل في كردستان، فإنه اعتمد على تفرقة وتشرذم تلك الجماعات لكي يفرض نفسه موحِّداً.

واختار الزرقاوي أن يضرب ضربته الكبرى لإقناع مختلف الفصائل بالانضمام إلـــيه. ففي 9 نيسان من عام 2004، تمّ اختطاف أميركي عمره 26 سنة من غرب بغـــداد. وفي 11 أيار من العام 2004، قام الزرقاوي بإعدامه. إن موت نيكولاس بـــيرغ ســـيكون العمـــل المميت الذي أنشأ ذلك "الاتحاد الجهادي" الذي صاغه الزرقاوي. لقد تمّ عرض صور فيديو القتل في موقع على الإنترنت لأنصار الإسلام بعنوان" الشيخ أبو مصعب الزرقاوي يذبح كافراً أميركياً". وفي إخراج تكرّر كثيراً مـــنذ ذلـــك الحين، ظهر الزرقاوي ومساعدوه مقنَّعين خلف رهينة مقيّدة جاثية، بلباس برتقالي اللون، على غرار ما يرتدي السجناء المسجونون في غوانتنامو. وقرأ الزرقاوي أو أحد مساعدوه آنذاك بياناً وبّخ فيه العدو الأميركي ودعا المسلمين إلى الانضمام إلى صفوف المقاومة في العراق. وقال الزرقاوي الذي حتى ذلك الحين لم يخـــض حرباً أبداً في مكان آخر إلا في الزرقاء: "لقد سئمتم من المناظرات الخطابية والنقاشات العامة [...]. وقد حان الآن وقت الجهاد واستلال السيف الذي أرسله إلـــينا النبي". وقد ذكر كلمة "الانتقام"، وختم بيانه بهذه العبارات: "ستشاهدون

(1) "أنـــصار الإســـلام تـــدعم الشبكة الأوروبية"، صفحة المراجعة الاستخباراتية في موقع جينـــز (Jane's)، 21 أيلول 2004.

إخوانكم المقاتلين يعلّقون رأس هذا الكافر تحت أحد جسور بغداد، لئلا ينسى أحد الطـريقة التي نعامل بها الكفرة. فليكن ذلك شهادة شرف للمسلمين"[1]. ثم، وفي إخـراج وحشي إلى أبعد الحدود، يتمّ قطع رأس الرهينة. إنها بداية مسلسل طويل من إعدام الرهائن.

بعـد يومين، أعلنت الجماعة السلفية، بزعامة أبي دجانة العراقي، عن اتحادها مع الجماعة التي أسّسها الزرقاوي: التوحيد والجهاد.

واتفقـت الجماعتان، في 13 أيار من العام 2004، في بيان مشترك وقّع عليه الزرقاوي والعراقي، على أن "التشتت ضعف وأن الوحدة - علاوة على أنها فرض شـرعي - هي واجب تفرضه الظروف [...]. وإن جنود الجهاد وفرسان الإسلام [...] بحاجـة لأن يـتوحّدوا تحـت ظلال السيوف وفي غبار المعارك". وأكّدت المنظمتان على أن "قاعدتهما هي التوحيد، ومنهجهما هو السلفية السنّية، وسبيلهما هـو الجهاد". واقتبس الزرقاوي معزّزاً بأعضاء الجماعة السلفية، الذين يعترفون به "زعيماً لهم في وسط جماعة التوحيد والجهاد"[2] من المفردات السياسية الأميركية، ليصف التحالف بأنه "بطاقة تذكرة "من أجل انتصار الجهاد.

أمـا بالنـسبة لأنصار السنة، فقد قامت بالعديد من العمليات المشتركة مع جماعـة الزرقاوي بدءاً من شهر تشرين الثاني[3]. ولن تكون أنصار الإسلام بحاجة حـتى لقواعد لتجعل وسائلها منظمة لصالح الزرقاوي. أما أبو عبد الله الشافعي، الـذي أُشير إلى اسمه، في أفغانستان، في سجلّ عثر عليه في معسكر تدريب حينما اشتُهر بقيادته "للكتائب الإسلامية في كردستان العراق"، فقد منح إخلاصه لأسامة بن لادن[4].

إضـافة إلى ذلـك، لـيس من قبيل المصادفة أن الزرقاوي قد اقتبس اسم

(1) "الـشيخ أبو مصعب الزرقاوي يذبح كافراً أميركياً"، بلاغ إلى الأمة، تسجيل فيديو، 11 أيار 2004، وثائق المؤلف.

(2) "توحيد المجاهدين السلفيين والتوحيد والجهاد"، بيان، 13 أيار 2004.

(3) بيان أنصار السنّة، 10 تشرين الثاني 2004، وثائق المؤلف.

(4) سـجلات داخلـية لمـنظمة القاعدة تمّ الاستيلاء عليها في أفغانستان في منـزل الضيافة الذي يستخدمه أسامة بن لادن، الصفحة التاسعة، وثائق المؤلف.

حركته الجديدة من جماعة التوحيد التي كان يتزعّمها الشافعي قبل تأسيس جند الإســـلام ثم أنصار الإسلام مع الملا كريكار. لكنه أمر صحيح على الأخص أن يـــبدو هـــذا الاختـــيار أيضاً تكريماً من الزرقاوي لمرشده. لقد كانت التسمية موجـــودة قبل أربع سنوات، حيث إن المقدسي، الذي كان يبدو أنه تجافى عن معـــركة الـــزرقاوي قـــبل عام، كان قد أطلق على موقعه على الإنترنت اسم: التوحيد والجهاد[1].

ومهمـــا يكن، فقد أسّس الزرقاوي في أيار من العام 2004، في ظلّ التوحيد والجهـــاد، تحالفـــاً حقيقياً بين الحركات الجهادية، التي واصل بعضها العمل باسمه الأصلي، لكنها عملت جميعاً منذ ذلك الوقت تحت إشراف الزرقاوي. وهذا يتعلّق خـــصوصاً بأنـــصار الإســـلام، وأنصار السنّة، وجيش محمد، والجماعة السلفية، والتكفير والهجرة، وجند الشام.

(1) http//www.almaqdese.com.

الفصل السادس

الرعب

الـــزرقاوي ليس مخططاً عسكرياً. لذا فهو يفرض نفسه بالقوة الفظة أمام الغـــازي الأميركي. و لم يقدم تحالفه التحاماً حقيقياً، اللهم إلا التحام البربرية، كمـــا أن جماعـــته لا تمتلك أي منظور سياسي. لقد نشأت تلك الجماعة من اتحـــاد غريب ضمَّ "العرب الأفغان" الذين فرّوا من أفغانستان، وأردنيين محبّين للـــثأر، ومقـــاتلين محـــبطين لعدم تمكّنهم من القتال في أفغانستان، والبوسنة، والشيشان.

لقـــد انحـــصرت المرجعية الدينية للتوحيد والجهاد في مرشدين رئيسيين من المتطـــرفين المسلمين، بدءاً من سيد قطب، المرشد الديني السابق للإخوان المسلمين، وانـــتهاء بأبي قتادة وعبد الله عزام، مرشد أسامة بن لادن. لقد أظهر التنظيم ميلاً قـــوياً نحو أدبيات الشهادة، واتخذ على الدوام من الشهداء مرجعاً، مثل أبي حفص المـــصري (اســـم أحـــد الجماعات الجهادية الناشطة في العراق)، المعروف بمحمد عاطف، زعيم القاعدة العسكري، الذي قُتل أثناء الهجوم الأميركي على أفغانستان، وعبد العزيز المقرن، مسؤول القاعدة في المملكة العربية السعودية الذي قتلته أجهزة الأمن السعودية في حزيران عام 2004.

بحـــسب دراســـة قامت بها أجهزة الاستخبارات العراقية عام 2004[1]، فإن جماعة التوحيد والجهاد تتألّف من 1000 إلى 1500 مقاتل أصلهم من العراق ومن بلاد إسلامية أخرى. ويقدّر الجيش الأميركي عدد المقاومين الناشطين في العراق ما بـــين 8000 و12000 إســـلامي، وبحـــوالى 20000 إن حـــسبنا معهم أيضاً عدد

---

(1) ملخـــص عن تقرير استخباراتي حول أبي مصعب الزرقاوي، السلطة العراقية المؤقتة، 23 أيلول 2004، وثائق المؤلف.

المـــؤيدين[1]. ويحوي تنظيم الزرقاوي خصوصاً العديد من المختصين بالمتفجرات، والقذائف، والأسلحة الكيماوية.

لقـــد أحـــاط الـــزرقاوي نفسه بدائرة مصغرة جداً من المقربين والمساعدين المخلصين، ومن بينهم:

- *أبو أنس الشامي، المعروف باسم عمر يوسف جمعة*

وهو أحد أشدّ المقربين. ولد هذا المتدين الأردني في عمان عام 1969، وكان مـــثله مـــثل الزرقاوي، تلميذاً لأبي محمد المقدسي، نشأ في المملكة السعودية التي هاجرت عائلته إليها. وتخرّج من جامعة مكة عام 1990 قبل أن يستقرّ في الكويت. بعـــد حرب الخليج الأولى، عام 1991، عاد الشامي إلى الأردن حيث أصبح إمام مـــسجد ثم مديراً لمركز الإمام البخاري في ماركا. وذهب خلال التسعينيات إلى البوسنة والهرسك، بصفة رسمية باعتباره مبعوثاً. ولدى عودته إلى الأردن، شارك في تأســـيس حـــركة إسلامية هي جماعة السنّة والكتاب. أغلقت السلطات الأردنية مـــسجده. وفي عام 2003، اعتقلته الشرطة الأردنية لعدّة أيام بسبب نشاطاته، ثم أعلـــن عن رحيله إلى المملكة السعودية. لكنه، ذهب في الحقيقة إلى العراق حيث اخـــتير زعـــيماً دينياً للتوحيد والجهاد. وفي نيسان عام 2004، نشر على الإنترنت قـــصة المعـــارك المشتعلة ضدّ الأميركيين في المثلث السُّني، بعنوان معركة الفلوجة. وقال: "انعقد المجلس الشرعي بطلب من قائدنا أبو مصعب الزرقاوي [...] لتقييم الوضع. بعد عام من المعارك، لم يكن الجهاد دائماً بارزاً، ومخابئنا كانت مكشوفة، والعديـــد من القادة اعتقلوا. علينا أن نغيّر من الاستراتيجية على الصعيد العملياتي، لـــذا قرّرنا أن نجعل من الفلوجة ملاذاً آمناً وموقعاً حصيناً". وفي 28 تموز من العام 2004، بـــثّت التوحـــيد والجهـــاد رسالة صوتية منسوبة للشامي. حيث دفع فيها باستراتيجية الفوضى إلى ذروتها، تلك الاستراتيجية التي يشيد بها الزرقاوي، حيث قـــال: "إن تحـــصّن الكفار بالمسلمين وإن كان أولئك المسلمون يرفضون مقاتلة الكفرة، فمن الجائز قتل أولئك المسلمين". وهكذا هاجم الشيعة "الذين تحالفوا مع

---

(1) "تقديـــرات من الولايات المتحدة عن رؤية المزيد من الجماعات المسلحة والمزيد من التمويل"، صحيفة نيويورك تايمز، 22 تشرين الأول 2004.

الكفار". وظهر اسمه خلال محاكمة رجل أردني، هو بلال منصور محمود الحياري، الملاحق لتمويله القاعدة على شكل هبات خيرية. وكان الشامي قد أقنعه بجمع أموال لصالح المقاومة العراقية في آذار عام 2003. وقد ذهب الحياري إلى العراق حيث اقترح عليه الزرقاوي أن يجمع أموالاً لصالحه. وقد قُتل أبو أنس الشامي في 20 أيلول عام 2004 على يد قوات التحالف في العراق[1].

- *خالد مصطفى خليفة العاروري، المعروف بأبي القسام وبأبي أشرف*

لا شك أن هذا الأردني البالغ من العمر 37 عاماً هو أقدم صديق للزرقاوي وقد تزوّج أخته. واتُّهم الاثنان ثم سجنا معاً في الأردن في إطار تفكيك جماعة بيعة الإمام عام 1994. وقد تبع الزرقاوي إلى أفغانستان، وإيران، ثم إلى كردستان. إنه رجل المهمات الخاصة للزرقاوي، في العراق وفي الخارج.

- *عبد الهادي أحمد محمود دغلس، المعروف بأبي عبيدة أو أبي محمد الشام*

شارك دغلس أيضاً عام 1994 في تأسيس بيعة الإمام في الأردن مع الزرقاوي. وهو أحد المقاتلين الذين اختارهم الزرقاوي لشنّ عمليات في إسرائيل، لكن السلطات الأردنية اعتقلته عام 1994. وقد بثّ النشاط في معسكر هيرات في أفغانستان قبل أن يتبع الزرقاوي في هروبه. وفي 12 أيلول عام 2004، نشرت التوحيد والجهاد بياناً أعلنت فيه عن موته في العراق.

- *نضال محمد العرب، المعروف بأبي حمزة محمد*

إلتحق هذا الأردني بالمعسكرات الأفغانية عام 1999. وقد أصبح خبير متفجرات، ونظّم التحضير لمعظم الاعتداءات بالسيارات المفخخة التي تبنّتها المنظمة. قتلته القوات الأميركية عام 2003.

- *أبو محمد اللبناني*

إن اللبناني هو جندي لبناني سابق وخبير متفجرات. عاش لفترة طويلة في الدانمرك قبل أن يستقرّ في العراق عام 2003.

(1) "محكمة أمن الدولة تبدأ بمحاكمة متعاون مع الزرقاوي"، صحيفة الرأي، 16 أيلول 2004؛ "مقتل أبي أنس الشامي ضربة قوية لجماعة الزرقاوي"، صحيفة الشرق الأوسط، 24 أيلول 2004.

- *أبو علي العراقي*

خبير صواريخ وكان قد خدم في الجيش العراقي.

- *حسن إبراهيم*

منسق الدعاية في الجماعة، ويساعده معاونان.

إضـــافة إلى تلـــك النواة من المقربين، هناك حوالى عشرة أردنيين يبلغ متوسط أعمـــارهم ثلاثـــين عاماً، وهم جزء من الكوادر العليا لمنظمة التوحيد والجهاد، وهذه الحلقة الأولى للزرقاوي، تضمّ على الخصوص: موفق علي أحمد العدوان المعروف بأبي عمـــر وأبي أنـــس الجعفري، جمال رفعت راتب العتيبي المعروف بأبي عبد الله وجمال عوايس، صلاح الدين محمد طاهر العتيبي المعروف بعبد العزيز العنـــزي وبأبي جهاد، ومحمـــد إسماعـــيل نايف الصفدي المعروف بأبي الحارث، ساري محمد حسن شهاب المعـــروف بـــأبي سفر وصهيب، معاذ إسعاف عبد الله النسور المعروف بأبي القعقاع، شـــحادة ناجـــي شحادة الكيلاني المعروف بعز الدين، محمد راتب إبراهيم قطيشات المعـــروف بخالـــد[1]، مـــنذر عبد اللطيف يوسف شما المعروف بأبي الحارث ومنذر الطموني، وأخيراً عمر عز الدين عصام العتيبي المعروف بالبتّار وزكريا عمر البرقاوي.

لقد نظّمت التوحيد والجهاد في حلقات مشتركة المركز مستقلة ذاتياً وكانت الاتـــصالات مع الحلقة الأولى للزرقاوي تمرّ عبر العديد من الوسطاء، الأمر الذي جعـــل مـــن الصعب إلى أقصى الدرجات تحديد مكانه أو بالأحرى تحديد تسلّله. أضـــف إلى ذلك أنه ليس بأمر مستبعد أن يوجّه الزرقاوي أعمال الجماعة انطلاقاً مـــن دولـــة أجنبـــية، مثل إيران أو سوريا، حيث تمّ رصد مكانه فيهما مراراً بعد انطلاق الهجوم الأميركي على العراق.

قُسّمت المنطقة الأولى لنشاط التوحيد والجهاد، "المثلث السُّني"، إلى تسع قيادات عملياتية مستقلة ذاتياً. وتحوي مدينة الفلوجة، التي تستخدم مركزاً لقيادة الحركة، 500 مقاتل هم تحت إمرة أبي نورس الفلوجي. كما تحوي منطقة بغداد 50 مقاتلاً يوجّههم عمـــر بازياني، والذي اعتقلته حديثاً القوات الأميركية. أما المنطقة الشمالية فيوجّهها حـــسين سالم. وتضمّ محافظة الأنبار 60 مقاتلاً يقودهم أبو عزام عبد الله. وقائد مدينة

(1) ورد الاسم في الأصل الفرنسي على هذا النحو: Khaid، والأصح هو خالد. (المترجمة).

الموصـــل هـــو أبو طلحة، الذي يشرف على 400 مقاتل. وقدَّرت أجهزة المخابرات العراقية أن ما يزيد على 50 مقاتلاً من التوحيد والجهاد قد يكونون موجودين في مدينة الــسامراء، و80 في محافظة ديالى، و150 في مدينة القائم القريبة من الحدود السورية. وتتفرّع كل قيادة محلية أو إقليمية إلى مفارز، كما هي الحال في الفلوجة.

في رســالة تحمــل تــاريخ عام 2004 والتي كتبها المقدسي في السجن، قدّم المقدســي بعض النصائح للزرقاوي لإنجاح معركته في العراق فقال: "... وأنصح أيــضاً باتخاذ مجموعة إسلامية مع قيادة عراقية هي أدرى بشعبها وأدرى بمخاطبته"[1]. ويــبدو أن الزرقاوي اتبع تلك النصائح، ففي الفلوجة، في نهاية شهر تشرين الثاني عام 2004، كان أحد آخر عسكرييه ما زال موجوداً في تلك المدينة خلال الهجوم الأميركــي وهــو عمــر حديد، عراقي، وعضو سابق في الحرس الخاص لصدام حسين[2].

بحسب أجهزة الاستخبارات الأميركية، فإن المقاومين في العراق قد استطاعوا الوصــول إلى تمــويل "غير محدود" مصدره الرئيسي جهتان، المتبرعون السلفيون والمــنظمات الخيرية الإسلامية. وكانت الأموال تمرّ بشكل رئيسي عبر سوريا[3]. وتتمتّع جماعة الزرقاوي أيضاً بشبكاتها التمويلية الخاصة. ففي عام 2004، أوقفت الأجهزة الأردنية رجلاً أردنياً جنّده الزرقاوي لجمع تبرعات من المساجد من أجل منظمـــته في العــراق. وكانت الأموال التي يجمعها بلال منصور الحياري تصل إلى الــزرقاوي بواسطة عدّة مبعوثين عبر سوريا. وقد اعترف الحياري هو نفسه بجمع 3000 دولار لــشراء ســيارة ماركــة "أوبــل" والتي تسلّمها الزرقاوي وهو في العراق[4].

(1) رسالة بعنوان "نصيحة من الشيخ المقدسي إلى أبي مصعب الزرقاوي"، 2004، وثائق المؤلف.

(2) "أحد رجال الزرقاوي العسكريين على رأس متمردي الفلوجة"، وكالة الأنباء الفرنسية AFP، 19 تشرين الثاني 2004.

(3) "تقديــرات من الولايات المتحدة عن رؤية المزيد من الجماعات المسلحة والمزيد من التمويل"، مصدر سبقت الإشارة إليه.

(4) "محكمــة أمن الدولة الأردنية تبدأ بمحاكمة مشتبه بالتعاون مع الزرقاوي"، صحيفة الرأي، 16 أيلول 2004.

حاول الزرقاوي بنشاط منذ شهر كانون الثاني عام 2004 أن يحشد من أجل قضية المقاومة مقاتلين إسلاميين. وفي 5 كانون الثاني من العام 2004، وفي رسالة صوتية مدّتها ساعة بثّتها مختلف المواقع الداعمة له، أطلق نداء إلى المسلمين للانضمام إلى الجهاد في العراق، مستشهداً بأشهر الأصوليين الدينيين[1].

بدأت عمليات الجماعة بعد 5 نيسان من العام 2004، عندما شنَّ الجيش الأميركي هجومه الأول على مدينة الفلوجة. ومنذ 9 نيسان، تمّ اتخاذ أول أميركي رهينة ثم إعدامه. وتلا ذلك اتخاذ رهائن آخرين أميركيين، وكوريين جنوبيين، وأتراك ابتداء من شهر حزيران.

في 6 نيسان عام 2004، وغداة الهجوم الأميركي على مدينة الفلوجة، نشر الزرقاوي بياناً مطولاً أوضح فيه أنه يقاتل الأميركيين والمتعاونين معهم، لا سيما أكراد UPK والشيعة. وتبنّى عدّة عمليات، لا سيما الهجوم على مقرّ منظمة الأمم المتحدة في بغداد، وهجمات أخرى على قوى التحالف في كربلاء، والناصرية، وبغداد. وذكر أيضاً عملياته ضد أجهزة الاستخبارات الأميركية[2].

وبلغ هجوم جماعة الزرقاوي أوجه على المتعاونين مع الأميركيين في 23 تشرين الأول من العام 2004 باغتيال خمسين متطوعاً عراقياً من الحرس الوطني الذين غادروا معسكر التدريب القريب من كركوك. وتبنّى الزرقاوي العملية في اليوم التالي، مؤكداً على أن جماعته قتلت "فاسدين" وأنها نجحت في" الاستيلاء على مركبتين وعلى رواتب الجنود التي تلقّوها لتوّهم من أسيادهم"[3].

إن الزرقاوي يعلم أنه سيكسب هذه الحرب قبل كل شيء بتعبئة الرأي العام الغربي ضد الاحتلال. وستصبح الأهداف المدنية الهدف الأول للمنظمة.

(1) "يأسف رجل القاعدة أبو مصعب الزرقاوي لتخلي المسلمين عن الجهاد"، تقرير مركز خدمات الإعلام الخارجي الأميركي FBIS، 6 كانون الثاني 2004.

(2) "نص رسالة الزرقاوي الذي يهدّد بالمزيد من الهجمات"، تقرير مركز خدمات الإعلام الخارجي الأميركي FBIS، 6 نيسان 2004.

(3) بيان جماعة الزرقاوي، 14 تشرين الأول 2004، وثائق المؤلف.

الفصل السابع

استراتيجية الرهائن

في 17 أيلـــول عام 2004، اقترب اللبنانيان، شربل، 31 سنة، وآرام، 47 سنة، وهما مستوردا إسمنت، بسيارتهما من معقل السُّنة في الفلوجة، الواقع على بعـــد 50 كيلومتـــراً غرب بغداد. ولاحظا حاجزاً حسبا أنه للشرطة العراقية. لكـــنهما سرعان ما أدركا أن الرجال المقنعين والمسلحين الذين أشاروا إليهما بالـــتوقف ليـــسوا من القوات النظامية. ثم أبصرا راية تخفق فوق أعلى عمود، وتحمـــل رسم كلاشينكوف وساعد مصوَّبين نحو السماء يستندان إلى قرآن يمتدّ فـــوق الكرة الأرضية، وبدت تلك العبارة واضحة فوق خلفية سوداء: التوحيد والجهاد.

حيـــنما توقّفا، طُلب منهما إبراز أوراقهما. وأخطرهما رجال الزرقاوي بأنه ســـيتمّ استجوابهما لأنهما غريبين. ثم عُصبت أعينهما بقطعة قماش يدعمها سلك معدني، ونُقلا في سيارة إلى أحد المنازل. وهناك، قدّم لهما الخاطفون، الذين ما زالوا مقنّعين، ملابس تقليدية، منها السراويل الشهيرة الفضفاضة التي يرتديها الإسلاميون الـــسلفيون. وحـــاول رئيسهما في العمل، الذي ظلّ في بغداد، الاتصال بهما عبر هاتفهمـــا المحمـــول. فردّ عليه عراقي قطع المخابرة في الحال. فأدرك رئيسهما أن مستخدميه قد اختطفا للتوِّ.

اســـتمرّ الاســـتجواب خمـــسة أيام. لقد أراد الخاطفون التأكّد فيما إذا كان اللبنانـــيان قـــد تعاونا بطريقة أو بأخرى مع الأميركيين. كان عليهما أن يتكلّما وبـــأدق التفاصيل عن قصتهما، والشركة التي تستخدمهما، وجنسية المستخدَمين الأجانب، والزبائن في العراق، ومناطق التسليم... لاحقاً تحدث هذان اللبنانيان عن "حرب أعصاب" حقيقية، حيث حُرما من النوم وبقيا مستيقظين. يتذكّر آرام "كنا

نتكهّن بأوقات النهار بفضل الآذان" الذي ينطلق من المساجد[1].

وحينما سُمح لهما بنزع العصابتين عن أعينهما، ألفيا نفسيهما أمام خاطفين مقنعين. والذين أكّدوا لهما أن بوسعهما الاستحمام كل يوم والأكل حتى الشبع. وكان لديهما حتى الوسائد والفُرُش ومروحة تهوية.

بعد تلك الأيام الخمسة، نُقلا إلى منزل آخر لم يعودا فيه وحيدين. وبدأ آنذاك انتظار طويل، تتخلّله صرخات عراقيين يتعرّضون للتعذيب في غرف مجاورة أو أصوات رهائن أجانب. ويتذكّرا على الخصوص رجلاً مصرياً أقل حظاً منهما انتهى به الأمر إلى الإعدام.

بعد أن تمّ التأكد من أنهما كانا يعملان فعلاً من أجل العراق وليس من أجل الأميركيين، قرّر خاطفوهما إطلاق سراحهما، وقدما لهما حتى وجبة وداع. لكن نهاية محنتهما تأخّرت بسبب غارة أميركية على مدينة الفلوجة. ففي 12 تشرين الأول عام 2004، هدّمت القوات الأميركية عدّة مواقع استخدمتها شبكة الزرقاوي، ومنها المنزل الذي احتجزت فيه الرهائن. وهكذا، أمضيا ساعتين تحت الأنقاض، ساق أحدهما مكسورة، وحوض الآخر مهشّم. وبحسب هذين اللبنانيين، فإن خمسة مقاتلين قد قُتلوا خلال تلك الغارة ودفنهما رفاقهم في اليوم نفسه دون نقلهما إلى المشرحة في المستشفى.

أخيراً حُرِّرت الرهينتان اللبنانيتان في اليوم التالي، بعد انقضاء سبعة وعشرين يوماً من الاحتجاز، وبعد استشفاء قصير في مستشفى الفلوجة[2]. ومن المحتمل أن يكون صاحب عمل هذين الرجلين قد دفع فدية إلى الجماعة. إن سياسة انتهاج الأسوأ، التي كشفت عنها في نيسان عام 2004 جماعة الزرقاوي، نادراً ما انتهت إلى تلك الخاتمة.

وأكّد لبناني آخر، هو محمد رعد، احتُجز رهينة في الوقت نفسه، أنه حُبس في غرفة مظلمة أرضها ملطّخة بدم جاف. وروى كيف أن عراقياً كان يشحذ

(1) "لبنانيان يخرجان أحياء من وكر الزرقاوي"، AFP وكالة الأنباء الفرنسية، 14 تشرين الأول 2004.

(2) "لبنانيان يخرجان أحياء من وكر الزرقاوي"، مصدر سبقت الإشارة إليه؛ "اللبنانيان المحرران في العراق كانا مختطفان من جانب التوحيد والجهاد"، وكالة الأنباء الفرنسية، 13 تشرين الأول 2004.

سكيناً بواسطة حجر كبير أمام زنـــزانته، وأنه جاء ذات يوم وأخرجه "ليريه شيئاً سـيكون درسـاً لجمـيع اللبنانـيين الذين تسوِّل لهم أنفسهم التعاون مع الجيش الأميركي"[1]. آنذاك، وصلت سيارتان بالقرب من المنـزل الذي كان محتجزاً فيه. وأُخرج رهينة مصري من صندوق إحدى السيارتين. كان بملابسه الداخلية فقط، وجسده كله مزرقّ اللون من كثرة الضرب. وتمّ وضع محمد رعد في غرفة مجاورة، خلف مصوِّر، وحارس إلى جانبه. وألبسوا المصري لباساً قبل أن يجعلوه جاثياً على الأرض.

وروى لــه أحد الخاطفين باختصار قصة ذلك المصري. كانت تلك المرة الثانـية التي يتمّ اختطافه فيها: في المرة الأولى كان يُتلف علناً أسطوانات (CD) الدعـوة في مديـنة الفلـوجة، أما في هذه المرة، فقد كان متّهماً بتوفير النساء للجنود الأميركيين.

بعـد ذلك ربط الخاطفون يدي المصري وراء ظهره وطلبا منه أن يُصرّح عن هويـته، موطـنه، وعنوانه، ونشاطه. وبعد أن قام بما طُلب منه، أراد الاعتذار عن أفعالـه. حيـنذاك أشار رجل إلى "الجلاد" الواقف خلف الرهينة. فأمسك بلسان الرهينة وقطعه قبل أن يعلن أن وقت الاعتذار قد فات. وحُشي فمه آنذاك بالقطن. ثم قرأ "الجلاد" بياناً على شكل إدانة، والرهينة المصري على الأرض، بعدها أمسك أحد الخاطفين قدميه. وضرب عنقه[2].

في تـشرين الأول عام 2004، حمّلت هيئة أركان الحرب الأميركية الزرقاوي مسؤولية موت 675 عراقياً و40 أجنبياً، وكذلك أكثر من 2000 جريح منذ بداية هجوم التحالف[3].

مـنذ شهر كانون الثاني 2004، وفي رسالة نُسبت إلى الزرقاوي، تبنّى الزرقاوي جُـلَّ العمليات التي شُنَّت على قوات التحالف: "كل العمليات الاستشهادية التي تمّت

(1) قناة العربية، الإمارات العربية المتحدة، 10 تشرين الأول 2004.

(2) المصدر السابق.

(3) "أحـد المـسلحين المطلوبين يقدم الولاء لاسامة بن لادن، كما جاء في مواقع على الإنترنت"، صحيفة نيويورك تايمز، 18 تشرين الأول 2004.

ما عدا عمليات الشمال كنا مفتاحاً لها[1]. بحمد الله، أمرت بتنفيذ 25 عملية إلى الآن، وبخاصة ضد [...] الأميركيين وعساكرهم، وقوات التحالف"[2]. لقد اختطفت الجماعات المتمردة الإسلامية الناشطة في العراق بمجموعها، خلال عام 2004، أكثر من 150 أجنبياً، من بينهم أميركيين، وبريطانيين، ولبنانيين، وأردنيين، ومصريين، وأتراك، ونيباليين، وكوريين جنوبيين، وباكستانيين، وإيطاليين، وبلغار، وفرنسيين.

وكل شيء بدأ، كما قلنا، مع اختطاف نيكولاس بيرغ، في 19 نيسان عام 2004، رجل الأعمال الأميركي، ذاك البالغ من العمر 26 عاماً. لقد أثار هذا الاختطاف الذي تبنّته جماعة الزرقاوي، فوراً سخطاً في العالم أجمع. بيد أن ذلك افتتح موجة خطف رهائن في العراق كشفت عنها الجماعات الرئيسية للمقاومين الإسلاميين. فها هي الكتيبة الخضراء تتبنّى عملاً مشابهاً بعد بضعة أيام، ويتبعها الجيش الإسلامي في العراق، وجماعة أنصار السنّة وكتائب أبي بكر الصديق.

سرعان ما يتوالى موكب الإعدامات. وتتبنّى التوحيد والجهاد ما يقارب عشرة إعدامات خلال ستة أشهر، منها إعدام نيكولاس بيرغ في شهر أيار، والكوري الجنوبي كيم سون - إيل في شهر حزيران، والبلغاريين جورجي لازوف وإيفايلو كيبوف في شهر تموز، والتركيين مراد يوسي ودورموس كومدريلي في شهر آب، والأميركيين يوجين "جاك" أرمسترونغ وجاك هنسلي في شهر أيلول، والبريطاني كينيث بيغلي في شهر تشرين الأول. وفيما يتعلّق بالاختطاف والإعدام، تمتاز جماعة الزرقاوي عن الإسلاميين المنافسين بعدّة جوانب. فالجماعة، بالدرجة الأولى، وإن هي تشيد بسياسة الفوضى في العراق، إلا أنها انتقائية جداً في أهدافها: إذ تستهدف على نحو رئيسي الغربيين وأعوانهم.

وهي، إضافة إلى ذلك، تخطف بالمقام الأول رجال دين أو سياسة وذلك لتثير أكبر صدى إعلامي ممكن. وعلى هذا النحو تبنّت التوحيد والجهاد اغتيال عز الدين

(1) النص الأصلي للرسالة هو:"... وكل العمليات الاستشهادية التي تمّت عدا عمليات الشمال كنا بحمد الله مفتاحا لها رصداً وإعداداً وتخطيطاً. وقد كملت بحمد الله حتى الآن خمس وعشرون فمنها في الرافضة ورموزهم والأميركيين وعساكرهم والشرطة والجنود وقوات التحالف". (المترجمة).

(2) مقتطف من رسالة أبي مصعب الزرقاوي، السلطة المؤقتة في العراق، 23 كانون الثاني 2004.

ســالم، رئيس مجلس الحكم المؤقت العراقي في 18 أيار عام 2004، وكذلك محاولة اغتيال عبد الجبار يوسف، نائب وزير الداخلية العراقي، في 22 أيار عام 2004.

إن قبل الزرقاوي بدفع فدية مقابل تحرير بعض الرهائن المعروفين فذلك لأنهم "غــير استراتيجيين"، إلا أنه كان يبحث قبل كل شيء عن الأثر الإعلامي الحاسم الذي يقدّمه له إعدام الرهائن الغربيين شبه العلني. فأول ما يؤثّر فينا لدى مشاهدة إخراجه المرعب هو الذعر. وهذا ما يطمح إليه الزرقاوي، الذي يسيطر سيطرة تامة على فن الاتصالات، لدرجة أنه أنشأ "قسماً إعلامياً" في التوحيد والجهاد بإدارة أبي ميسرة العراقي. وهذا القسم المكلّف بتحرير وبثّ بيانات الحركة، يضمّ على الأقل ثلاثــة أشــخاص في العــراق. وأساس بنيته التحتية الإعلامية موجود في الخارج ويــستخدم التقنــيات الأكثــر تطوراً في مجال التعبير الفني والفيديو، منسقاً بين التأثيرات الصوتية والخطية وذلك لدعم تأثير الإعدامات.

تمتّعت الجماعة، إضافة إلى ذلك، بالعديد من أشكال المساندة وقنوات البثّ. فهي قد جعلت لنفسها موقعاً على الإنترنت لتنشر رسائلها عبره، وأدلت بمداخلاتها بانــتظام في العديد من منتديات النقاش الإسلامي لتبثّ دعايتها ولتثير النقاشات. وأخــيراً، فــإن العديد من وسائل الإعلام العربية في الخليج كانت تبثّ دون تردد رسائل الجماعة بأكملها.

تعــرف التوحيد والجهاد أيضاً كيف تدافع عن ميزتها التنافسية عندما يستلزم الأمــر، في وجــه الحركات الإسلامية الأخرى التي ترغب بالاستفادة من شهرة الــزرقاوي العالمــية. فخلال صيف عام 2004، وبُعيد ظهور جماعة جديدة باسم حــركة التوحــيد الإسلامي، والتي فتح اسمها باباً للالتباس، بثّ القسم الإعلامي للــزرقاوي، في 4 آب، بــياناً أبلغت فيه المنظمة "المقاتلين بألا يخلطوا بين حركة التوحيد الإسلامي والتوحيد والجهاد، الذي هو اسم الحركة التي يقودها الشيخ أبو مــصعب الزرقاوي". "إن إخواننا، أضاف البيان، قد غالطتهم وسائل الإعلام التي قرنت رايتنا بذلك الاسم"[1].

وللمفارقــة، نجد أن أعمال الزرقاوي القتالية، هي أقل عدداً من الأعمال التي

(1) بيان التوحيد والجهاد، 3 آب 2004، وثائق المؤلف.

ترتكبها الجماعات الأخرى، مثل الجيش الإسلامي في العراق، لكن التعليق عليها يتم في أرجاء العالم كله. لقد حرص الزرقاوي على انتظام الإعدامات التي تقوم بها حركته، التي تنفذ إعداماً على الأقل كل شهر منذ أيار 2004، كما ويهتم بالتوقيت المناسب. وعلى النحو ذاته، هو حريص حرصاً شديداً على اتصال جماعته العام. وهكذا، وغداة بداية الهجوم الأميركي الثاني على الفلوجة، في شهر تشرين الأول 2004، أعلنت التوحيد والجهاد انضمامها إلى القاعدة من أجل تنسيق أفضل للقوات التي تخوض الجهاد في العراق. إن ذلك الخبر قد أثبت حالة أمر واقع، لكن اللحظة المختارة لهذا الإعلان كانت هي الهامة.

حاول الزرقاوي مراراً، في كتاباته وخطاباته تبرير أفعاله القاسية، خصوصاً بعد أن تجافى عن جماعته قسم من رجال الدين العراقيين، أو أدانوه دون تحفظ. إنه يرى أن تلك الاغتيالات قد أجازها القرآن وأن أولئك الذين يُسمَّون بالرهائن هم ليسوا كذلك. إنه يضع في الواقع فرقاً بين الرهائن والجواسيس، "إن حكم هؤلاء الجواسيس هو الموت"[1]. ويقبل، بالطبع أن يكون هنالك تفاوت حول أسلوب إزهاق النفس، بالسيف أو بإطلاق النار، و"يأخذ بالاعتبار رأي الشيوخ السُّنة حول التعريف فيما إذا كانت أعمال القتل تلك جائزة شرعاً أم لا، فقط عندما يعبر هؤلاء الشيوخ عن قناعاتهم العميقة وليس عندما يتكلّمون باسم حكومة أو من أجل إرضائها". ويدعي الزرقاوي أن أعمال القتل التي نحن بصددها مسموح بها، بما في فيها تشويه الأجساد، ذلك أن "الله أجاز لنا معاملتهم [الكفار] بالمثل، بنفس الطرق التي يستخدمونها. فإن هم قتلوا نساءنا، فسنقتل نساءهم"[2].

هذا الإدراك الفاسد تماماً للإسلام هو ثمرة عقل فظّ، تشرَّب بآراء عبَّر عنها الزرقاوي، هذا الإدراك الإسلامي أتى مباشرة من آراء كبار منظري الجهاد الحديث، وبخاصة أبي محمد المقدسي، وأبي قتادة، الذين قرأ لهم، واستمع إليهم، وأحياناً التقى بهم، واتخذهم مرجعاً له باستمرار.

(1) صحيفة الحياة، 10 أيلول 2004.

(2) المصدر السابق.

الفصل الثامن

خضوع القاعدة

لم يـــشكل العراق أبداً رهاناً حقيقياً بالنسبة للقاعدة. وفي أول إعلان حرب على الولايات المتحدة والدول الغربية، في 23 آب 1996، بعنوان" رسالة أسامة بن لادن لإخـــوانه المسلمين في العالم وخصوصاً في شبه الجزيرة العربية"، بالكاد أتى أسامة بن لادن على ذكر العراق(1).

وكمـــا هو معروف، فالإسلام هو الدين السائد في العراق، ويمثل المسيحيون أقل من 5% من السكان. أما الشيعة فيشكلون ثلثي السكان المسلمين، مقابل ثلث واحـــد من المسلمين السُّنة. إن تلك المجموعات تتعايش معاً في هدوء نسبي، وأهل السّنة مرغمون على مسايرة الشيعة، وذلك للحفاظ على السيطرة على معاقلهم.

مـــنذ ذلك الحين، وقادة القاعدة يراعون جانب إيران والمجموعة الشيعية، التي تـــشكل غالبـــية البلد. وهكذا، وبالرغم من الحزم المستجد من إيران تجاه معتقلي القاعـــدة، لم يدن أسامة بن لادن وأيمن الظواهري هذا البلد. فضلاً عن ذلك، لم يـــدعُ أســـامة بن لادن قط إلى مهاجمة رجال الدين الشيعة فوق الأرض العراقية، وحـــتى أنه نفى تورط منظمته في اغتيال زعيم المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق، الشيخ باقر الحكيم.

إضافة لذلك، وقبل انفتاح الجبهة العراقية، فإن القاعدة لم تكن تهاجم مطلقاً الـــشيعة الإيرانيين في أفغانستان، رغم قربهم من تحالف الشمال، كما أنها لم تكن تهاجم الشيعة السعوديين.

إن الـــزرقاوي – على النقيض من ذلك – الذي يشيد في العراق باستراتيجية الفوضـــى، فهو ذمَّ بشكل فوضوي جميع المتواطئين على العدوان الأميركي، ومنهم

(1) أسامة بن لادن، إعلان الحرب، 23 آب 1996.

الأكـــراد والـــشيعة. ففي رسالة نُسبت إليه، استولت عليها القوات الأميركية في العراق، في 23 كانون الثاني 2004، وصف الزرقاوي الشيعة بأنهم...[1] لتواطئهم مـــع العـــدو الأميركي. وشبّههم...، الذي يتزيّن (هكذا وردت من الأصل) بزيّ الـــصداقة ليتمكّن من "أن يطعن في الظهر" ممثلي الإسلام الحقيقيين الذين هم أهل الـــسنّة. وعلـــى الرغم من الشكوك التي تحوم حول صحة تلك الرسالة، التي من المفترض أنها موجّهة لقادة القاعدة، والمفهوم السطحي للدين الإسلامي الذي ينبعث منها، لا سيما التعارض القديم بين الشيعة والسنّة والتأكيد على أن الشيعة يسعون لإقامـــة "إيـــران جديـــدة" في العراق، فإنها تؤكد التصريحات الأخرى للزرقاوي، وتعكس ضعف ثقافته الدينية.

يـــصف الزرقاوي في رسالة مسجَّلة تمّ نشرها لاحقاً بعد عدّة أشهر، الشيعة بـــأنهم "الـــزريدة الـــضعيفة" في الأمـــة الإسلامية وبأنهم "حصان طروادة" لدى الأميركـــيين في العراق[2]. إنه موقف يصعب توفيقه مع الحيادية التي يعلنها زعماء القاعدة تجاه الطائفة الشيعية.

في هـــذه القـــضية، لا ينبغـــي أن نتجاهل أيضاً أن كثيراً من زعماء المنظمة يعتـــبرون أن العـــراق ليس البلد الذي له أولوية العمل. وهكذا، أوضح مسؤول للقاعدة في المملكة السعودية، في تشرين الأول 2003، في مجلة على الإنترنت باسم صـــوت الجهـــاد، الناطقة باسم صحافة القاعدة في شبه الجزيرة العربية، أنه تلقّى "الكـــثير مـــن الاقتـــراحات للذهاب إلى العراق"، ورغم أن العراق بنظره "جبهة للجهاد" مثل الجبهات الأخرى، كرست المنظمة لأجلها الكثير من الجهود، إلا أن الهدف الأساسي هو معركة طرد...[3].

في تلك الظروف، فإن التزام القاعدة إلى جانب المقاومة الإسلامية في العراق

(1) مقتبس من رسالة أبي مصعب الزرقاوي، للسلطة المؤقتة في العراق، 23 كانون الثاني 2004.

(2) "نص رسالة الزرقاوي الذي يهدّد بالمزيد من الهجمات"، مصدر سبقت الإشارة إليه.

(3) "صـــوت الجهاد"، العدد الأول، 17 تشرين الأول 2003، MEMRI. (ميمري وهي مؤسسة أبحـــاث الاعلام للشرق الأوسط، وعند تأسيسها عام 1998 كان ثلاثة من أصل ستة من فريق عملها قادمين من جهاز الاستخبارات الإسرائيلية – المترجمة).

كـــان مطـــرداً وظهر على مستويين. فقد أدى إلى حدٍّ واسع إلى مواقف اتخذها المتديـــنون الـــراديكاليون، الذين دعوا إلى الجهاد في العراق ثم "أجازوا" تصرفات جماعة الزرقاوي، لا سيما الهجمات الاستشهادية، واختطاف الرهائن والإعدامات. ومـــن جهة أخرى، فإن القدوم الواسع لمرشحي الجهاد، والملاحظ منذ صيف 2003، قد قلص تدريجياً في الواقع من هامش مناورة زعماء القاعدة.

منذ انتهاء عام 2002، ارتفعت أصوات، وخاصة من بين متدينين قريبين من القاعـــدة، من أجل دعم الجهاد ضد الأميركيين في حال حدوث غزو على العراق. فقد أجاب أبو قتادة صحفياً سأله حول الدور الذي من الممكن أن تلعبه الجماعات الجهاديـــة في حـــال حـــدوث الهجوم الأميركي قائلاً: "[...] إن تزايد الطغيان الأميركي [...] ومشروعه في مهاجمة العراق ليجعل فيه "كرازاي العراق" سيحتّم خوض معركة أكثر شراسة أيضاً"(1).

خـــلال عام 2003، أعلن الشيخ يوسف القرضاوي، الزعيم الديني للإخوان المسلمين المصريين اللاجئ في قطر، مفهوم مقاومة العدوان الأجنبي على العراق. إن الشيخ القرضاوي هو أحد أوائل منظري الهجمات الاستشهادية قبل وبعد هجمات 11 أيلول 2001 في الولايات المتحدة. ومن خلف الخطاب المزدوج لأتباع الإخوان المـــسلمين، فـــإن أحاديث يوسف القرضاوي تظهر جلية إلى حدٍّ ما، بالنسبة لهذا الموضـــوع. ففي شهر شباط 2001، صرّح لصحيفة يومية مصرية أن "الضرورات تبـــيح المحظورات" (الانتحار محرَّم في القرآن)، وأن "القنابل البشرية" هي "سلاح جديـــد"وتقديمه يماثل الاستشهاد في الدين(2). ورأى بعد عدّة أشهر أن الهجمات الاستشهادية لا يمكن أن تكون مماثلة للانتحار بل إنها "الشكل الأنبل للحرب"(3). وحيـــنما سُئل في كانون الأول 2001 عقب الهجمات على الولايات المتحدة، لم

(1) المملكـــة المتحدة: "مقابلة عبر الإنترنت مع الإسلامي أبو قتادة"، صحيفة الشرق الأوسط، 18 تشرين الأول 2002.

(2) الأهرام العربي، 3 شباط 2001.

(3) "عـــالم مسلم يصف الانتحاريين الذين يفجّرون أنفسهم بالشهداء"، وكالة أسوشيتدبرس، 25 نيسان 2001.

يغيّـــر يوســـف القرضـــاوي من موقفه. إنه يرى أن "وصف تلك العمليات بأنها انتحارية هو وصف باطل وظالم، ذلك أنها في الحقيقة عمل بطولي، ولا ينبغي بأي حال تشبيه الهجمات الاستشهادية بالانتحار[1].

وعقب احتجاجات غربية قوية، جاء وقت منعته فيه سلطات قطر من الكلام، حـــيث علّقـــت حديـــثه الديني كل يوم أحد على قناة الجزيرة بعنوان "الشريعة والحياة". بيد أن هذا الرجل السُّني تزعم منذ بداية عام 2003، مجموعة دينية تبلور المعارضة المحتدمة ضد الولايات المتحدة عشية الهجوم على العراق.

في نهايـــة شـــهر كانون الثاني 2003، صرّح يوسف القرضاوي قائلاً: "كل شخص يُقتل في عملية عسكرية موجّهة لطرد قوات الاحتلال الأميركي من الخليج فهـــو شـــهيد"، مبيـــناً أن من اللائق تمييز المدنيين الأميركيين عن حكومتهم وعن جيـــشهم[2]. وفي بداية الهجوم الأميركي، قال في 7 آذار 2003 بالضبط، وخلال عظة دينية، أن الجهاد فرض في الإسلام وأنه يتوجّب على المسلمين "مقاومة وطرد الكفار الذين يغزون بلداً مسلماً"، منتقداً جميع أولئك الذين يتعاونون مع الولايات المـــتحدة في العراق[3]. وبعد عدّة أشهر، في أيلول 2003، لم يعد الأمر يتعلق فقط بالمقاومة بل إنه دعا الله أن يُقصي الولايات المتحدة[4].

إن شـــبح مـــواجهة بـــين الـــسنّة والشيعة، هو العقبة الأولى التي يسعى الـــراديكاليون القريبون من القاعدة في العراق إلى تجنبها، والتي قد توشك على إضـــعافهم محلـــياً وتهميشهم إقليمياً، وهذا الشبح عاد للظهور ثانية على هيئة مـــشكلة تـــسعى لإثارتهـــا الولايات المتحدة لتبرر على نحو أفضل وجودها في العـــراق. وينتقد المتدينون القريبون من القاعدة بعنف ما يرون أنه" مؤامرة "من

(1) الجزيرة، 9 كانون الأول 2001.

(2) "أحـــد علماء المسلمين يقول: أي شخص يُقتل أثناء محاولته طرد القوات الأميركية من الخليج فهو شهيد"، صحيفة الخليج نيوز، 29 كانون الثاني 2003.

(3) "القرضـــاوي، علماء الدين السعوديين يدعون للجهاد ضد الولايات المتحدة ولمساندة العراق"، صحيفة القدس العربي، 8 آذار 2003.

(4) "القرضـــاوي مـــن قطر يتابع خطبه المضادة للولايات المتحدة"، العراق – FMA تقرير وكالة المباحث الفدرالية الأميركية، 29 أيلول 2003.

الولايات المتحدة، وحرب دينية بين السنّة والشيعة لتقسيم الشعب[1].

إن هـذا الـرهان المركـزي، وبخاصة بعد اعتقال صدام حسين، يسهم في راديكالـية خطاب الأصوليين، الذين يشيرون منذ ذلك الحين إلى الولايات المتحدة على أنها "العدو" المطلق، وبالطريقة نفسها يرون أولئك الذين "يؤازرون "جهودها الحربية. إن خطابهم يريد أن يتخذ منذ ذلك الحين منحى سياسياً أكبر، والكثير من المتدينين أصبحوا يذكّرون "بشطط" و"أكاذيب" الولايات المتحدة، تلك التي سترد علـيها "شـجاعة الـرجال الذين سيتصدون لها" [أي "المقاومين"]. إن الولايات المتحدة مذمومة مثلها مثل أولئك الذين يوقدون نار "تفرقة" الشعب العراقي والذين هم "يغزون "البلاد العربية، ضمن "مؤامرة استعمارية" واسعة[2].

تسارع الدعم الرسمي من الإسلاميين الراديكاليين للمجاهدين العراقيين خلال صيف عام 2004. وأكدت ذلك على الخصوص مبادرة هامة، مع ذلك مرّت دون أن يُلقى لها بال تقريباً، قد صدرت عن 93 رجلاً متديناً. ففي نداء نشرته في لندن صـحيفة القدس العربي في 23 آب 2004، ينادي كبار المتدينين التابعين للإخوان المـسلمين، ومـن بيـنهم المرشد الأعلى في مصر ويوسف القرضاوي، إلى "دعم المقاومة الإسلامية الشجاعة والمشرّفة بكل الوسائل المادية والمعنوية" في العراق ضد الحملة "الاستعمارية الأميركية – الصهيونية"[3].

في بدايـة شهر أيلول، أسقط يوسف القرضاوي الستار. إذ أجاز في إحدى الفـتاوى خطـف وقتل المدنيين الأميركيين وذلك" لإرغام الجيش الأميركي على الانـسحاب". وفضلاً عن ذلك صرّح القرضاوي بأنه من الأجدر الآن في العراق محاربـة" جميع الأميركيين، بمن فيهم المدنيين"، معتبراً أن كل أميركي عسكري أو

(1) "خطب الجمعة تحثّ على الوحدة الإسلامية، وتنتقد الاعتداء على الفلسطينيين، والعراق"، تقرير وكالة المباحث الفدرالية الأميركية، 3 تشرين الأول 2003.

(2) "خطبة الجمعة تستنكر التفجيرات، وتحثّ على المقاومة وتحيي مولد النبي"، تقرير وكالة المباحث الفدرالية الأميركية، 30 نيسان 2004.

(3) "شخـصيات إسـلامية وعلماء مسلمون في أنحاء العالم يدينون الجرائم الأميركية الصهيونية في العراق وفلسطين"، صحيفة القدس العربي 23 آب 2004.

مـــدني ينبغي "اعتباره غازياً وهدفاً للقتل"[1] ويختم كلامه قائلاً" لقد جاء المدنيون الأميركـــيون إلى العـــراق لدعم الاحتلال [العسكري]. ولذا يصبح خطف وقتل الأميركـــيين، في تلـــك الظـــروف، واجباً دينياً لأنه يجب إرغامهم على مغادرة البلد"[2].

إن لم تكن القاعدة، في ذلك الوقت، قد اتخذت بعد رسمياً موقفاً حول حركة المقاومـــة، فـــإن شبكاتها التقليدية في الدعم وعدد من أعضائها كانوا قد ركّزوا نشاطاتهم على أرض الجهاد الجديدة.

في شهر كانون الثاني 2004، بدى أن الزرقاوي يطالب بمساعدة ودعم القاعدة في الرســـالة الـــشهيرة التي نسبتها إليه الحكومة الأميركية. حيث كتب: "نحن بحاجة لإنـــشاء جيوش المجاهدين [...] لمحاربة العدو - الأميركي، والشرطة، والجنود [...]. سنواصـــل تـــدريب أنفـــسنا وتعزيـــز صفوفنا. سنستهدفهم في عمليات استشهادية وســـيارات مفخخـــة". ثم بـــيَّن على نحو واضح قائلاً: إن كنتم تشاركونا الرأي، وتـــتّخذونه مـــنهجاً [...] واقتنعتم بفكرة محاربة الكفار، فنحن سنكون جنوداً لكم، ننضوي تحت راياتكم، طائعين لأمركم ومرددين يمين الولاء لكم على الملأ [...]"[3].

وتشير كثير من المؤشرات إلى أن زعماء القاعدة قد غيروا آنذاك من موقفهم بخـــصوص الجهاد في العراق. ويشهد على ذلك مقال منشور في عدد آب - أيلول 2004 في "صـــوت الجهاد". حيث يمتدح فيه عبد الرحمن بن سالم الشمري ضرب عـــنق أحـــد المصريين في العراق. إن الزرقاوي المعزول، والذي كانت منظمته إلى ذلـــك الحـــين تتجنب الرعاية، أصبح اسمه بقلم ذلك الصحفي" شيخ الذبَّاحين". وهكـــذا نقـــرأ: "يا شيخ الذبَّاحين[4]، أبو مصعب الزرقاوي، استمروا في انتهاج

(1) "مـــصر: رجل الدين المسلم القرضاوي يدعو المسلمين إلى محاربة جميع الأميركيين في العراق". تلفزيون 1 "طهران سهار"، 3 أيلول 2004.

(2) صحيفة الشرق الأوسط، 2 أيلول 2004.

(3) مقتبس من رسالة أبي مصعب الزرقاوي، إلى السلطة المؤقتة في العراق، 23 كانون الثاني 2004.

(4) ورد في الأصل الفرنسي "cheik des tueurs" أي "شيخ القتلة"، وهي ترجمة غير دقيقة للعبارة الأصلية العربية "شيخ الذباحين". (المترجمة).

الصراط المستقيم، الذي وضعه الله! قاتلوا مع الموحِّدين عبدة الأوثان، وقاتلوا مع المجاهدين، بلا رحمة، المنافقين والمتواطئين ومن يشق عصا الطاعة [...]"[1].

إن العمل الذي رسّخ نصر منهج الزرقاوي، هو يمين ولاء جماعة التوحيد والجهاد العلني لأسامة بن لادن الذي تمّ بثّه في 17 تشرين الأول 2004. والذي وقّع باسم أبي مصعب الزرقاوي، "قائد حركة التوحيد والجهاد"، ونُشر في موقع الجماعة على الإنترنت، ولا مجال لأي لُبس فيه. وهو يحمل العنوان التالي: "انضواء حركة التوحيد والجهاد، وأميرها [الزرقاوي] ومقاتليها تحت راية القاعدة وقسمها يمين الولاء للشيخ أسامة بن لادن"[2]. ويؤكد النص أن الزرقاوي كان على اتصال "مع الإخوة في القاعدة منذ ثمانية أشهر"، وأنهم "تبادلوا وجهات النظر" وحتى أن "انقطاعاً" قد حصل، قبل أن تتم إعادة الاتصالات مجدداً.

ويراد من يمين ولاء الزرقاوي أن يكون رمزاً لتجميع جديد حيث ورد فيه ما يلي: "يا شيخ المجاهدين، إن عبرت البحر، فسنعبره معك. وإن أمرت، سنسمع، وإن منعت، سنطيع. أنت القائد المختار لجيوش المسلمين لمواجهة الكفار، والصليبيين والمرتدين".

من وراء حماسة هذا الإعلان، فإنه يهدف قبل كل شيء إلى أن يوطد، في أعين المقاتلين في العراق والمتطوعين المحتملين، دعم القاعدة للإستراتيجية التي ينفذها الزرقاوي. لأنه في حقيقة الأمر، كما نعرف، فإن التحاق الزرقاوي بالقاعدة يعود إلى عام 1999، وكان هذا الأردني قد أقسم يمين الولاء لأسامة بن لادن في عام 2001. لقد رسّخ إعلان 17 تشرين الأول على الوجه الأكمل موافقة القاعدة على توجهات الزرقاوي. ويؤكد هذا الإعلان على ذلك ضمنياً عندما يقرُّ بأن "إخواننا في القاعدة قد فهموا استراتيجية جماعة التوحيد والجهاد [في العراق] وهم راضون عن الطرق التي نستخدمها"، ويوضح أن جماعة الزرقاوي ملتزمة "بمواصلة الجهاد". ولكي يعطي الزرقاوي صدى أكبر أيضاً لهذا الالتزام، فإنه وقّع، في 19 تشرين الأول، نصاً يحمل اسم كيان جديد، "لجنة القاعدة للجهاد في بلاد ما بين النهرين [العراق]".

---

(1) Voice of Djihad, n° 23, aout-septembre 2004, pp.36-38, MEMRI, 12 octobre 2004.

(2) بيان حركة التوحيد والجهاد، 17 تشرين الأول 2004، وثائق المؤلف.

لقـــد كـــشف الهجـــوم الأميركـــي على الفلوجة، والموجَّه بشكل رئيسي للانقـــضاض على شبكة الزرقاوي، عن أقصى مدى له تجاه عدو على الأرجح لم يعـــد موجوداً في العراق منذ أسابيع والذي أخذ يدعو للجهاد في بيانات ملتهبة. ففـــي 12 تشرين الثاني 2004 أخذ يحضّ "مقاومي الفلوجة الشجعان"[1]. وتخلّى الزرقاوي باسم القاعدة، عن ساحة المعركة ليصبح شخصاً يتعذر الإمساك به، على غرار أيمن الظواهري وأسامة بن لادن.

لقـــد ارتـــبط مـــصير القاعـــدة أكثر من أي وقت آخر بمصير أبي مصعب الزرقاوي.

(1) بيان أبي مصعب الزرقاوي، 12 تشرين الثاني 2004، وثائق المؤلف.

القسم الرابع

شبكة عالمية

أنا عالمي وما من أرض هي بلدي.

أبو مصعب الزرقاوي

26 أيار 2004

الفصل الأول

من كردستان إلى ألمانيا

إن شبكات أبي مصعب الزرقاوي متأصلة تأصلاً قوياً في أوروبا. وبعيد اعتداءات 11 أيلول 2001، خشي المحققون الأوروبيون من جهة أخرى من ظهور تهديد الإرهاب في إطار جديد، وأصبحت شبكات الزرقاوي رهاناً مهماً في مكافحة الإرهاب. وتم في ألمانيا، وبريطانيا العظمى، وفرنسا، وإيطاليا، وإسبانيا تفكيك العديد من الخلايا لارتباطها بنشاطات أبي مصعب الزرقاوي وبنشاطات جماعتي التوحيد وأنصار الإسلام اللتين يشرف عليهما الزرقاوي، والجماعة الأولى هي العنصر الإجرائي للثانية.

أخذ الوضع يتغيّر شيئاً فشيئاً. والعزلة التدريجية لأسامة بن لادن بعد عمليات القصف على أفغانستان، وضعت شيئاً فشيئاً شخص الزرقاوي تحت أضواء الوضع الراهن.

من المعروف أن الزرقاوي يتعلم بسرعة فائقة. فحينما يتعلق الأمر بتنشيط خلية نائمة في بلد أجنبي أو بالتعريف إعلامياً بعملياته، نجده يبرع في تطبيق الطرق القديمة الناجعة لأسامة بن لادن، تلك التي أثبتت قيمتها وإمكانياتها منذ عمليتي القاعدة الأولتين على السفارتين الأميركيتين في كينيا وتنزانيا عام 1998.

بالنسبة لمئات المجاهدين الذين تمّ إعدادهم في مدرسة القاعدة، ثم موّلتهم المنظمة لشنّ هجمات، فإن إضعاف قيادة القاعدة، التي اعتُقل غالبية أعضائها أو هربوا، هو بمثابة ضربة قاسية. ووجد مئات عدّة من الأفراد المدربين أنفسهم مجبرين على قطع كل صلة مع قيادة أركان المنظمة. وهكذا فإن الاعتقالات المتتالية لأبي زبيدة، ولرمزي بن الشيبة، ولخالد شيخ محمد قد أوهنت إلى حدٍّ كبير بنية قيادة الشبكة. وبالنسبة للكثير من العملياتيين[1] والخلايا النائمة فإن الاتصال مع رأس المنظمة أصبح مستحيلاً.

---

(1) عملياتي: ذو علاقة بالعمليات الحربية. (المترجمة).

لقــد ظهر الزرقاوي الذي يتمتع بتكتم أكبر من أسامة بن لادن، لكنه يتمتع بــنفس جاذبيــته، مجدداً في الشرق الأدنى بعد هروبه من أفغانستان. إن الزرقاوي الذي تعززه جماعة قوية من الأتباع والذي يتمتع بحرية الحركة في المنطقة، استطاع أن يفــرض نفسه على جماعة مجاهدي ما بعد الحادي عشر من أيلول قائداً جديداً تُتــبع أوامره. ولم يكن الزرقاوي بالنسبة لمئات المجاهدين الذين كانوا قد فرّوا من أفغانــستان، رجــلاً مجهولاً. لقد كان من الحلقة الثانية لعسكريي أسامة بن لادن ومــسيرته وسط منظمة القاعدة بين عامي 2000 و2001 كانت معروفة تماماً لدى المقاتلين الآخرين.

لقد استطاع الزرقاوي معضَّداً بماضيه في المنظمة وبإدارته لمعسكر هيرات، أن يــستولي على النفوذ من رموز شبكات القاعدة المشهورين. وتدريجياً، أصبح حتى واحــداً من القادة العملياتيين، قادراً على إنجاح عمليات ذات نطاق واسع ليفرض نفسه عملياً زعيماً عملياتياً للجماعة.

إن قــوة شــبكة الزرقاوي تستند إلى عوامل متنوعة، تتراكب فوق بعضها البعض، لتُظهر على الوجه الأكمل شبح التهديد... في أوروبا.

ففــي الدرجة الأولى، هنالك العلاقة، المشوشة لكن المتواصلة، بين الزرقاوي وأبي محمــد المقدســي. لقد كشفت عن مفتاح سحري ثمين وفتحت الكثير من الأبواب أمام الزرقاوي، لا سيما باب ممثّله في أوروبا، الأردني أبو قتادة - المعتقل حالــياً في ســجن بيلمارش في إنكلترا. إن أبا قتادة، وكذلك رجله العسكري أبو ضحى قد ورد ذكرهما مراراً في إطار التحقيق حول شبكات الزرقاوي الألمانية.

وفي الدرجة الثانية، هنالك منظمة أنصار الإسلام وذراعها السياسي، الحركة الإسلامية في كردستان العراق، والتي لُقّبت منذ وقت قريب بحزب الله الكردستاني. لقد ضمن مجاهدو أنصار الإسلام لأنفسهم وهم الذين ينادون بإقامة دولة إسلامية (أو خلافة) في كردستان العراق، شبكة دعم واسعة في أوروبا ويديرون عدّة مراكز دينــية في العواصم الأوروبية، لا سيما في ألمانيا وإيطاليا. وتلك الشبكات نفسها يــستخدمها الــزرقاوي لتجنيد أنصار جدد من أجل شنٍّ عمليات في العراق أو أوروبا.

من بين تلك الشبكات اندرجت شبكة التوحيد في ألمانيا، وشبكة دعم أنصار الإسلام في إيطاليا، وكذلك خليط من سلفيي مغاربة إسبانيا، وجماعات رغم تباعد أصولها، إلا أنها حرصت على هدف واحد: تصدير المجاهدين إلى العراق، لحساب الــزرقاوي. وورد اســم هذا الأخير من جهة أخرى خلال التحقيقات الأوروبية الأحــدث زمــناً والأشد تعقيداً. وباستثناء دائرة المخابرات الأردنية، فإن أجهزة الاستخبارات الألمانية هي بالتأكيد التي تعرف أبا مصعب الزرقاوي المعرفة الأفضل. وخلال عدّة أشهر، نجحت في الواقع بفضل التنصت الهاتفي في تحديد مكان العديد من أعضاء جماعة التوحيد المتمركزة في ألمانيا.

لقــد قــام آنذاك موظفو BND[1] (Bundesnachrichtendienst) الألمان بتحلــيل دقــيق لتصرفات الزرقاوي في مختلف أوقات هروبه من أفغانستان. كان أحياناً قلقاً وأحياناً أخرى ودياً مع أعضاء الخلية، ليكشف، من خلال التنصت على تلك التسجيلات، عن وجه آخر لشخصيته. باختصار، إن حوالى ستمئة صفحة من الدعاوى، والاستجوابات، والتنصتات الهاتفية التي تمّ جمعها في إطار قضية التوحيد أظهــرت أن الزرقاوي لم يكن فقط يقطع رؤوس أعدائه في العراق. فحينما تعلق الأمر بإنقاذ حياته، استطاع الزرقاوي أن يجعل من نفسه شخصاً متسامحاً، وجذاباً، مع بقائه قائداً قوياً لرجاله.

وأصرّ هانــز جوزف بيث، مدير مكافحة الإرهاب في أجهزة الاستخبارات الفيدرالــية الألمانــية، على الدور "النشط إلى حدٍّ كبير" للزرقاوي في إطار خلية التوحــيد. وصرّح بعد تفكيك الجماعة قائلاً: "إن التوحيد خلية إسلامية متطرفة مثيرة للقلق. لقد بذلت دعمها لعدة خلايا في أوروبا، وخاصة في ألمانيا. إن التوحيد جزء من القاعدة. ومرشدها الروحي هو أبو قتادة، المعروف بنظرياته المتطرفة"[2].

يحمــل اكتشاف التوحيد أهمية كبرى لجهود مكافحة... الألمانية والأوروبية. فــبعد بضعة أسابيع فقط من اكتشاف – لاشك أنه متأخر جداً – خلية هامبورغ

(1) BND، الأحرف الأوائلية لشعبة المخابرات الألمانية الخارجية. (المترجمة).

(2) "نشاطات الزرقاوي رجل القاعدة، تفاصيل من مصادر ألمانية"، صحيفة دير شبيغل، 25 تشرين الثاني 2002.

المرعبة، والمسؤولة عن هجمات 11 أيلول 2001، تمّ اكتشاف جماعة أخرى أتاحت لعـــدد كـــبير من أعضاء القاعدة، من بينهم الزرقاوي، الإفلات من الأميركيين في العراق ومواصلة الجهاد.

جـــرت الأحداث بشكل رئيسي بين طهران وشارع ويلهم في مدينة بيكوم، في ويـــست فالي، في منـــزل زعيم المجموعة، محمد أبو ديس (المعروف بأبي علي). ولقـــد خـــبّأت أيـــضاً مدن ألمانية أخرى مثل بافاريا وليبزغ العديد من الأعضاء الـــنائمين. إن عدد هؤلاء بالإجمال حوالى ثلاثين فرداً، جاؤوا من الأردن، وإيران، والعـــراق، والـــيمن والذين اعتقلتهم الشرطة الألمانية لاحقاً أثناء التحقيق. وكلّف بالقضية المدعي العام الألماني كاي نيهم، الذي كان قد اشتهر سابقاً خلال التحقيق حـــول خلية هامبورغ. لقد كانت الشبكة المسماة بالتوحيد قد نسجت نسيجها فـــيما وراء الحـــدود. وتمّ اكتشاف فروع لها في الدانمارك، وإيران، وحتى أيضاً في بريطانيا العظمى.

كان الأفراد المعتقلون، كما هو الحال غالباً في شأن...، معروفين لدى أجهزة الشرطة أو القضاء. وحتى أن بعضهم قد تمت إدانته سابقاً. وهذه كانت حالة طاهر منـــصور، الـــذي تبحث عنه الشرطة الإيطالية لتورّطه في خلية سابقة للقاعدة في ميلانو[1]. وعضو آخر من الجماعة، وهو سيد عجمي مهلهل[2]، المولود في القاهرة في 25 شباط 1964، والذي حُكم عليه في الماضي، بالسجن عشر سنوات لانتمائه إلى جماعـــة إســـلامية أصولية وحمله أسلحة نارية غير مرخصة[3]. وشخص آخر أيـــضاً كـــان معروفاً لدى أجهزة الأمن الألمانية: أشرف الدغمة. وهذا الفلسطيني الـــبالغ مـــن العمر 34 عاماً لم يكن على نحو واضح مغرماً بالتفاسير الدينية عندما وصـــل إلى ألمانـــيا عام 1994. وقد وجد ملجأه في برلين، بعد أن زعم أن أجهزة الاســـتخبارات الفلـــسطينية قامت بتعذيبه. وأخذت الشرطة الألمانية تسجل شيئاً فـــشيئاً أعمالـــه الجنائية: كان يبيع من جديد الكوكايين في محطة ميترو "زو" في

(1) http://www.treas.gov/rewards/pdfs/terrorestlists/list16.pdf

(2) جاء الاسم في الأصل الفرنسي على هذا النحو: Mohawal، والصحيح هو: مهلهل. (المترجمة).

(3) الدعوى القضائية الألمانية، قضية التوحيد، 2002، وثائق المؤلف.

برلين. وتم توقيفه ثم الحكم عليه بعامين سجناً مترافقة مع وضعه تحت التجربة. واكتشف الدغمة التفاسير الأشد صرامة للإسلام وبدأ في التردد على الحلقات الدينية الصغيرة الراديكالية. وفي نهاية المطاف تمّ توقيفه في نيسان 2003 بسبب مؤامرة...، وبحوزته جواز سفر برتغالي مزور باسم "كونتي سانشيز"[1]. لقد كان أشرف الدغمة أحد العناصر الأكثر نشاطاً في خلية التوحيد[2].

لقد نال هؤلاء الأشخاص بعد أن تحايلوا بمهارة على قوانين حق اللجوء، وضع اللاجئ السياسي ثم أنهوا مسيرتهم في جماعات تتّخذ من ألمانيا نفسها قاعدة لها.

وبدأ التحقيق فعلياً بالتنصت على سبعة عشر هاتفاً محمولاً لرجل واحد، وهو محمد أبو ديس (المعروف بأبي علي). إن أبا علي رجل قوي طوله 192 سم، أردني الأصل. وكان في العقد الرابع من العمر، فضولي يحشر أنفه في كل شيء، وهو لاعب كرة سلة سابق، ومطرب عاطفي في فنادق عمان الفخمة. لكن، ما إن هاجر إلى ألمانيا، حتى كشف عن وجه آخر لشخصيته، أكثر حلكة هذه المرة، وجه مهرِّب محنَّك. واشتهر، وهو الشريك الأول للزرقاوي في ألمانيا، بانغماسه في المتاجرة داخل الأوساط الفلسطينية. وشارك أيضاً في عدّة عمليات هامة لتهريب أسلحة مرصودة للقضية الإسلامية. وأقرَّت الأجهزة الألمانية لحماية الدستور (BFV)، المكلفة بالأمن، عام 2001، أنها راقبت أبا علي منذ عام 1997. وقد ظهر اسم هذا الرجل بانتظام في قضايا التجارة غير المشروعة ذات النطاق الواسع.

إن خبرة المهرب تلك أفادت الزرقاوي، الذي بحث آنذاك عن جميع الوسائل للإفلات من ضربات قوات التحالف في أفغانستان. لذلك فقد اتصل في ألمانيا بأبي علي، الذي اعتبر أن مساعدة قائد مهم في القاعدة شرف عظيم. وفي مرات عديدة، رفض الزرقاوي رفضاً قاطعاً أن يشارك محدثه الألماني الأهم في عملية

---

(1) المصدر السابق.

(2) حُكِم على أشرف الدغمة وهو في الحبس الاحتياطي في كانون الأول 2004 في ألمانيا بالسجن لعشر سنوات.

استـــشهادية حينما طلب منه ذلك وبإلحاح. وحتى أن أبا علي كان قد أخطر أمه وطلب منها أن تدعو الله ليموت ابنها شهيداً[1].

لكـــن لم يحـــدث شيء، فالزرقاوي وجّه كلمة" لا" حازمة لأبي علي، كما تشهد على ذلك التسجيلات: "إن نحن فقدناك الآن، فقد فقدنا حليفاً". وحمل أبو علـــي للزرقاوي احتراماً عميقاً وأحب أن يسميه على الهاتف باسم "الحبيب". لقد أتقـــن الرجلان المهمة العملياتية لخلية التوحيد أثناء اجتماع سري عُقد في إيران، الأمر الذي يؤكد على الدور الكبير الذي قام به محمد أبو ديس[2] في هذه المنظمة.

في ذلك الوقت، قاد أبو علي، معززاً بتلك العلاقة المميزة مع الزرقاوي، الخلية مـــن مدينة إسن، في منطقة روهر. كان يصدر أوامر، وانتقادات، ونصائح وحتى عقـــوبات. وكان حضوره قوياً في قيادة العمليات. وقررت أجهزة الاستخبارات الألمانية آنذاك بألا تعتقل على الفور أبا علي مؤثرة تجميع الأخبار. كانت تأمل أن تعلم المزيد عن الزرقاوي، ذلك الزعيم البارز للجهاد. لكن، بالطبع، كانت تشدد أيضاً إجراءاتها المتعلقة بمراقبة الجماعة.

بعد وقت قصير، انتظمت التوحيد بتوجيه مباشر من الزرقاوي. وقام مختلف أعضاء الجماعة في ألمانيا بتجميع صور هوية من أفغانستان، تعود للزرقاوي ولأقرب أتباعه، ليرسلوها بالتالي إلى إسن في ألمانيا أو إلى هورشولم في الدانمارك. حيث كان هـــناك مـــشغل غير قانوني لصنع وثائق إدارية مزيفة بإدارة شاكر يوسف عباسي (المعروف بأبي يوسف). وكان هذا الأخير يجهز جوازات السفر المزورة انطلاقاً من وثائـــق مسروقة، ثم تُرسل فيما بعد مجدداً إلى أفغانستان. وفي غضون ثلاثة أشهر فقـــط، خـــرج حوالى ثلاثمئة جواز سفر من مشغل هورشولم، وعدد منها تلقّاها الزرقاوي في أفغانستان.

ازدادت وتيرة المحادثات شيئاً فشيئاً بين الزرقاوي وأبي علي. وأخذ هذا الأخير يـــنقل بدقة أكثر تفاصيل أعماله إلى الشيخ، تلك الأنباء التي كانت تشفي غليله.

(1) المصدر السابق.

(2) حُكِـــم علـــى أبو ديس، وهو في الحبس الاحتياطي، في كانون الأول 2004 في ألمانيا بالسجن لعشر سنوات.

وكانـــت تحـــوي لغتهما بالطبع رموزاً، لكن المحققين الألمان، تدعمهم الخبرة التي اكتـــسبوها خلال التحقيق حول خلية هامبورغ، ما لبثوا أن فكوا رموز معنى كل تعـــبير. فحيـــنما كـــان يـــتكلّم أبـــو علي عن "الأقراص السوداء" فالأمر يتعلق بالمتفجـــرات، أمـــا "التفاحات الروسيات" فالمقصود بها القنابل اليدوية، و"البنات الصغيرات" هن إجازات القيادة المزورة[1].

في هذه الجماعات! تعني كلمة الجامعة السجن، الأمر الذي يوحي بأن المعتقل هو فرصة للمتعصبين لتحسين معارفهم في شأن العمل المطبق على أرض الواقع. أما كلمة راقصة، فهي جواز سفر، في حين أن جوزة البلوط تعني الذخيرة. وكان كل عـــضو راضخاً للنظام أو يكاد. وعندما يحيد عضو من الجماعة عن الطريق وتفلت مـــنه فلـــتة لـــسان، فإن أبا علي يوبخه بقسوة وينتقده بعنف قائلاً: "إن الكلاب يتنصتون!" والحقيقة أن جهاز مكافحة الإرهاب الألماني سجَّل كل محادثة تسجيلاً دقيقاً...

علـــى أي حال، كان الزرقاوي راضياً عن الطريقة التي كانت تعمل وفقاً لها جماعـــة التوحـــيد. وأسعده على الخصوص جواز السفر الجديد الذي قدمه له أبو علي. كانت الراقصة من المغرب، قال الزرقاوي مبتهجاً.

علـــى مـــرِّ الأسابيع، رغبت التوحيد في تنويع نشاطاتها والانتقال إلى العمل لصالح الزرقاوي. ألم يكن تنفيذ العمليات هو الهدف الأولي لخلية التوحيد عندما تمّ إعـــدادها بفـــضل أبي علـــي وشادي عبد الله في نهاية التسعينيات وبداية الألفية الجديدة؟

إن مـــثير ارتـــباك الجماعة، الأردني شادي عبد الله، كشف من جهة أخرى للمحققـــين بـــأن الهدف الاستراتيجي للتوحيد كان ضرب المملكة الأردنية وفق مخطـــط رسمه الزرقاوي. وعلى نحو أكثر واقعية، أرادت جماعة التوحيد آنذاك شنّ هجـــوم في ألمانيا بواسطة مسدس كاتم للصوت في حديقة مزدحمة ثم تفجير قنابل هجومـــية بالقـــرب من "المتحف اليهودي" في برلين. وكان هدفهم هو "قتل أكبر

(1) المصدر السابق.

عدد من الناس". وكان من المفترض أن ينفذ تلك الاعتداءات شادي عبد الله، وهو رجل أردني جسيم في السادسة والعشرين من العمر، وعضو سابق في الحرس المقرب من أسامة بن لادن، مع أشرف الدغمة وإسماعيل شلبي. وفي ألمانيا، كانت أيضاً إحدى المهمات الموكلة إلى شادي عبد الله تحديد نوع الأهداف المحتملة، وعلى الخصوص الحصول على التسلح الضروري لمواصلة العمليات.

في آذار 2002، وبينما كان الزرقاوي يتأهب لمغادرة إيران، ويترقب أخبار شركائه، حاول شادي عبد الله تسريع الأحداث. فقد حاول الحصول من المدعو جمال مصطفى المقيم في دوسلدروف، على مسدس مجهز بكاتم صوت ("أخرس" كما في التسجيل)[1] وكذلك على مجموعة قنابل يدوية. لكن الأسلحة لم تصل إلى وجهتها، حيث تم توقيف شادي عبد الله[2]، ومحمد أبا ديس، وإسماعيل شلبي، وجمال مصطفى[3] في 23 نيسان عام 2002. وأخفقت سلسلة الهجمات التي حضَّرت لها خلية التوحيد.

تم اعتقال أعضاء الخلية الألمانية العشرة الواحد تلو الآخر. وقد تعاون شادي محمد مصطفى عبد الله تعاوناً وثيقاً مع القضاء الألماني وذلك للتخفيف من عقوبته. ومع ذلك تمّ الحكم عليه في تشرين الثاني عام 2003، بأربع سنوات سجناً. ولقد أفاد كثيراً المحققين الألمان والأميركيين. ومثله مثل الزرقاوي، كان قد سافر إلى باكستان عام 1999. والتقى الرجلان في أيار عام 2000، وتقاسما أحقادهما تجاه النظام الملكي الأردني. وكان شادي عبد الله آنذاك تحت جناح صهر أسامة بن لادن، عبد الله الحلبي، الذي التقى به أثناء الحج إلى مكة. وفي عام 1995، حصل على حق اللجوء السياسي من الحكومة الألمانية. وبناء على أوامر الزرقاوي، في أيار 2001، ذهب إلى ألمانيا، حيث ساعد هناك محمد أبو ديس في تكوين جماعة

(1) الدعوى القضائية الألمانية، قضية التوحيد، 2002، وثائق الكاتب.

(2) أمضى شادي عبد الله عامين من السجن في ألمانيا، قبل أن يطلق سراحه عام 2004 لتعاونه مع القضاء الألماني.

(3) تمّ الحكم على جمال مصطفى وهو في حبس احتياطي في ألمانيا في كانون الأول 2004، بالسجن لخمس سنوات.

التوحـيد. وكانـت تلك الخلية مرصودة لضرب أهداف يهودية في ألمانيا. وكان علـيها أيـضاً أن تخلّد الثقافة المنشورة في معسكر هيرات: التوحيد والجهاد، التي تعلـنها لافـتة على مدخل المعسكر. إن الجماعة الألمانية التي تبنَّت لصالحها شعار المعسكر، تبنَّت في الواقع إيديولوجية الزرقاوي السلفية. وبأسلوب القاعدة نفسها، حاولت حركة التوحيد بحكم الواقع أن تجعل لنفسها مكاناً في تاريخ الجهاد.

لقـد أراد كل... تنفيذ هجمته في الحادي عشر من أيلول. وإعلاء شأن كل جماعـة يمـر غالباً عبر الاعتراف بزعيمها. والحقيقة، أن لدى الزرقاوي طموح في مضاهاة، لا بل في تجاوز أسامة بن لادن. رغم أنه أقسم له يمين الولاء. وبكلمات قلـيلة، نقرأ هذا التحليل الذي أعده شادي عبد الله أمام القضاة الألمان: "إن تنفيذ هجوم في ألمانيا يجعل من التوحيد جماعة مشهورة [...] ويؤدي إلى نتائج 11 أيلول نفسها"[1].

أفـشى شادي عبد الله الكثير لرجال الشرطة الذين دوَّنوا كل تفصيل بعناية. وهـو إذ غادر ألمانيا عام 1999، عاد إليها عام 2001، ليقوم بمهمة جمع المال. وقد روى عـبد الله علـى نحـو خاص تفاصيل الطريقة التي قد وضعها، مع أبي علي، والمتمـثلة بـنظام يهدف إلى جمع الأموال من مختلف المساجد الألمانية والأوروبية وذلك لتمويل شبكات الزرقاوي[2].

في ألمانـيا بقي شادي عبد الله باستمرار على اتصال وثيق مع الزرقاوي. وفي الـنهاية، ومـع إلحاحية الهروب من عمليات القصف الأميركي في أفغانستان، تمّ استخدام خلية التوحيد كقاعدة دعم لوجستي.

تحمـل الإفـادات الصادرة عن التحقيق على الاعتقاد بأن تلك الخلية، والتي أُنـشئت أصلاً بغرض الدعم اللوجستي، قد تحولت شيئاً فشيئاً إلى جماعة عملياتية. ولقـد سـاعدت المعلومات التي أفشاها شادي عبد الله للشرطة الألمانية في تطويق شبكة الدعم الواسعة التي كونها الزرقاوي.

(1) الدعوى القضائية الألمانية، قضية التوحيد، 2002، وثائق المؤلف.

(2) المصدر السابق.

لقــد امتدت فروع تلك الجماعة حتى هامبورغ، وبرلين، وويسبادين. وقدَّم رجالٌ عملياتيون أيضاً مؤازرهم من المملكة المتحدة أو الجمهورية التشيكية. وتحت إشراف أبي علي، المهرِّب المؤيَّد، دُربت الجماعة بأكملها حول دوائر التمويل غير القانــوني. فقــد أوصلت الجماعة الألمانية المال إلى أفغانستان عن طريق شركات تجارية أو ONG[1]، مثل منظمة وفا، التي أدرجتها الولايات المتحدة منذ ذلك الحين على قائمة المنظمات الإرهابية. وبحسب ما أدلى به شادي عبد الله، فإن نصف المال الــذي كــان يصل من ألمانيا إلى أفغانستان كان يخصص للقاعدة والنصف الآخر يقسم بين الزرقاوي وطالبان. وأكد شادي عبد الله أن الزرقاوي كان على الدوام ينفــر مــن تقاسم تلك الإعانات المالية[2]. كما أكّد للمحققين الألمان في BND (جهاز الاستخبارات الخارجية) أن أبا علي كان المسؤول العام عن جمع الأموال في ألمانيا.

خــلال تلــك الاتصالات مع الخلية الألمانية، استخدم الزرقاوي العديد من الهواتــف عبر القمار الصناعية من طراز "إنمارسات". كما أرسل أيضاً عدداً كبيراً من الرسائل القصيرة SMS إلى شركائه في الروهر، وهي طريقة آمنة للحفاظ على سرية الرسائل.

لقــد تعــرّفت أجهزة التحري الخاصة بمكافحة الإرهاب الألمانية بُعيد اكتشاف التوحــيد، على الدور المتفاقم خطره للخلايا الإسلامية في ألمانيا. وهنالك حالياً حوالى 180 تحقــيقاً حول جماعات أو أفراد مرتبطين من قريب أو بعيد بالتهديد الإسلامي. وفي أعقاب الاعتقالات التي حدثت في كادر التوحيد، صرّح علناً الموظفون الألمان في BKA (الــشرطة الجنائية) بأن ألمانيا أصبحت "منطقة استراحة، وتراجع، وتحضير"[3] بالنسبة للإسلاميين. إن هذا الإقرار صحيح لا سيما في حالة جماعة الزرقاوي.

طيلة استجوابات شادي عبد الله، كان يشير إلى خلية التوحيد على أنها كيان ســري مــستقل ذاتــياً، في الأصل أنشأها القاعدة ثم استعادها الزرقاوي لحسابه

(1) أي منظمات غير حكومية. (المترجمة).

(2) الدعوى القضائية الألمانية، قضية التوحيد، 2002، وثائق المؤلف.

(3) "تحليلات أسبوعية تقول إن القاعدة متواجدة في ألمانيا"، صحيفة دير شبيغل، 22 آذار 2004.

الخـــاص. "إن هـــدف هذه الجماعة هو ضرب الحكومة الأردنية ومقاتلة اليهود"، هكذا قال عبد الله للمحققين الألمان. وفي شهادته، وصف عبد الله أيضاً وبالتفصيل العلاقـــات الوثيقة بين الزرقاوي وأبي قتادة، الذي كان مقيماً في لندن. وأكّد عبد الله للقـــضاة أن الـــزرقاوي "لم يكن يستطيع فعل شيء دون الحصول على موافقة مسبقة من رجل الدين أبي قتادة"[1].

في الواقـــع، كان "لأبي قتادة الفلسطيني" (واسمه الحقيقي عمر محمود عثمان) آنذاك نفوذاً فعلياً على قرارات وتوجهات الزرقاوي في وسط التوحيد. وقد حصل أبـــو قـــتادة، القريب جداً من مرشد الزرقاوي، أبو محمد المقدسي[2]على اللجوء السياسي في بريطانيا العظمى عام 1993. وإن مختلف الدعاوى القضائية الأوروبية الجارية في إسبانيا، وألمانيا، وفرنسا أثبتت الدور الكبير الذي قام به أبو قتادة وسط القاعدة في أوروبا. وتم العثور على الخصوص على أشرطة فيديو لمواعظه بين الأمتعة الشخصية للذين نفذوا هجمات 11 أيلول. إن أبا قتادة الذي يُعتبر ممثل أسامة بن لادن في أوروبـــا، تـــربطه أيضاً، كما رأينا، صلات عديدة إيديولوجية وعملياتية وثيقة جداً مع أبي مصعب الزرقاوي.

وقـــبل كـــل شيء، لقد أدان القضاء الأردني أبا قتادة إلى جانب الزرقاوي لـــتورطه في التحـــضير لمؤامـــرة الألفية. ومن جهة أخرى، وطد أبو قتادة، خلال ســـنوات طـــويلة، صداقة طويلة ومتينة مع أبي محمد المقدسي. وأخيراً، وحسب اعتـــرافات شادي عبد الله أمام القضاء الألماني، فإنه كان محطة دعم للعمليات التي شنّتها شبكات الزرقاوي.

بسبب تلك العناصر المختلفة، اعتقلت السلطات البريطانية أبا قتادة في تشرين الأول 2002. ورفـــض القـــضاة الإنكليز طلب الإفراج عنه والذي قدّمه في آذار 2004، معتـــبرين إياه "شخصاً خطراً فعلاً" و"متورطاً على نحو خطير في عمليات جماعة القاعدة"[3].

---

(1) الدعوى القضائية الألمانية، قضية التوحيد، 2002، وثائق المؤلف.

(2) المقدسي معتقل حالياً في الأردن.

(3) قرار محكمة الاستئناف الخاصة المتعلقة بالهجرة، آذار 2004، وثائق المؤلف.

الفصل الثاني

مجموعة "الإيطاليين"

خلّف اكتشاف خلية التوحيد في ألمانيا ثم تفكيكها، توقعاً بامتداد شبكات الزرقاوي إلى أوروبا. وسرعان ما أكد هذا الحدس قاضي مكافحة الإرهاب في ميلانو ستيفانو دامبروزو. وبمساعدة شرطة مكافحة الإرهاب الإيطالية DIGOS ديغوس (قسم التحقيقات العامة والعمليات الخاصة) سرعان ما تمّ اعتقال العديد من أعضاء جماعة أنصار الإسلام على الأرض الإيطالية عقب عملية أُطلق عليها اسم **بازار**. وتمّ توقيف أعضاء آخرين من المجموعة الإيطالية لاحقاً في ألمانيا.

وعلى غرار نموذج التوحيد، فقد كان لجماعة الإيطاليين هدف وهو استقدام مقاتلين إلى كردستان العراق على نحو غير قانوني وتقديم الدعم اللوجستي للزرقاوي وأنصاره. وقد كشف التحقيق الذي قامت به الأجهزة الإيطالية عامي 2002 و 2003، عن جهاز منظمة معقدة. وقد جاء في قرار محكمة ميلانو، الصادر في 21 تشرين الثاني عام 2003 ما يلي: "كان المتهمون قد أسسوا فوق الأرض الإيطالية خلية إرهابية لأنصار الإسلام، وزعيمها المعروف هو الأمير كريكار. وكانت تلك المجموعة مرتبطة أيضاً بمنظمة **التوحيد**، التي يقودها الأمير أبو مصعب الزرقاوي، الذي لا يزال حتى الساعة عضواً هاماً في القاعدة. كانت أهداف تلك المنظمة صنع وثائق مزيفة، وتجنيد أشخاص كثيرين من أجل الدعم اللوجستي، ومن أجل، إرسالهم عند الضرورة، إلى معسكرات التدريب المتمركزة في غالبيتها في العراق، وكذلك جمع الأموال اللازمة لتنفيذ أهداف المنظمة"[1].

---

(1) المحكمة المدنية في ميلانو، غيدو سالفيني، رقم R.G.N.R. "قرار تطبيق إجراء التوقيف الاحتياطي"، 21 تشرين الثاني 2003، وثائق المؤلف.

مباشــرة قــبل أن يهرب المشتبه بهم إلى سوريا، ألقت السلطات الإيطالية في بارما القبض على محمد طاهر حميد ومصطفى أمين محمد، والاثنان كرديان عراقيان في الـسابعة والعشرين من عمرهما. كما أوقفت شرطة ميلانو أيضاً الرقم الثاني في الشبكة، وهو المصري راضي عياشي (المعروف باسم مرعي)، وهو في الثلاثين من العمــر، والعــضو الــصومالي النشيط كابيللا محمد سيزا[1]، وبعد يومين أوقفت "ديغــوس" في مديــنة كــريمونا التونسي مراد طرابلسي[2]، إمام مسجد المدينة، وكذلك الحمراوي بن مولدي، وعمره 26 سنة.

هَــدَف هــؤلاء الرجال إلى إرسال مقاتلين من إيطاليا لتعزيز صفوف أنصار الإســلام في كردستان العراق، عن طريق تركيا وسوريا. وكان على المجموعة أن تشارك في تلك العمليات لصالح الزرقاوي وشخص هام في أنصار الإسلام، يدعى محمد مجيد، وهو من الرعايا الأكراد عمره 32 سنة أطلق على نفسه اسم الملا فؤاد، وحتى شهر آذار 2003، كان ينسق نشاطات الجماعة بين كردستان وسوريا[3].

استقبل الملا فؤاد، وهو بمثابة محطة دعم المنظمة على الأرض، القادمين الجدد. وفي مرات عديدة، وأثناء المحادثات التي سجلتها الشرطة الإيطالية، أبلغ عن حاجاته إلى استــشهاديين. وكانــت تلك المحادثات تتضمن رموزاً: "أريد أناساً يأتون من الــيابان"، هكذا قال الملا فؤاد لصومالي الشبكة كابيللا محمد سيزا الذي بقي في إيطالــيا. خلال محادثة بين الملا فؤاد وزعيم أنصار الإسلام في ألمانيا، عبد الرزاق محجــوب. طلب فؤاد من محجوب أن يرسل إلى العراق أشخاصاً مرضى وضعفاء من أجل العمليات الاستشهادية...

اكتــست عملية **بازار** التي جرت في إيطاليا أهمية كبيرة بالنسبة لكل أجهزة الاســتخبارات في أوروبا. لقد أظهرت، في الواقع، أن الخلايا التي تدّعي عادة أنها

(1) في كانون الأول 2004، محمد طاهر حميد، مصطفى أمين محمد، راضي عياشي، وكابيللا سييزا هم في الحجز الاحتياطي في إيطاليا.

(2) في كانون الأول 2004، ما زال مراد طرابلسي رهن الحجز الاحتياطي في إيطاليا.

(3) المحكمــة المدنــية في مــيلانو، غــيدو سالفيني، رقم R.G.N.R. "قرار تطبيق إجراء التوقيف الاحتياطي"، 21 تشرين الثاني 2003، وثائق المؤلف.

مـــن القاعـــدة قـــد انسلخت لتتحول إلى شبكة إسناد للإسلاميين المسلحين في كردســـتان العـــراق. وهذا هو الوجه الجديد للقاعدة الذي كشف عنه المحققون الإيطالـــيون. إن الخلايـــا تتصرّف بطريقة مستقلة ذاتياً ولا تمرّ عبر المركز، وتقريباً دون ارتـــباط تسلـــسلي هرمـــي. بالطبع، كل مجموعة تدين بالولاء لزعامة أحد أعـــضائها، لكنها مع ذلك لا تتبع رسماً تنظيمياً محدداً. ذلك أن البنية الهرمية لقيادة القاعدة أُهملت منذ انطلاق عمليات مكافحة الإرهاب في أفغانستان. فقد أصبحت كـــل خلـــية تتصرف على نحو مستقل، على غرار شبكة ذات حصانة. وبالنسبة لمجمـــوعة الإيطالـــيين، فـــإن المثال هو أنصار الإسلام، الجماعة التي يشرف عليها الزرقاوي. وقبل حدوث الضربات الأميركية على كردستان العراق بقليل، عثرت ديغـــوس علـــى أثر رجل مقاتل أُخرج سراً من إيطاليا. وهو نور الدين إدريسي (المعروف باسم أبي علي)، الأمين السابق لمكتبة مسجد مدينة كريمونا. وهو لم يعد يعـــيش في تلـــك المديـــنة الإيطالـــية الوادعة، وإنما في جبال كردستان العراق في خورمال، مركز جماعة أنصار الإسلام. فقد سافر قبل عدة أشهر مع زوجته وولديه إلى منطقة الحرب تلك، وذلك عن طريق دمشق، قبل أن يلتجئ إلى إيران.

وفي آذار 2003، أصـــبحت تلك المنطقة المحصورة والنائية، في أقصى العراق وإيـــران، الأرض المفـــضلة لدى الزرقاوي. ووضع فيها هذا الأردني خلسة رجاله الـــثقات وبالتدريج أنشأ خلايا الحركات الإسلامية في كردستان وهو في معسكر هيرات، في أفغانستان.

كـــان نور الدين إدريسي، أمين المكتبة السابق، موجوداً إذاً في خورمال، غير بعـــيد عن مدينة سارغات، التي افتتح فيها الزرقاوي معسكرات التدريب ليدرّب فـــيها بـــشكل خاص على استعمال الأسلحة الكيماوي والبكتيرية. ولقد قصف الأميركيون مواقع الجماعة. واتصل نور الدين إدريسي عبر هاتف محمول يعمل عبر الأقمار الصناعية بشريكه في إيطاليا، إمام مسجد كريمونا، التونسي مراد طرابلسي. وأبدى قلقه أمام رجل الدين ذاك من وضع المتطوعين الجدد وتمنّى مقاتلين محنَّكين إلى جانبه. ورفض الإدريسي على الهاتف حتى في هذه المناسبة مجيء هذا الشخص أو ذاك من الإخوان في الدين خشية ألا يكون جديراً بالثقة في ساحة المعركة. لقد

سجلت الشرطة الإيطالية تلك الأحاديث بين الرجلين. وكان نور الدين الإدريسي على اطلاع بأمور تدريب الشبان المجندين الذين تمّ استدعاؤهم إلى العراق ليقاتلوا الأميركيين.

كانت أصول كثير من هؤلاء المقاتلين تعود لشمال أفريقيا. وهؤلاء الأفراد، وبعد أن هاجروا إلى إيطاليا، وغالبيتهم من التونسيين، تحولوا إلى ساحات الجهاد الجديدة. فإن كان الشيشان هو المقصد المفضل لدى الشبان الراديكاليين خلال التسعينيات، فإن العراق أصبح يشغل منذ بداية الألفين إحدى الساحات الأولى في قائمة المناطق الساخنة. وقد أثبتت الأجهزة الخارجية الإيطالية أن كثيراً من الإيطاليين من أصول تونسية قد شاركوا في عمليات القتال قبل وأثناء وبعد حرب العراق، إلى جانب منظمة أنصار الإسلام.

وخلال أشهر طويلة، اشتبه محققو ديغوس بكون الشبكات السرّيّة ترسل على نحو غير قانوني مقاتلين إلى العراق. ومن جهة أخرى تحدث المحققون، وليس فقط الإيطاليون منهم، وإنما أيضاً مختلف الأجهزة الغربية، في ذلك الوقت، عن محاولة لإعادة انتشار أعضاء القاعدة في كردستان العراق. وتمنّى الإسلاميون أن يكرروا في تلك المنطقة الفقيرة الجبلية، التجربة الأفغانية بما فيها من: خلافة، ومعسكرات للتدريب، وعقوبة الرجم، والإعدامات العلنية واعتبار الشريعة بمثابة دستور. كان المقاتلون سيقومون بكل شيء ليجعلوا من أنصار الإسلام قاعدة جديدة. وستمدّ الجماعة شبكاتها إلى قلب أوروبا نفسها، وخاصة في ألمانيا وإيطاليا...

لقد ساندت الخلية الإيطالية لأنصار الإسلام بالفعل إعادة الانتشار الضخم ذاك للقاعدة. لقد شاركت مباشرة في إرسال حوالى أربعين إسلامياً راديكالياً إلى كردستان. بعضهم قد تدرب في تلك المنطقة وعاد إلى إيطاليا حالما أنهى تدريبه على التقنيات. بينما هاجم آخرون في مرات عديدة وحدات الجيش الإيطالي في العراق. لكن الشبان المتطوعين هم قبل كل شيء "مكرسون للدعم اللوجستي، وللتمويل، ولتوريد جوازات السفر المزورة"[1] مثلهم مثل خلية التوحيد.

(1) الدعوى القضائية الإيطالية، قضية أنصار الإسلام، 2003، وثائق المؤلف.

يكـــشف هذا المخطط اللوجستي عن الدور الجوهري الذي تلعبه سوريا في عبور المجاهدين إلى كردستان. وفي اتجاه معاكس، يبدو أيضاً أن عدداً منهم كان قد وجـــد ملجـــأ في دمشق أو في حلب بعد الضربات الأميركية. إن أجهزة التحقيق الإيطالـــية التي تعنى بشؤون الإرهاب لفتت النظر إلى حركة المتطوعين بين أوروبا والأنصار[1] من سوريا. وبحسب الأجهزة الإيطالية، فإن الزرقاوي وأنصار الإسلام قد "استفادا بالفعل من بنية لوجستية في سوريا"[2].

إن استنتاجات القضاء الإيطالي تلك في إطار قضية أنصار الإسلام تؤكد ما جاء في الوثائـــق القضائية الأردنية التي سبق ذكرها، والتي بحسبها فإن أبا مصعب الزرقاوي قـــد أقـــام مراراً في سوريا بعد هروبه من أفغانستان. إن الروابط التي تصل الزرقاوي بكردستان العراق تمر عبر سوريا، وعلى نحو أكثر دقة، عبر مدينتي دمشق وحلب.

في إيطالـــيا، نـــسق أعضاء جماعة أنصار الإسلام العمليات. وكما هي الحال لـــدى التوحـــيد، فإن مجاهدي أنصار الإسلام جلبوا دعماً ثابتاً للإسلاميين على الأرض. لقـــد ضـــاعف الشابان الكرديان محمد طاهر حميد ومحمد مصطفى أمين المقـــيمان في ضـــواحي بارما، مساعيهما لتجنيد مقاتلين من الشارع، ومن جوار أمـــاكن العبادة. وقد أكد محمد طاهر حميد الذي استجوبته الشرطة الإيطالية وحققت معه في تشرين الأول 2003، بأنه كان قد شرع بالجهاد في صفوف الحركة الإسلامية في كردستان، وهي إحدى المنظمات التي توحدت مع أنصار الإسلام. وأكد أيضاً أن الملا كريكار، الذي عرفه منذ عام 1993، هو الزعيم الأول لأنصار الإسلام[3]. إضافة لـــذلك، فإن رقمي هاتف الشابين المجنّدين وردت في أيلول عام 2003 في دفتر أرقام الهواتف الشخصي للملا كريكار. وكان هذا الأخير موقوفاً وقتذاك في أمستردام قبل أن يـــتمّ ترحيله إلى النروج. وخلال تنصت هاتفي أجرته الشرطة الإيطالية بتاريخ 18 كانـــون الثاني 2004، فقد أبدى الرقم الثاني في شبكة التجنيد لصالح أنصار الإسلام،

(1) المصدر السابق.

(2) المصدر السابق.

(3) المحكمـــة المدنـــية في مـــيلانو، غـــيدو سالفيني، رقم R.G.N.R. "قرار تطبيق إجراء التوقيف الاحتياطي"، 21 تشرين الثاني 2003، وثائق المؤلف.

المصري راضي العياشي (المعروف باسم مرعي) قلقه من اعتقال الملا كريكار.

في 9 آذار 2003، تلقى مرعي اتصالاً دعاه للانضمام إلى الملا فؤاد في سوريا. وكان هذا الاتصال من شخص اسمه ابراهيم (ويُعرف أيضاً بأبي عبدو). وكان الهاتف السويسري ذو البطاقة المسبقة الدفع الذي استخدمه المدعو إبراهيم هو في الواقع أحد الهواتف المحمولة التي استخدمها الزرقاوي شخصياً. ولقد استخدم ذلك الأردني من جهة أخرى - كما أظهر التحقيق لاحقاً - هذا الخط الهاتفي من سوريا للإتصال بقاتل لورنس فولي، سالم سعيد بن سويد. وأثبتت الدعوى القضائية الإيطالية، من جهة أخرى، أن الزرقاوي كان قد استخدم نفس الهاتف للاتصال مع المجنَّدين الإيطاليين التابعين له. وحتى شهر تشرين الأول من العام 2004، كان يستخدم تلك البطاقات الهاتفية المسبقة الدفع والمجهولة الاسم، والتي اشتراها العديد من أفراد جماعته المهمِّين من سويسرا للاتصال بطريقة مجهولة. كان الزرقاوي، وكذلك أيضاً مخطط هجمات 11 أيلول 2001، خالد شيخ محمد، يمتلك تلك الرقاقات الإلكترونية السويسرية الثمينة.

واصل عملاء ديغوس تحرياتهم في الميدان. وساعدتهم السلطات الأميركية في مطاردة "المقاتلين غير الشرعيين". ففي 18 كانون الثاني 2003، وفي قلب ميلانو، استجوب رجال الشرطة المصري راضي العياشي، المسمى بمرعي. وهذا الأخير هو مجنِّد في المقام الأول لشبكة أنصار الإسلام في أوروبا. وفي فهرس هاتفه المحمول الثريا الذي يعمل عبر الأقمار الصناعية، فكك المحققون رموز الأرقام الهاتفية لعسكريي الزرقاوي في كردستان العراق. وكشفت أرقام هاتفية أخرى مسجلة في الفهرس الإلكتروني لشريك العياشي، واسمه صالي عبد الله علي، عن عناوين أبي أشرف، وهو عسكري مقرب من الزرقاوي.

كان أبو أشرف، واسمه الحقيقي خالد مصطفى خليفة العاروري، وهو من أوائل شركاء الزرقاوي في منظمة بيعة الإمام[1] قد شغل لديه، حتى عام 2003،

(1) "دائرة المخابرات العامة الأردنية تكشف مجموعة جديدة لأنصار الإسلام والقاعدة والتي خططت لعمليات إرهابية ضد السياح والمصالح الأميركية في الأردن، وضد ضباط المخابرات"، صحيفة الرأي، 13 أيلول 2003.

مركز مدير مكلف بإدارة المعسكرات، لا سيما في كردستان العراق.

لقد كشفت التحقيقات الأوروبية أيضاً عن العديد من الروابط الوثيقة بين التوحيد وخلية أنصار الإسلام الإيطالية. من جهة أخرى فإن المسؤول الخاص عن الشبكة الألمانية محمد أبو ديس (أبو علي)، اتصل بالزرقاوي بهاتف يعمل عبر القمر الصناعي والذي استخدمه لاحقاً المدعو رمادنا عبد الحليم، وهو عضو في المجموعة الإيطالية. كانت الاتصالات متكررة بين الخلايا الألمانية والإيطالية. وأبو علي ذاك الذي حرص على الاتصال الهاتفي المنتظم مع الزرقاوي عند هروبه إلى إيران، كان أيضاً على اتصال مع أعضاء آخرين من خلية أنصار الإسلام الإيطالية، مثل مؤيد سيد وثائر منصور.

سرعان ما تم توقيف مجنِّد آخر من جماعة أنصار الإسلام، في هامبورغ هذه المرة، في 23 تشرين الثاني عام 2003، استناداً إلى إنابة قضائية إيطالية. وهذا الشخص هو جزائري في الثلاثين من العمر يدعى عبد الرزاق محجوب (المعروف بالشيخ)، والذي يبحث عنه أيضاً القضاء الإسباني في إطار تحقيق حول بعض مشاريع الاعتداء على كوستا ديل سول[1]. وكانت الشرطة الإيطالية قد أوقفته للمرة الأولى في تموز 2003، قبل أن تطلق سراحه لاحقاً بعد بضعة أسابيع. وبحسب قرار الاتهام الذي أصدره قاضي مكافحة الإرهاب الإسباني بالتسار غارزون، فإن محجوب "قد سافر إلى دمشق في آذار 2003 بغرض الذهاب إلى العراق لاستقبال مجاهدين آخرين"[2].

في هامبورغ، تم اعتقال عبد الرزاق محجوب بطلب من السلطات الإيطالية. واتهمه محققو ديغوس بأنه أحد المحاور الأوروبية لشبكة الزرقاوي في العراق. لقد جنَّد محجوب شباناً راديكاليين مرشحين للقيام بمهمات استشهادية في ذلك البلد. كان يعمل لصالح الزرقاوي، بالاتصال مع تونسيين آخرين استجوبا في ميلانو وهما: بو يحيى ماهر عبد العزيز وحسني جمعة. وقد تأكد

(1) سلمت ألمانيا عبد الرزاق محجوب إلى إيطاليا حيث تمّ وضعه فيها قيد الحجز الاحتياطي.

(2) "إسبانيا تقول إن ثلاثة جزائريين هم على ارتباط بالهجمات على العراق"، صحيفة واشنطن بوست، 20 أيار 2004.

المحققـــون الألمان بالاستدلال بأن محجوب حافظ أيضاً على علاقات مع مجموعة 11 أيلول 2001 التي اتخذت من هامبورغ قاعدة لها. وفي نهاية الأمر، تم تسليم عـــبد الـــرزاق محجوب إلى إيطاليا في 19 آذار عام 2004. وبحسب المسؤولين الألمان، فإنه قد يكون مسؤولاً عن تجنيد حوالى مائة من المجاهدين في ألمانيا. لقد انـــضم بعض هؤلاء إلى مجموعات الزرقاوي في الفلوجة والمناطق المحيطة ببغداد. وشـــارك آخـــرون في الهجمات العنيفة على الوحدات الإيطالية. حتى أن بعض المجـــنَّدين الإيطاليين قد شاركوا في تجهيز شاحنة مفخخة، انفجرت في الناصرية في تـــشرين الـــثاني 2003، لتقتل 19 جندياً إيطالياً. وشارك الإيطالي من أصل مغـــربي كمـــال مرشدي في الهجوم الصاروخي على فندق الرشيد في بغداد في تشرين الأول 2003، حيث كان ينـــزل فيه مساعد وزير الدفاع الأميركية بول وولفويتـــز. يـــبدو أن الإيطاليين الذين ذهبوا للقتال في العراق يحلو لهم مهاجمة الجنود التابعين للوحدة العسكرية القادمة من بلادهم.

لقـــد اعـــتمدت الشبكة الإيطالية التي تم تفكيكها خلال عام 2003 على مـــنظمة مستجدة. وفيها اختلط رجال العمليات في القاعدة مع أعضاء جماعة أنصار الإسلام من أجل مضاعفة أعداد المجندين، وزيادة الموارد المالية، وتوسيع الـــشبكات اللوجستية. إن كل جماعة تغذي الأخرى. ولهذا السبب كان وجود الـــصومالي كابيلا محمد سيزا في خلية أنصار الإسلام الإيطالية له دلالة كبيرة. وقـــبل اعـــتقاله في ميلانو في نيسان 2003، كان معروفاً لدى أجهزة مكافحة الإرهاب بوصفه مبعوثاً هاماً لدى شبكة القاعدة. لقد اشتبه المحققون الإيطاليون والإسرائيليون آنذاك بأنه موَّل، عن طريق دبي، الاعتداء على فندق بارادايس في مومباســـا، في كينـــيا، في 28 تشرين الثاني 2002، والذي أدى إلى مقتل ثمانية أشـــخاص. وكان كابيلا محمد سيزا، خلال محادثاته، يتخذ غالباً من الملا فؤاد مـــرجعاً لـــه، ويصفه بأنه: "شخصية هامة في أنصار الإسلام، ويقف في سوريا حارساً لبوابة العراق"(1).

(1) الدعوى القضائية الإيطالية، قضية أنصار الإسلام، 2003، وثائق المؤلف.

علـــى العموم، فإن خلية أنصار الإسلام في إيطاليا كان لها موارد لسياستها، علـــى المدى الإنساني واللوجستي. ففيما يتعلق بالرجال، فإن 48 مجاهداً في النهاية غادروا إيطاليا للانضمام إلى جماعة أنصار الإسلام. وعلى المستوى اللوجستي، فإن الإســـهامات كانـــت أيضاً خطيرة. لقد استعمل أعضاء أنصار الإسلام في إيطاليا العديـــد من الهواتف التي تعمل عبر الأقمار الصناعية والتي تكلفتها أعلى على نحو واضح من تكلفة الهواتف المحمولة التقليدية. وكانوا كثيري السفر، في أرجاء إيطاليا كما في خارجها. وهذه الحركية لها تكلفتها. أضف لذلك، فإن الجماعة استفادت مـــن العديد من "منازل الضيافة" في سوريا، مكان استقبال المجندين الجدد. لكن، وبالنتـــيجة، من الصعب الاعتقاد بأن السوقيات[1] القائمة بين إيطاليا والعراق لا تتلقى الدعم من منظمة مهيكلة.

(1) السوقيات: فن تموين الجيوش ونقلها وإيوائها. (المترجمة).

الفصل الثالث

التهديدات الكيماوية لأوروبا

في 10 تموز 2002، أي قبل سبعة أشهر من قيام كولين باول بلفت انتباه العالم إلى الزرقاوي ومساعديه، تم تحذير السلطات التركية من سم بيولوجي يتم إرساله إلى أراضيها. وأن تلك المادة العالية السمية قد أُرسلت من الخارج إلى شخص سمى نفسه مصعب. كان على مجموعة أشخاص أن تتسلم المغلّف وأن تستخدم المادة خلال عشرين يوماً، قبل أن تفقد تلك المادة خواصها الهجومية، ضد السفارتين الروسية والأميركية في تركيا. لقد حذرت السفارة الأميركية في أنقرة آنذاك مديرية الأمن العام التركية من قرب حدوث هجوم من هذا الطراز. وأعطت وكالة المخابرات الأميركية CIA للشرطة المحلية، اسمين هما أبو عطية وأبو تيسير، وهما شريكان للزرقاوي عملا في شمال القوقاز. لقد ضاعفت الشرطة المحلية من تيقظها في مجال عملها. كان بوسع المهاجمين أن يصيبوا بالتلوث مجموعات سكانية على نطاق واسع لو أنهم نثروا المادة على مقابض الأبواب، في الملاعب الرياضية أو القطارات. لكن، ذلك التهديد لم يدخل حيز التنفيذ.

في زمن الأحداث، خلال صيف عام 2002، لم تنكر الحكومة الجورجية برئاسة إدوارد شيفرنادزيه، تأصّل خلايا القاعدة في القوقاز. وبضغط من السلطات الأميركية، تعهد النظام الجورجي بتوقيف الجماعات التي وجدت ملجأ لها في ممرات جبال بانكيسي بشكل خاص. وبحسب مصادر داخلية في أجهزة المخابرات الروسية، فإن Federal Security Service (FSF)، أي جهاز الاستخبارات الروسي، لا يستقبح عمليات مكافحة الإرهاب الأميركية التي تجري وسط الأراضي الجورجية نفسها[1]. بيد أن قوات الأمن الأذربيجانية هي التي اعتقلت أخيراً، في آب 2003،

---

(1) وثيقة تحليلية لجهاز FSB، حول الوهابية في القوقاز، FSB، أرشيف المؤلف.

عــدنان محمد صديق، المعروف بأبي عطية. وقد سُلِّم هذا الأخير بعد وقت قصير للأردن، بلده الأصلي[1].

منذ هجمات الحادي عشر من أيلول 2001 وانطلاق عملية الحرية الدائمة في أفغانــستان، هــرب مئات من عناصر طالبان وأعضاء القاعدة، كما ذكرنا، من عمليات القصف. وعبر بعضهم ممر خيبر ليذهبوا إلى المناطق القبلية في وزيرستان، وانطلق آخرون إلى إيران، بهدف الوصول إلى العراق - وتلك هي حالة الزرقاوي، فيما اتجه آخرون إلى مختلف أقاليم القوقاز مجتازين تركمنستان أو أوزبكستان.

حتى قبل الحادي عشر من أيلول 2001، كانت شبكة القاعدة قد اتخذت في القــوقاز الــتدابير نفسها التي اتخذها في كردستان العراق. فبعض المناطق المحصورة والــتي هي مرتع لحرب عصابات إسلامية مسلحة كان بوسعها في الواقع أن تقدم قــواعد انــسحاب لمقاتلي القاعدة. وكانت تلك هي حالة الشيشان، وداغستان، وجورجيا. وقد اندرج أبو عطية بين عسكريي القاعدة الأوائل في جورجيا بدءاً من العام 1999.

كــان أبو عطية قد اضطرّ للهرب من الشيشان بعد العمليات العنيفة المضادة للإرهــاب عام 1999. وأبو عطية أردني مثله مثل أبي زبيدة - قائد عمليات القاعدة - والزرقاوي. تزوج أبو عطية من امرأة شيشانية، واستقر في القوقاز، ومثّل مصالح الــزرقاوي في تلك المنطقة المتأزمة. أبو عطية محارب سابق في الشيشان حيث فقد ســاقه، ويتمتع أبو عطية بخبرة خاصة في استخدام الغازات السامة[2]. وسرعان ما اســتقبل أبــو عطــية المجنَّدين الجدد القادمين من أوروبا، ودربهم على استخدام المتفجرات والمواد الكيماوية. وفي عدد كبير من الحالات، فإن هؤلاء المجندين ما إن عادوا إلى بلادهم الأصلية، حتى شكلوا خلايا وضعت تحت المسؤولية المباشرة لأبي عطية.

وأبو عطية هو أيضاً قريب من شخص يدعى يوسف عمرات، المعروف بأبي

(1) قناة اسبيس التلفزيونية، باكو، 25 أيلول 2003.

(2) المحكمة المدنية في ميلانو، غيدو سالفيني، رقم R.G.N.R 5230/02 "قرار تطبيق إجراء التوقيف الاحتياطي"، 21 تشرين الثاني 2003، وثائق المؤلف.

حفص، وهو المسؤول عن العمليات لدى زعيم المتمردين، الأمير خطاب. وبالطريقة نفسها التي وضع فيها الزرقاوي بيادق في كردستان، تقرّب أيضاً من الحركات الإسلامية المسلحة في شمال القوقاز.

في تلك المنطقة، وبتحديد أكبر في ممرات جبل بانكيسي، على مقربة من قرية أومالو، على سفح الجبل، تعلم الفرنسيون مروان بن حامد، ومناد بن شلالي، ونور الدين طرق استعمال الأسلحة الكيماوية. وخلال أسابيع أتقنوا تقنيات القتال برفقة متمرّدين شيشان وأعضاء رفيعي المستوى في القاعدة، ومنهم أبو عطية. وما لبث مناد بن شلالي أن كشف عن موهبة كيميائي وتخصص في هذا العلم. لم يكن المكان مناسباً لصنع مواد بالغة الاتقان، لكن المجندين تدربوا مع ذلك على صبِّ المشتقات المعالجة بالسيانور في شبكات جرِّ المياه. وعثر المحققون الفرنسيون لاحقاً في الأمتعة الشخصية للمجاهدين على أزرق الميتيلين، الذي يعتبر ترياقاً ضد السيانور...

في كانون الأول 2002، عمل جهاز مراقبة الأراضي (DST)[1] على استجواب أفراد كثيرين من أصول جزائرية في ضاحية باريس، في أول الأمر في كورنوف ثم في رومنفيل. واكتشف المحققون في تفتيشهم الأول، قوارير فيها مواد كيماوية، وقارورتي غاز وبِزَّة حماية من المواد الكيماوية. كما اكتشفوا أيضاً أجهزة إشعال في حالة تشغيل.

وصرّحت وزارة الداخلية بعد ذلك بقليل بأن "الأنظمة الالكترونية المعدة كانت في حالة تشغيل وتسمح بإشعال أجهزة متفجرة، وذلك بإطلاق عن بعد بمساعدة هواتف محمولة[2]". ونجد أن هجمات مدريد، في 11 آذار 2004، شنّت بهذه الطريقة.

بعد اعتقال المشتبه الرئيسي في كورنوف، مروان بن حامد، استجوب جهاز DST مناد بن شلالي[3] في منزل في شارع ديفيد- روزنفيلد، في رومنفيل، في

(1) هو أعلى أجهزة الاستخبارات الفرنسية. (المترجمة).

(2) بيان صحافي من وزارة الداخلية، والأمن الداخلي، والحريات المحلية 30 كانون الأول 2002، وثائق المؤلف.

(3) ما زال مروان بن حامد، ومناد بن شلالي، وأبوه شلالي بن شلالي اعتباراً من كانون الأول 2004، موضوعين في الحبس الاحتياطي في فرنسا.

سـان دنـيس. وتم الاستيلاء على الأدلة الثبوتية البالغة الأهمية والتي تدل على أن المجمـوعة كانت تصنع أسلحة كيماوية. وبحسب ما جاء في بيان وزارة الداخلية الفرنـسية، فـإن التفتـيش قد كشف عن وجود مواد تسمح "بتصنيع متفجرات وغازات سامة من طراز السيانور"(1).

فكّر أفراد هذه الشبكة الشيشانية، على ما يبدو، بضرب السفارة الروسية في فرنـسا انتقاماً لاختفاء الأمير خطاب وانتقاماً أيضاً من الضربة العنيفة التي وجهتها السلطات الروسية للمقاتلين الشيشان أثناء احتجازهم رهائن في مسرح دوبروفكا، في موسكو، في 24 تشرين الأول 2002.

كان بحوزة الأشخاص المستجوبين مخبراً يدوياً لإنتاج المواد الكيماوية. وكان مناد بن شلالي، شقيق مراد بن شلالي، المعتقل في غوانتنامو وابن شلالي بن شلالي، الإمـام الـراديكالي في مديـنة فينيسيو، يعدُّ لهجمات من شقته. أما غالبية هؤلاء فكانت على علاقة مع مجنِّد القاعدة، رشيد بوخلفا، المعروف بأبي ضحى، المولود في 24 تشرين الثاني 1969، في قسطنينة، في الجزائر. وهذا الأخير مقرب أيضاً من أبي مـصعب الزرقاوي. وينتظر أبو ضحى تسليمه للولايات المتحدة حيث يُشتبه بمشاركته في محاولة الاعتداء على مطار لوس أنجلوس في كانون الأول عام 1999.

إن هؤلاء الشبان الإسلاميين معروفون بإقامتهم في أفغانستان، ثم في الشيشان. ولقد انطلق آنذاك التحقيق الذي سُمي بالشبكات الشيشانية وانصبّ الاهتمام على عائلـة بن شلالي. كان الأب، شلالي بن شلالي قد اعتقل لدى عودته من الجهاد البوسـني وبحوزته سلاح ناري. وسرعان ما أكد وزير الداخلية الفرنسي في ذلك الوقت، نيكولا ساركوزي، أن أحد الأشخاص المعتقلين، وهو الابن الأكبر، مناد بن شلالي، كان قد دُرِّب على استخدام المواد الكيماوية(2). وأقرَّ رفيقان له آخران بالتخطـيط لـشن هجمات كيماوية على السفارة الروسية في باريس. لقد كانوا

(1) بيان صحافي من وزارة الداخلية، والأمن الداخلي، والحريات المحلية 30 كانون الأول 2002، وثائق المؤلف.

(2) بيان صحافي من وزارة الداخلية، والأمن الداخلي، والحريات المحلية 30 كانون الأول 2002، وثائق المؤلف.

يـــرمون لأجـــل تلك الغاية استخدام سم الريسين وذيفانات بخصية[1]، وهي مواد عالـــية الـــسمية. وقد رأى المحققون الفرنسيون في جهاز DST أن جماعة فينيسيو مرتبطة على نحو واضح بالشيشانيين، وأيضاً بالزرقاوي.

بين عودة مناد بن شلالي من جورجيا واعتقاله في رومنفيل، استطاع المحققون الفرنـــسيون أن يثبتوا أنه كان قد رتب أمر مختبره اليدوي لإنتاج الريسين في شقة العائلة في فينيسيو. وفي وسط حي مينغيت نفسه، كان مناد بن شلالي يعالج يدوياً، خلال أسابيع عديدة، مواد عالية السمية بمساعدة أقاربه، مخزناً الذيفانات في علب كـــريم نيفـــيا. وفي نهايـــة الأمر اعترف أبوه بأنه كان على اطلاع بالتحضيرات الكيماوية التي انكب عليها ابنه في غرفته. وفي مرات عديدة لاحقة قام المسؤولون عـــن مكافحة الإرهاب الفرنسيون بالإبلاغ عن تورط الزرقاوي في الإعداد لتلك الهجمات، تورطاً غير مباشر على الأقل.

أما من جهة قاضي مكافحة الإرهاب الفرنسي جان - لوي برغيير فقد أكد عـــام 2004 أن تـــدخل جهاز DST قد سمح بإحباط "محاولة هجوم كبرى والتي [كانـــت ستـــصيب] على الأرجح قطار الأنفاق الباريسي وأهدافاً أخرى بسلاح كيماوي جديد"، وهي عملية كانت بحسب رأيه، ستسبب في فرنسا "أمواتاً أكثر من أموات مدريد" خلال هجمات 11 آذار 2004[2].

لكن اسم الزرقاوي عاد أيضاً ليتعلق بتهديد آخر يدور حول اعتداء كيماوي يـــستهدف هذه المرة بريطانيا العظمى. ويشبه هذا السيناريو شبهاً كبيراً ذاك الذي ســـبق ذكره. فبعد مرور أيام على الاعتقالات في فرنسا، وبناء على معلومات من السلطات الفرنسية، أوقفت الشرطة البريطانية، في 5 كانون الثاني 2003 ستة رجال مـــن أصـــول شمـــال أفريقية في شقة في حي وود غرين، شمال لندن. وقد أوقفت ســـكوتلانديارد أربعة منهم لتصنيعهم مواداً كيماوية ذات صلة بمشروع إرهابي. وهـــم مصطفى طالب 33 سنة، ومولود فيداغ 18 سنة، وسيدالي فيداغ 17 سنة،

---

(1) بخصيّ: صفة عصية لاهوائية تنمو في المعلبات وفي اللحوم غير المطبوخة. (المترجمة).

(2) "عـــندما ألقـــى القاضي بروغيير قنبلة أمام الرؤساء"، صحيفة لوكانار انشينيه، 6 تشرين الأول 2004.

وسمير فيداغ[1] 26 سنة. وعثرت الشرطة العلمية البريطانية في الشقة على آثار سم الريسين. لقد دخل هذا السم التاريخ عام 1978، باغتيال المنشق البلغاري جورجي ماركوف، الذي قُتل بعد حقنة مميتة من الريسين فوق جسر واترلو. وكانت الجرعة المميتة التي حُقن بها بواسطة إبرة قد تم إخفاؤها في مظلة. وهكذا ولدت أسطورة "المظلة البلغارية". لكن بوسع هذه المادة أيضاً أن تقتل على نطاق واسع جداً: والأمر برمته يعتمد على كيفية نشرها.

كان الأفراد ذوو الأصل الجزائري المعتقلون في شقة في وود غرين يحضِّرون لهجمات على أهداف مدنية في المملكة المتحدة. وبحسب مصادر مقربة من التحقيق البريطاني، فمن الممكن أن يكون أبو عطية قد أرسلهم إلى بريطانيا العظمى ليشنّوا فيها هجماتهم الكيماوية. إن هذه الفرضية تتطابق مع تصريحات ونتائج التحقيق الألماني حول خلية التوحيد. ففي مناسبات عدة، أصرّ المحققون الألمان على أمر أن بنية الزرقاوي قد انتقلت إلى المملكة المتحدة. أما أحد المحاور الأهم في شبكة الزرقاوي في بريطانيا العظمى فهو مركز لجوء في لوتون، في ضاحية لندن. أضف إلى ذلك، فقد استولى المحققون البريطانيون بين لوتون ولندن على 500 كيلو غرام من نيترات الأمونيوم، خلال غارة قاموا بها في نيسان 2004... ودائماً بحسب المصادر البريطانية، فإن أولئك الذين كانوا يعتزمون استخدام تلك الكمية الكبيرة من المتفجرات كانوا على صلة مع شركاء الزرقاوي في باكستان.

(1) تمّ وضع مولود وسمير فيداغ، في كانون الأول 2004، في الحجز الاحتياطي في بريطانيا العظمى بسبب استخدام جوازات سفر مزيفة.

الفصل الرابع

ظل قاتم على مدريد

كانت الساعة السابعة وتسع وثلاثين دقيقة تماماً، صباح يوم الخميس 11 آذار 2004، عندما انفجرت أربع قنابل بالقرب من محطة أتوتشا في مدريد. استهدفت الانفجارات محطات القطارات الرئيسية في مدريد في وقت ذروة الحركة: أتوتشا، والبوثو، وسانتا أوخينيا. يستقل الآلاف من سكان مدريد العاملين في الضاحية القطار كل صباح للذهاب إلى أعمالهم.

إن شدّة الانفجار مزقت هيكل القاطرات وأوقعت مئات الضحايا. لقد استيقظت مدريد وسط مشهد حرب، غارقة في حمام دم. إنه أعنف اعتداء يحصل في التاريخ الإسباني المعاصر.

أحصت السلطات الإسبانية في نهاية النهار، 192 قتيلاً و1400 جريح. إنها عشر عبوات ناسفة، تزن بمجملها 150 كيلوغرام، وضعها المهاجمون في ثلاثة قطارات مختلفة. وتم إبطال مفعول ثلاث قنابل.

بعد أن تجاوزت حكومة خوسيه ماريا أزنار لحظات الرعب الأولى، أدانت عن يقين جماعة إيتا ETA الإرهابية بوصفها مسؤولة عن تلك الاعتداءات. وردَّ، رئيس حكومة الباسك، خوان خوسيه إيباريتكس مؤكداً: "إن أولئك الذين ارتكبوا تلك الاعتداءات هم حيوانات، وليسوا باسكيين"[1]. في الساعة الثانية وعشر دقائق ظهراً، في 12 آذار 2004، جاء دور أرنالدو أوتيجي، الزعيم السياسي للانفصاليين الباسك، والقريب من إيتا، ليؤكد أن منظمة ETA "لا علاقة لها بالاعتداءات"[2]. وفي المساء نفسه، تعترف وزارة الداخلية باقتفاء أثر آخر: فقد

(1) "سلسلة اعتداءات تضرب مدريد وتوقع أكثر من مئة قتيل"، صحيفة لو موند، 12 آذار 2004.

(2) "آلاف الأشخاص في الشوارع، وإيتا تنفي أي مسؤولية"، وكالة الأنباء الفرنسية، 12 آذار 2004.

عُشــر في شاحنة صغيرة متروكة أمام محطة ألكالا دي هيناريس على سبعة صواعق وشريط كاسيت مسجلة فيه آيات قرآنية. وبدأ تحقيق أجهزة مكافحة الإرهاب في سياق أزمة سياسية كبرى وسط الحكومة الإسبانية. ولم يصمد خوسيه ماريا أزنار في الانــتخابات التــشريعية في 14 آذار، والــتي جــرت بعد ثلاثة أيام فقط من الهجمــات. لقد لام قسم من السكان الإسبان الحكومة على سياستها في التدخل أثــناء حــرب العراق، التي قد تُفسر جزئياً هجمات 11 آذار. واتهمها قسم آخر بمحاولة التلاعب بالانتخابات عن طريق تحميل إيتا مسؤولية الهجمات.

أمــام لجــنة التحقيق البرلمانية الإسبانية حول هجمات 11 آذار 2004، أكّد القاضــي بالتــسار غــارزون في 15 تموز 2004، القاضي الأول المكلف بقضايا الإرهــاب، أن المشاركة الإسبانية في حرب العراق تشكل "عنصراً نصّياً هاماً"[1] لتفسير هجمات 11 آذار.

وأصرّت منظمة القاعدة في كتيب أصدرته يضم 42 صفحة في كانون الأول 2003، ويحمــل عــنوان: العراق في الجهاد، آمال ومخاطر[2] على ارتباط إسبانيا بالعــراق، وعلــى رغبــتها في ضرب إسبانيا على سبيل المجازاة بالمثل: "نعتقد أن الحكــومة الإســبانية لن تكون قادرة على تحمل أكثر من ضربتين، وعلى الأكثر، ثــلاث ضــربات قبل أن تنسحب من العراق بتأثير الضغط الشعبي". ويتابع النص علــى هــذا النحو: "على افتراض أن القوات المسلحة بقيت بعد تلك الضربات، [...] إلا أن فــوز الحــزب الاشتراكي [...] سيكون الضمان لانسحاب الجنود الإســبان"[3]. وإذا ما تمت مقابلة تلك المقتطفات مع واقع الأحداث، فإنها تدوي استناداً لما جرى كتحذير مسبق غريب.

ويصف كتّاب هذا النص إسبانيا بأنها "حجر الدومينو الأول"، أما حجري اللعبة الآخرين فهما بولونيا ثم إيطاليا، الحليفتان الرئيسيتان للأميركيين في العراق. وخلف تلك

(1) الاســتماع إلى بالتسار غارزون ريل، قاضي التحقيق رقم 5 في قصر العدل الوطني بتاريخ 15 تموز 2004، أمام لجنة التحقيق البرلمانية حول هجمات 11 آذار 2004، وثائق المؤلف.

(2) "العراق في الجهاد، آمال ومخاطر"، كانون الأول 2003، وثائق المؤلف.

(3) المصدر السابق.

الجوانب التوقعية على نحو مدهش، يكشف هذا النص عن احترافية القاعدة المتزايدة في توجيه عملياتها. ويُطلب من كل "مجاهد" ألا يتصرف تصرفاً فوضوياً ومتهوراً وإنما أن يكون تصرفه وفق "إعداد وتخطيط". وإن هذين العاملين الأخيرين هما "أساس نجاح كل مشروع". إن هجمات مدريد هي تحديداً ثمرة تحضير دقيق.

تبـنّت تلك الهجمات ألوية أبي حفص المصري، في بيان نشرته حركة أنصار الإسلام، التي يوجهها، كما نعلم، الزرقاوي. وحتى أن أنصار الإسلام قد كرست صفحة خاصة من موقعها على الإنترنت لتلك الأحداث، تحت عنوان "جبهات الحرب الصليبية". ويُشاهد فيها صور كثيرة للهجمات. وتم العثور لاحقاً على شريط فيديو كاسيت يحوي تهديدات في أنقاض الشقة التي شغلها عدة أعضاء من شبكة مدريد يحمل شعار منظمة "أنصار القاعدة"، ليكون شاهداً على التقارب الحاصل بين المنظمتين.

إن انسحاب القوات الإسبانية من العراق لم ينقص في شيء من عزيمة الجماعات التي هاجمت في إسبانيا، كما أثبت ذلك في 18 تشرين الأول 2004، تفكيك خلية اعتزمت القيام بهجوم على المقر القضائي الإسباني. وفي 11 آذار، استهدفت القاعدة، عبر أتباعها، إسبانيا باعتبارها المحرك الأول للكفاح المناوئ للإرهاب في العالم.

لقد وقعت الهجمات في الساعة السابعة وتسع وثلاثين دقيقة صباحاً. وفي العاشرة وخمسين دقيقة، من النهار نفسه، اتصل شخص مجهول الهوية من مدريد بمفوضية الكالا دي إيناريس ليبلغ عن وجود شاحنة صغيرة مشبوهة. وبعد ساعتين، في الثانية والربع ظهراً، اكتشف المحققون في تلك السيارة وجود الصواعق السبعة وأشرطة تحتوي تسجيلاً لآيات قرآنية. وفي الثالثة والنصف نقلت السيارة إلى مركز شرطة مكافحة الإرهاب ليتم تفحصها هناك. إن عملية 11 آذار وقعت في جو من الشكوك، وواصل رجال الشرطة تحرياتهم تحت ضغط شعبي وسياسي.

في الليلة التالية، عمل المحققون باستمرار على هدى مختلف المؤشرات. وأعلنت مفوضية شرطة فاليكاس في ضاحية مدريد، عن اكتشاف شحنة ناسفة مخبأة في حقيبة رياضية. وكان ينبغي الانتظار إلى يوم السبت في 13 آذار ليوقف المحققون ثلاثة

مغاربة، هم: جمال زوغام، وأخيه محمد شاوي[1]، وشخص ثالث، يدعى محمد بقالي، وثلاثتهم هم موظفون في محل للهواتف المحمولة. وتم اعتقال أيضاً إسبانيين من أصل هندي، سوريش كومار وفيناي كولي[2] لبيعهما بطاقات هاتفية لزوغام وشاوي. وتم تحديد هوية مختلف المشبوهين بفضل تحليل الرقاقة الإلكترونية التي عُثر عليها في العبوة التي لم تنفجر. كان المشتبه به الرئيسي يعيش على بعد 200 متر من مكان الهجمات.

إن مفكرتي المتهمين الرئيسيين، زوغام المولود في طنجة عام 1973، وشاوي المولود أيضاً في طنجة عام 1969، قد أفادتا المحققين. وأكد شهود أنهم شاهداهما وهما يخرجان حقائب تُحمل على الظهر من السيارة المركونة في الكالا دي إيناريس. وكان أحد الشهود "قد أدهشه ارتداؤهما لقناع التزلج بينما لا يناسب الميترو هذا الطراز من اللباس"[3]. ويبدو أن زوغام هو أحد الذين وضعوا القنابل في مختلف المقصورات. وهو ليس مجهولاً لدى أجهزة مكافحة الإرهاب الإسبانية. ففي إطار أوسع تحقيق يجري على الإطلاق، بخصوص القاعدة في إسبانيا، وقد سُمي بعملية داتيل، ظهر زوغام بوصفه أحد شركاء مسؤول القاعدة في إسبانيا، وهو الإسباني من أصل سوري أبو الدحداح (عماد الدين بركات جركس)، المعتقل منذ هجمات 11 أيلول 2001 لدوره الكبير في إدارة العمليات في إسبانيا[4].

وكان اسم جمال زوغام قد سبق ظهوره في إطار الدعوى القضائية التي يترأسها منذ 1997 بالتسار غارزون حول القاعدة في إسبانيا. ففي مرات كثيرة، كان رجال الشرطة الإسبان يسجلون محادثاته مع مسؤول القاعدة في إسبانيا. وفي 14 آب 2001، اتصل زوغام هاتفياً بأبي الدحداح وكلمه بالآتي: "سأذهب يوم الجمعة لرؤية فزازي، وقد قلت له إن كان بحاجة للمال، فبوسعنا مساعدته مع

(1) في كانون الأول 2004، لا يزال جمال زوغام في الحبس الاحتياطي في إسبانيا. وأطلق سراح أخيه محمد شاوي، في 2 كانون الأول 2004، لكنه بقي تحت تصرف العدالة الإسبانية من أجل الدعوى الجارية حول هجمات 11 آذار 2004.

(2) تم أيضاً إطلاق سراح سوريش كومار وفيناي كولي، لكنهما بقيا تحت تصرف القضاء الإسباني في إطار الدعوى الجارية.

(3) "اعتداءات مدريد: خمسة اعتقالات"، وكالة أسوشييتد برس للأنباء AP News، 13 آذار 2004.

(4) ما زال أبو الدحداح، في كانون الأول 2004، في الحبس الاحتياطي في إسبانيا.

إخواننا"[1]. وكان مكان تلك اللقاءات مسجد بن مقادة في طنجة.

إن محمد فزازي، المرشد الأول للهجمات الدموية التي حدثت في الدار البيضاء في 16 أيـار 2003، هـو واعظ عابر في مسجد القدس، في هامبورغ، الذي كان يتـردّد إليه محمد عطا، المتهم بهجمات 11 أيلول 2001[2]. وتعتبر الشرطة المغربية محمـد فزازي المسؤول عن الحركتين المغربيتين السلفية الجهادية والصراط المستقيم، وهاتان المنظمتان هما المسؤولتان عن هجمات الدار البيضاء. وهو يمضي حكماً غير قابل للتخفيف من ثلاثين عاماً سجناً في المغرب.

لقد اكتشف المحققون آنذاك الشبكة الطنجية ذات الاستلهام السلفي، التي استطاعت أن تستفيد من مسامية الحدود بين المغرب وإسبانيا. لهذا السبب، فإن اعتقال عبد العزيز بن عيش كان أمراً لا بد منه. وقد استجوب في 14 حزيران 2003 لمـشاركته في هجمات الدار البيضاء، كما أنه متورط أيضاً في هجمات مدريـد التي حدثت بعد عدة أشهر: إن عبد العزيز بن عيش، وهو عضو جماعة شـهيرة مـن المجاهـدين، قـد ساهم في تنظيم جمال زوغام. وبحسب أجهزة المخابرات الألمانية، فإنه حافظ على علاقات مع خالد العاروري، الذراع الأيمن للزرقاوي[3].

أمـا اسم شقيق جمال زوغام، محمد شاوي، فقد ذكر أيضاً في المحادثات التي سـجلتها الـشرطة الإسبانية في وسط جماعة القاعدة عام 2001. وهكذا، وأثناء مناقـشة بين مسؤول القاعدة في إسبانيا، أبو الدحداح، وبين المغربي، وهو شخص ذو مهمـات عملياتية، فإن الثاني قال للأول: "ينبغي إقامة علاقة مع جمال[زوغام] وأخـيه محمـد شـاوي في طنجة". وأضاف المغربي: "سأذهب إلى طنجة لأنهما [الأخـوين] مقـرَّبان من سيد شدادي". إن المجاهد السابق العائد من الحرب في

(1) الدعوى القضائية الإسبانية رقم 35/2001، المتعلقة بنشاطات القاعدة في إسبانيا، وثائق المؤلف.

(2) بحـسب الدعوى القضائية الألمانية حول هجمات 11 أيلول 2001، فإن محمد فزازي وعظ في عامـي 1999و2000 في مسجد القدس في هامبورغ، في حين كان محمد عطا يتردّد على هذا المسجد الديني، وثائق المؤلف.

(3) تقرير شامل من (الشرطة الجنائية الألمانية BKA) حول أبي مصعب الزرقاوي، 2004، وثائق المؤلف.

البوسنة والهرسك، سيد شدادي متهم في إسبانيا لمشاركته في جماعة القاعدة[1].

قبل هجمات 11 آذار بوقت طويل، كان جمال زوغام وشقيقه محمد شاوي معروفين لدى أجهزة المخابرات الإسبانية. إن اسم زوغام وحده كان مدرجاً على قائمة ثلاثة أجهزة استخبارات على الأقل. إن جهاز DST الفرنسي كان يعرف أنه متورط في الملف الذي يسمى بالشبكة الأفغانية[2]، وكانت CNI الإسبانية قد عرَّفته بوصفه مقرباً من خلية القاعدة في إسبانيا، وأخيراً كانت DST[3] المغربية قد أدرجت اسم زوغام بوصفه عنصراً خطراً بعد هجمات الدار البيضاء.

على الصعيد الإجرائي، فإن جمال زوغام، المتهم الرئيسي في تفجيرات مدريد، كان أيضاً على صلة وثيقة بعامر عزيزي، الذي اتهمه القاضي غارزون عام 2003 بانتمائه إلى خلية القاعدة في إسبانيا. وكانت الشرطة الإسبانية وخلال تفتيش سابق أجرته في شقة جمال زوغام عام 2001 بناء على طلب من القضاء الفرنسي، قد اكتشفت الأرقام الهاتفية لعامر عزيزي[4]، أحد أرفع مسؤولي القاعدة في أوروبا. كان هذا الأخير قد أفلت من الشرطة الإسبانية وهرب إلى إيران حيث انضم إلى جماعة الزرقاوي.

قبل أن يلتقي عامر عزيزي بأبي مصعب الزرقاوي في إيران، حيث كان الأول هارباً من القضاء الإسباني، والآخر هارباً من القصف الأميركي، فإن الرجلين كانت لديهما معرفة مشتركة بشخص مغربي اسمه عبد اللطيف مرافق (المعروف بمالك المغربي)[5]. وبحسب القضاء الإسباني، فقد كان هذا الأخير[1] رفيقاً قريباً

---

(1) الدعوى القضائية الإسبانية رقم 35/2001، المتعلقة بنشاطات القاعدة في إسبانيا، وثائق المؤلف. وفي كانون الأول 2004، كان سيد شدادي ما يزال في الحبس الاحتياطي في إسبانيا.

(2) ظهر جمال زوغام في الملف القضائي للقضية التي تسمى بالشبكات الأفغانية. وفي إطار تلك الدعوى، اعترف ديفيد كورتير، الذي حُكم عليه بأربع سنوات سجناً بأنه التقى بجمال زوغام في مسجد في مدريد عام 1998.

(3) جهاز المخابرات المغربية (المترجمة).

(4) عامر عزيزي، مواطن مغربي ولد في 2 شباط عام 1968 في حيدامي، في المغرب. وفي كانون الأول 2004 أدانته إسبانيا، وهو فار.

(5) إن القضاء المغربي يبحث أيضاً عن عبد اللطيف مرافق في إطار هجمات الدار البيضاء في 16 أيار 2003.

من الزرقاوي في أفغانستان، وكانت عناوينه قد تم الاستيلاء عليها في شقة عزيزي في مدريد قبل هروبه. وأصبح عامر عزيزي بنظر قوى الأمن الإسبانية أحد مخططي هجمات 11 آذار 2004.

بخلاف الوضعين الألماني والإيطالي، حيث لعب الزرقاوي دوراً نشطاً وحاسماً، فإن ذلك الأردني لم تكن له إلا صلة غير مباشرة بالمجموعة التي ارتكبت هجمات مدريد. ومن المعلوم أن الأردني حافظ على علاقات مع عامر عزيزي، الذي كان يعرف جمال زوغام. وتلك الصلات قد أوضحها التوثيق القضائي الذي جمعه القاضي غارزون في إطار تحقيقه حول القاعدة.

لقد اقتفى المحققون الإسبان الذين تعرضوا لضغط سياسي وشعبي قوي مختلف الآثار التي تقود إلى الهجمات. إن عامر عزيزي هارب، وأصبح رجال الشرطة مرغمين على المتابعة مع أوائل مستجوَبي 13 آذار 2004، أي جمال زوغام ومحمد شاوي.

بينما كانت استجوابات جمال زوغام تترابط، قام رجال الشرطة بتجميع العديد من العناصر، والتي يرجع بعضها إلى أولى التحقيقات التي جرت في عام 2001 حول القاعدة في إسبانيا.

في عام 2001، كان رجال التحري الإسبان، الذين يعملون بموجب إنابة قضائية فرنسية، قد فتشوا منزل جمال زوغام، ذي الرقم 14 في شارع سيكيللو في مدريد. وعلاوة على العناوين التي سبق ذكرها لعامر عزيزي وأبي الدحداح، اكتشف رجال الشرطة وقتذاك عناوين عدد كبير من رجال عمليات القاعدة، لا سيما بطاقة زيارة لعضو في شبكة أنصار الإسلام، أبو مؤمن الكردي، المقيم في السويد والقريب من الملا كريكار، المؤسس المخلوع للحركة الإسلامية الكردية. استولى رجال الشرطة أيضاً على شريط فيديو يسرد بالتفصيل معارك وعمليات أنصار الإسلام. وبحسب الشرطة الإسبانية، فقد كانت وظيفة هذا الشريط الدعائي تسهيل الجهود المستقبلية بهدف تمويل عمليات الحركة المقبلة، تلك الحركة التي وجهها لاحقاً الزرقاوي. احتوى الشريط أيضاً على عناوين في النروج لمسؤولي الجماعة العسكريين المفترضين، أي الملا كريكار وشقيقه أبو فاروق. وفي مرات

(1) قرار الاتهام، قضية رقم 35، قاضي التحقيق رقم 5، 17 أيلول 2003، وثائق المؤلف.

كـــثيرة، ســـجلت أيـــضاً الشرطة الإسبانية اتصالات بين أحد أعضاء القاعدة في إســـبانيا، عبد الله خياطة قطان، وزعماء أنصار الإسلام النروجيين[1]. إن عبد الله خـــياطة قطان، وهو مجاهد سابق في حرب البوسنة وشخصية هامة في القاعدة في إســـبانيا، رحـــل إلى النروج ليلتقي بالملا كريكار ليقترح عليه إرسال رجال إلى صفوف أنصار الإسلام في كردستان العراق[2].

عنصر آخر هام وطّد قناعة المحققين بتورط الزرقاوي. فقد اكتشفوا أنه في عام 1997 أرسل زعيم خلية القاعدة الإسبانية، أبو الدحداح إلى الأردن حوالى 11000 دولار مـــوجهة إلى أبي محمـــد المقدسي، بينما كان هذا الأخير مسجوناً في سجن ســـواقه مع الزرقاوي. وكان أبو الدحداح قد أوصل المال بفضل مساعدة واعظ أصـــولي هو أبو قتادة في بريطانيا العظمى، وهو أيضاً وسيط اختير لهذا الغرض[3]. وفـــيما بعد، وفي مرات عديدة، حاول أبو الدحداح أن يتصل مباشرة بالمقدسي، واعتزم حتى أن يزوره في السجن[4].

في نهايـــة المطـــاف، في 11 أيلـــول 2004، أي بعـــد مرور ستة أشهر على الهجمات، أقفل رجال الشرطة الإسبان تحقيقهم الماراتوني. ومن بين 67 شخصاً تم اســـتجوابهم، وُضع 19 شخصاً فقط في السجن. وتوصل المحققون أخيراً إلى تحديد هـــوية منسق العملية. ويدعى سرحان بن عبد المجيد فاخت (المعروف بالتونسي)، المولود في 10 تموز 1968 في تونس، والذي انتحر في 3 نيسان، في ليغانيس (جنوب مدريد)، مع ستة من المتواطئين معه، قبيل هجوم القوات الخاصة الإسبانية. إن هذا الانـــتحار لمنـــسق اعتداء مدريد قد ميَّز نهاية التحقيق. لهذا، فإن هوية "دماغ" 11 آذار ما تزال غامضة.

لقد ذكرت الأجهزة الإسبانية والمختصين في مكافحة الإرهاب أسماء عديدة.

---

(1) قرار الاتهام، قضية رقم 35، قاضي التحقيق رقم 5، 17 أيلول 2003، وثائق المؤلف.

(2) قـــرار الاتهام، قضية رقم 35، قاضي التحقيق رقم 5، 17 أيلول 2003، وثائق المؤلف. ما يزال عبد الله خياطة قطان في شهر كانون الأول 2004، في الحبس الاحتياطي في إسبانيا.

(3) المصدر السابق.

(4) الدعوى القضائية الإسبانية رقم 35/2001، المتعلقة بنشاطات القاعدة في إسبانيا، وثائق المؤلف.

لكـــن اسمـــين، علـــى وجه الخصوص، عاودا الظهور باستمرار: ربيع أسامة أحمد الـــسيد[1]، 32 سنة، والملقب باسم، "محمد المصري"، ومصطفى ست مريم نصار المعروف بأبي مصعب السوري.

إن دور الـــسوري مصطفى ست مريم نصار في هجمات مدريد هام لا سيما في توضيح الأثر الذي يفضي مباشرة إلى أبي مصعب الزرقاوي.

يعـــرف مـــصطفى ســـت مريم نصار لدى رفاقه بلقب أبي مصعب السوري (ومعروف أيضاً بأبي العبد). ولد في 26 تشرين الثاني 1958 في حلب، في سوريا، وهو دون أدنى شك أحد الإسلاميين في منطقة النفوذ السلفية والذي يتمتع بقدرة عالية على الإيـــذاء في الـــشرق الأدنى[2]. حصل على الجنسية الإسبانية بتزوجه عام 1993، من مواطنة إسبانية، ولديه منها ولدان. وقد هرب من إسبانيا في 26 حزيران 1995، عندما أعلمه مخبر بأن أجهزة المخابرات الإسبانية تتحرى عن حسابه. ووجد ملجأه في لندن، حـــيث أدار مطـــبوعة الأنـــصار، لسان صحافة منظمة GIA[3] الجزائرية، التي يرأس تحريـــرها أبو قتادة. وبحسب السلطات الفرنسية، فإن أبا مصعب السوري كان أيضاً أحـــد المنـــسقين الرئيـــسيين لمجلة الفجر المتطرفة، وكذلك مؤسس المرصد الإسلامي للإعلام[4]، والذي مركزه في لندن. وقد اعتقلته السلطات البريطانية لفترة وجيزة بعد الهجمـــات الباريسية التي قامت بها GIA عام 1995. وما إن تم إطلاق سراحه، حتى واصل إقامة علاقات وثيقة جداً مع أفراد الشتات المتطرف في أنحاء العالم، لا سيما مع ريـــاض عقلـــة (المعروف بأبي نبيل)، وهو مسؤول هام في الأردن للجماعة السورية: الطلـــيعة المقاتلـــة. وكان أيضاً قريباً جداً من مسؤول القاعدة في إسبانيا، الإسباني ذو الأصل السوري عماد الدين بركات جركس (المعروف بأبي الدحداح).

---

(1) في 7 كانـــون الأول 2004، تم تسليم ربيع أسامة أحمد السيد إلى إسبانيا، وكان مسجوناً منذ حزيران 2004 في إيطاليا.

(2) في كانون الأول 2004، لا يزال السوري، الذي أدانته إسبانيا، في حالة فرار.

(3) الجماعة الإسلامية المسلحة. (المترجمة).

(4) طلـــب الاتهام النهائي في عدم وجود وجه جزئي لإقامة دعوى، وفي الإحالة أمام محكمة الجنح وفي الإبقـــاء علـــى الاعتقال المؤقت، محكمة باريس للدعاوى الكبرى، قضية بيغال وآخرين، 2004، وثائق المؤلف.

بيد أن قوة أبي مصعب السوري، هي أولاً المكان الرفيع الذي يشغله وسط شبكات المجاهدين في بلده الأصلي. وسرعان ما قرر السوري وهو المعروف لدى مختلف أجهزة الأمن الأوروبية أن ينضم إلى عائلة طالبان في أفغانستان. وبحسب المعلومات التي جمعتها الشرطة الإسبانية، فإن السوري يدير بدءاً من عام 1998 معسكر تدريب بإشراف أسامة بن لادن[1]. إن اتصال أبي مصعب السوري المباشر مع زعيم القاعدة قد رفع من شأنه، فأصبح رمزاً شهيراً لدى السوريين الذين ينضمون إلى صفوف المنظمة. لا سيما أنه قد عُيّن، بُعيد وصوله إلى أفغانستان، في مجلس شورى[2] القاعدة.

فضلاً عن ذلك، فقد سارت الأمور على نحو متشابه، إذ شغل السوري في أعين المقاتلين السوريين وسط جماعة القاعدة المركز نفسه الذي شغله الزرقاوي في أعين المجاهدين الأردنيين. وبسبب جاذبيتهما القيادية، وفعالية شبكاتهما في بلادهما، فإن الزرقاوي والسوري هما رجلان صاحبا نفوذ بالنسبة للمقاتلين الإسلاميين في الشرق الأوسط. وعلى هذا النحو واصل أبو مصعب السوري، من أفغانستان، الحفاظ على علاقات مستمرة مع خلية القاعدة الإسبانية، التي ترسل بانتظام شباناً سوريين إلى معسكر السوري مرصودين لتعلم استخدام الأسلحة. وكان المسؤول المالي للقاعدة في إسبانيا، السوري محمد غالب كلج زويدي[3]، يرسل إليه الأموال اللازمة. ومنذ هجمات 11 أيلول 2001 وانطلاق عملية الحرية الدائمة في أفغانستان، وأبو مصعب السوري في حالة فرار.

ورغم أن السوري لا يتمتع بنفس شهرة الزرقاوي، إلا أن كثيراً من محللي مكافحة الإرهاب يعرفون فعالية قدرته على العمل. وتعتقد السلطات الإسبانية اليوم أنه كان له دوراً نشطاً في التخطيط لهجمات 11 آذار، وهو الذي كان قد أرسل أحد رجاله إلى مدريد قبل ارتكاب تلك الهجمات بوقت قصير.

---

(1) الدعوى القضائية الإسبانية رقم 35/2001، المتعلقة بنشاطات القاعدة في إسبانيا، وثائق المؤلف.

(2) مجلس ديني.

(3) في كانون الأول 2004، وضع محمد غالب كلج زويدي في الحبس الاحتياطي في إسبانيا.

الفصل الخامس

سوريا، القاعدة الخلفية

في نيسان عام 2002 قام محمد أحمد طيورة بإيقاظ ياسر فتحي إبراهيم فريحات[1] وهو أحد رجال الزرقاوي الذي كان نائماً في فندق المرجة في ساحة الشهداء. إن اختيار الفندق هذا لم يكن محض صدفة بل اختير لأنه يقع في منطقة آمنة تماماً مقابل وزارة الداخلية.

واصطحب طيورة الأردني فريحات ابن الثمانية والعشرين عاماً بالسيارة إلى إحدى الثكنات...[2] في دمشق. وأمضى فريحات المتواطئ مع قاتل لورنس فولي أسبوعاً في تلك الثكنة. وجرى تدريبه - وقد أحاط به ثلاثة عسكريين - على استخدام بندقية M16، وكلاشينكوف. وتعلم أيضاً استخدام القنابل اليدوية- لا سيما تصنيع قنابل "نترات الأمونيوم". إن زعيم المغاوير الذين قتلوا فولي هو الذي أصرَّ على أن يتبع فريحات هذا التدريب. وبعد مرور عدة أسابيع، اتبع عضوان آخران من المغاوير، محمد دعمس ونعمان الحرش، المسار نفسه ودُربوا في الظروف نفسها.

بحسب قرار الاتهام الأردني، قيل إن الزرقاوي أقام في سوريا من شهر أيار إلى شهر أيلول 2002، مستفيداً من حرية الوصول إلى "..." ذائعة الصيت المكلفة بتدريب مجنديه، ومستفيداً من جواز سفر سوري ومتنقلاً دون إجبار قاهر من سوريا إلى الأردن والعراق. إضافة لذلك، فقد أظهر التحقيق الأردني بأن عملية فولي بأكملها تقريباً قد خطط لها الزرقاوي وأقرب مساعديه من دمشق. وعلاوة

(1) الاسم الصحيح هو "فتحي" وليس "فاتح "كما ورد في الأصل الفرنسي (المترجمة).

(2) المملكة الأردنية الهاشمية، محكمة الأمن، قرار رقم 545/2003، قضية لورنس فولي، وثائق المؤلف.

علـــى ذلـــك، أتـــت من سوريا الأسلحة المستخدمة في اغتيال لورنس فولي والتي أرســـلها طيورة، العميل السوري للزرقاوي، لا سيما السلاح المستعمل، مسدس عيار 7 ملم المزود بكاتم صوت. وفي مستودع الأسلحة الذي أعده الزرقاوي لهذا الغـــرض، عثر رجال الشرطة الأردنيون على العديد من الكلاشينكوفات، وقنابل مـــسيلة للدموع، وحتى على سترات واقية للرصاص. ومن سوريا أيضاً كان يأتي قسم من المال الذي وضعه الزرقاوي تحت تصرف مقاتليه. وهذا الزرقاوي نفسه قد تم لاحقاً تحديد مكانه في ضاحية دمشق عام 2003.

إن تلـــك الاعترافات هي أكثر خطورة بكثير من الاتهامات التي ألقت بثقلها علـــى نظـــام صدام حسين، لكن تم إسكاتها حتى وقتنا الحاضر. وحدها السلطة الأردنـــية، عاكسة وجهة نظر الحكومة الأميركية، وعبّرت عن تحفظاتها بخصوص الإرادة السورية في مكافحة دعاية الإرهاب في المنطقة.

قبيل سفر رئيس الحكومة الأردنية فيصل الفايز إلى سوريا في آب عام 2004، أعلـــن قائلاً: "إن نقص ضبط الحدود من الجانب السوري قد ازداد على نحو مقلق خلال الأشهر الأخيرة، إلى درجة أن الوضع أصبح غير مقبول"[1]. ويؤكد أيضاً أن السلطات الأردنية "أحبطت، منذ شهر آذار الماضي، عدة محاولات تسلل لمتطرفين كانـــوا ينقلون متفجرات وأسلحة". في الواقع، إن محاولات الاعتداء الأخيرة التي استهدفت المملكة الهاشمية تم تنظيم القسم الأكبر منها في سوريا.

باختـــصار، اتهمـــت السلطة في عمان ضمنياً دمشق بتقديم ملجأ لأنصار أبي مصعب الزرقاوي، وبخاصة للمواطن السوري سليمان خالد درويش (المعروف بأبي الغديـــة). وهذا الأخير متهم بتجنيده خمسة سوريين لصالح الزرقاوي الذين كانوا سيشنون هجوم نيسان 2004 الكيماوي على القيادة العامة لأجهزة الاستخبارات الأردنية GID.

لقد شكلت سوريا القاعدة الخلفية اللوجستية والعملياتية للزرقاوي بعد هروبه مـــن أفغانستان في نهاية عام 2001 وبداية عام 2002. وهذا البلد الذي هو ملتقى

(1) "مصدر أردني يشير إلى قضايا تتعلق بأمن الحدود"، صحيفة الحياة، 4 آب 2004.

طـــرق المنطقة قدّم ميزة إطلاله على العراق وكونه جسراً إلى الأردن، وهو الهدف المفضل آنذاك للزرقاوي.

بعـــد انطـــلاق هجوم التحالف على العراق، أصبحت سوريا بوابة الدخول الأولى للمجاهـــدين إلى العـــراق. وفي 29 تموز عام 2003، أشار الجنرال ريتشارد مايـــرز، رئـــيس هيـــئة أركان الجيش الأميركي، إلى أن غالبية المقاتلين الأجانب يتسللون إلى العراق انطلاقاً من سوريا، وأن هناك على الأقل 80 مقاتلاً اتبعوا لعدة أشـــهر تدريـــباً في معـــسكرٍ سوري[1]. وأكثر من ذلك أيضاً، قال، إن الحكومة السورية قد دعمت التمرد الإسلامي في العراق.

هـــذا الجانـــب من السياسة الإقليمية السورية قد تم التعرض له أثناء لقاء في مركـــز عـــسكري في "القـــائم"، على الحدود العراقية السورية، بين قائد القوات الأميركية في العراق، الجنرال ريكاردو سانشيز، والجنرال ماهر الأسد، قائد الحرس الجمهـــوري الـــسوري والأخ الأصـــغر للرئيس. وخلال المقابلة، عرض الجنرال الأميركـــي لـــنظيره عدة جوازات سفر سورية عُثر عليها مع المقاتلين الإسلاميين، المقـــتولين أو المعتقلين. إضافة لذلك، فإن العديد من الأسرى السوريين كانوا قد أكـــدوا، خـــلال اســـتجواباتهم، أنهم تلقوا دعماً لوجستياً من الأمن العسكري السوري، الذي يديره الجنرال...[2].

ومـــن جانـــبه، يرى الجنرال جون أبي زيد، القائد العام للقوات الأميركية في الخلـــيج، في آب 2003 أن الخطـــر الرئيسي في العراق يكمن في "وصول مقاتلين أجانـــب عـــبر سوريا"[3]. من جهة أخرى، أكد سفير إسرائيل في منظمة الأمم المتحدة، في 21 آب 2003، أن الشاحنة الصغيرة المفخخة المستخدمة أثناء الاعتداء علـــى مقر تلك المنظمة في بغداد كانت قد جاءت من سوريا[4]. وبعد ستة أشهر

(1) "نص مقابلة الجنرال ريتشارد مايرز رئيس أركان القوات المشتركة مع قناة الأخبار في التلفزيون الباكستاني "، سفارة الولايات المتحدة في إسلام آباد، 29 تموز 2003.

(2) "صدى لقاء سري"، 9 نيسان 2004 Intelligence Online.

(3) "الاستحسان العام يزيد من أخطار الإرهاب في العراق"، صحيفة واشنطن بوست، 22 آب 2003.

(4) المصدر السابق.

من بداية عمليات التحالف العسكرية في العراق، أكد الحاكم الأميركي بول بريمر من جانبه، في أيلول 2003، أن 248 مقاتلاً أجنبياً، منهم 123 سورياً، قد تم اعتقالهم، موضحاً أن "المقاتلين الأجانب في العراق يتسللون بشكل رئيسي عبر سوريا"[1]. وشهادة مجاهد سابق ذهب للقتال في العراق بناء على نداء من الزرقاوي تلقي الضوء على نحو خاص حول الشبكة السورية. فقد كان المتطوعون يتلقون "حقيبة لوازم عسكرية" تتضمن مبلغ 200 دولار، وسلاحاً آلياً، وقاذفة رمانات وعشر قنابل يدوية. ويأتي فيما بعد مهرب الأشخاص العراقي، الذي يتلقى بين 500 و1000 دولار عن كل شخص، ليستلم المرشحين للجهاد في سوريا، قبل أن يقودهم إلى المقاومة العراقية. كان كل ذلك يحدث، بحسب اعترافاته، على مرأى ومسمع من السلطات السورية[2].

في الواقع، انقضت سنوات وأجهزة الاستخبارات الغربية تعلم أن سوريا هي محور... والبلد أصبح له لقب: "باكستان العراق"، بسبب تسامحه إزاء الإرهابيين الإسلاميين والحماية التي يقدمها لهم.

وهكذا، منذ عام 2001، شددت أجهزة المخابرات الإيطالية ديغوس، التي فككت بنية دعم الحركة الإسلامية الكردية أنصار الإسلام، على الدور الوسيط الذي قامت به سوريا في إرسال مقاتلين وأموال إلى العراق. إن تحليل وثائق تحقيق قضاة مكافحة الإرهاب، المؤلفة من آلاف ساعات التنصت الهاتفي، واستجوابات المشتبه بهم وإثباتاتهم، كشفت أن سوريا تلعب دوراً "أساسياً في إرسال مجندين بين أوروبا وأنصار الإسلام". وبحسب قضاة مكافحة الإرهاب، فإن الشبكة الإيطالية أنصار الإسلام، التي يوجهها الزرقاوي، "استفادت على نحو خاص من بنية لوجستية في سوريا[3]. وبحسب المحققين، هنالك حوالى أربعين مجنداً وكذلك أموال تم إرسالها عبر سوريا إلى العراق. ولعب الملا فؤاد في هذا التهريب دوراً جوهرياً.

(1) "الجنرال باول يعطي آمالاً بتسليم السلطة في العراق، بينما تستعد قوات الأمم المتحدة لمغادرة العراق، وكالة الأنباء الفرنسية، 27 أيلول 2003.

(2) إحباط استشهادي عربي، صحيفة نيويورك تايمز، 2 تشرين الثاني 2004.

(3) الدعوى الإيطالية.

حتى أنه اعتُبر "حارس البوابة السورية بالنسبة للمتطوعين الذين يرغبون في الذهاب إلى العراق". إن الملا فؤاد المتمركز بالقرب من دمشق، ورجاله كانوا يبلغون أوامر إلى خلية التجنيد الإيطالية[1].

في إيطاليا أيضاً، لكن في إطار قضية ملحقة، أثبت القضاة عام 2001 أن زعيم خلية القاعدة في ميلانو، عبد القادر محمود السيد بن خميس، كان على اتصال وثيق مع... السورية. وفي محادثة هاتفية تم التقاطها عام 2000، أشار إلى... السورية بوصفها نموذجاً للأبطال الحقيقيين[2].

كان مصطفى طلاس يشغل منصباً أساسياً في النظام السوري. وهو وزير الدفاع القوي منذ أكثر من ثلاثين عاماً، وكانت له اليد الطولى على الجيش وأجهزة المخابرات إلى حين استقالته في شهر أيار 2004. وكانت قناعاته معروفة منذ وقت طويل. وأكد في تشرين الأول 2001، وخلال اجتماع مع وفد بريطاني، أن هجمات 11 أيلول كانت من صنع مؤامرة يهودية، وأن الموساد (جهاز الاستخبارات الإسرائيلي) كان حتى قد أخطر آلاف الموظفين اليهود العاملين في مركز التجارة العالمي بقرب حدوث هجوم[3].

إن تورط جهاز الأمن السوري في الشبكات النشطة الإسلامية الراديكالية ظهر أيضاً في العديد من التحقيقات الدولية الأخرى. ومع ذلك، ففي 25 أيار 2003، عبّر الرئيس السوري، بشار الأسد، عن شكوكه حيال الوجود نفسه لجماعة القاعدة أثناء مقابلة أجرتها معه صحيفة الأنباء الكويتية قائلاً: "هل يوجد حقاً كيان اسمه القاعدة؟ هل كان موجوداً في أفغانستان؟ هل ما يزال موجوداً؟ [...] نحن بصدد الحديث عن منطقة نفوذ إيديولوجية ما. والمشكلة، هي الإيديولوجية وليست المنظمات"[4].

(1) الدعوى القضائية الإيطالية، قضية أنصار الإسلام، 2003، وثائق الكاتب.

(2) "هل يعلم الأوروبيون أكثر مما يتظاهرون بمعرفته حالياً؟" بقلم ميشيل ليدن، معهد المشاريع الأميركية في واشنطن، منشورات وطنية، 11 شباط 2003.

(3) "وزير الدفاع السوري يحمل إسرائيل مسؤولية الهجمات على مركز التجارة العالمي"، صحيفة جوريزاليم بوست، 19 تشرين الأول 2001.

(4) "يقول الرئيس إنه يشك بوجود القاعدة"، صحيفة لوس أنجلوس تايمز، 26 أيار 2003.

وفي إطـــار التحقيق حول هجمات الدار البيضاء في أيار 2003، استجوبت الإدارة العامـــة للأمن القومي المغربي، الفرنسي روبير ريتشار أنتوان بيير. وأكد أنه في بداية عام 2003 تم تنظيم شبكة انطلاقاً من المغرب لإرسال مجاهدين إلى العراق عـــبر لبنان وسوريا. وقال إنه تخلى في النهاية عن الذهاب إلى العراق وذلك لكي يـــشنّ هجمات في فرنسا: وهي تتعلق على الخصوص بضرب "منشآت نووية في ليون وأماكن عبادة يهودية"[1].

لا ريب أن بالتسار غارزون قد فكك في إسبانيا أوسع خلية للقاعدة في أوروبا، تتألف في غالبيتها من رعايا سوريين. وبطلب من قاضي مكافحة الإرهاب، تم اعتقال المجمـــوعة بدءً من نهاية عام 2001. وفي هذا الإطار صودرت ثلاث رسائل لدى أحد أعـــضاء الخلية، غصوب الأبرش غليون[2]. وكان قد كتبها ووقعها، وتم إرسالها إلى رئـــيس أجهـــزة الاســـتخبارات السورية. وفي إحدى تلك الرسائل، أخبر الأجهزة الـــسورية بمـــشاركته في تدريب عسكري في العراق. وفي رسالة أخرى، كُتبت على شـــكل تقريـــر نشاطات، أشار إلى أنه "بناء على طلبه" سيبعث أيضاً تقريراً إلى مدير أجهـــزة اســـتخبارات مدينة حمص[3]. ويظهر بشكل واضح من تلك المراسلات أن "غصوب" كان يتصرف بموافقة السلطات السورية، إن لم يكن بالاتفاق معها، وعلى أقـــل تقديـــر كانـــت على علم تام بوضعه ومقاصده. واتضح لاحقاً، خلال مجرى التحقـــيق، أن أبـــا الدحـــداح، زعيم الخلية الإسبانية للقاعدة، كان ينتمي للمنظمة الإســـلامية الـــسورية الطليعة المقاتلة. وأعضاء هذه المنظمة، رغم معارضتهم في البدء للنظام السوري، إلا أن الرئيس بشار الأسد[4] قد عفا عنهم.

---

(1) اســـتجواب روبـــير ريتشار أنتوان بيير، الإدارة العامة لأمن القومي، المغرب، 7 تموز 2003، وثائق الكاتب. في كانون الأول 2004، ما زال روبير ريتشار أنتوان بيير في الحبس الاحتياطي في المغرب.

(2) في كانون الأول 2004، غصوب الأبرش غليون هو في الحبس الاحتياطي في إسبانيا.

(3) الدعوى الإسبانية، المجلد 79، 12 تشرين الثاني 2001.

(4) "تحولات في سوريا" صحيفة فاينانشل تايمز، 6 كانون الأول 2001؛ انظر أيضاً "الثوابت القديمة تخـــيم على الحكومة السورية الجديدة" صحيفة نيويورك تايمز، 21 كانون الثاني 2002؛ "وجه للإرهـــاب أم للعطـــاء؛ إنعام أرناؤوط يصف عمله بالمشرف، لكن الولايات المتحدة تقول إنه غطاء لدعمه للإرهاب"، صحيفة شيكاغو تريبيون، 13 تشرن الأول 2002.

وبعض أعضاء... السورية أُشركوا أيضاً على نحو وثيق بخلية هامبورغ، خلية 11 أيلول، إلى درجة أن "مانفرد مورك" المدير المساعد لجهاز الاستخبارات الداخلية الألمانية BFV، قد نوّه بوجود "..." خلال التحقيق حول خلية هامبورغ الإرهابية[1].

في غمرة التحقيق، عُثر على شركة استيراد وتصدير اسمها Tatex Trading GmbH، تأسست عام 1978 في ريثويش، في ألمانيا[2]. وكان هذا المشروع قد أقامه عبد المتين تتري، وهو ألماني من أصل سوري في الستينات من عمره، والذي أسس لاحقاً شركة أخرى هي: Tatari Design. وضمت شركة Tatex Trading مساهمين اثنين، أحدهما هو محمد ماجد سعيد. وقد حيَّر مسار هذا الأخير الأجهزة الألمانية إلى درجة كبيرة. إن محمد ماجد سعيد كان في الواقع، المدير العام السابق لأجهزة الاستخبارات السورية، التي وجهها من عام 1987 إلى عام 1994، لكنه، في 2001، أصبح عضواً في مجلس الأمن القومي السوري، وهو أعلى سلطة أمن في البلد[3].

وبدءاً من نهاية عام 2001، اكتشف المحققون الألمان آنذاك إلى أي درجة هنالك ارتباط بين هاتين الشركتين، وأجهزة الاستخبارات السورية وخلية هامبورغ.

إن شركتي Tatex Trading وTatari Design تشتبه بهما السلطات القضائية الألمانية رسمياً في أنهما تستخدمان غطاء لتزييف الوثائق وتبييض الأموال لصالح العسكريين الإسلاميين في ألمانيا. في هذا الخصوص أكد المدعي الفيدرالي المكلف بالإرهاب "كاي نيهم"، أن عائلة تتري "يُشتبه بمساهمتها في جهاد العسكريين الإسلاميين العنيفين". من الواضح، أن آل تتري انكبوا على تبييض الأموال من أجل تقديم وثائق الهوية والتأشيرات إلى أعضاء القاعدة العملياتيين[4].

---

(1) "العلاقة مع هامبورغ" صحيفة تورنتو ستار، 29 أيلول 2002.

(2) "شركات ألمانية لتسوية القروض المصرفية" 2002.

(3) "الرهان على سوريا، هل أحرقت إدارة بوش مصدراً مفيداً للمعلومات عن القاعدة ؟" صحيفة نيويوركر، 28 تموز 2003.

(4) انظر أيضاً: "ألمانيا تطارد مفاتيح الإرهاب"، CNN برلين، 10 أيلول 2002.

في 10 أيلول 2002، جرى تفتيش منـــزلين وثلاث مكاتب تعود لآل تتري. واســـتجوبت العائلة لساعات عديدة وأدلت بأوائل اعترافاهما. وفي 2003، فتحت النيابة العامة في هامبورغ تحقيقاً قضائياً ضد عبد المتين تتري.

وقـــد علم رجال الشرطة أن أحد أبناء تتري، الذي يدرس في الجامعة التقنية في هامـــبورغ، قد وقّع عريضة محمد عطا، أحد منفذي هجمات 11 أيلول، التي تدعو إلى تكوين مجموعة "الدراسات الإسلامية" في حرم الجامعة. وعلموا أيضاً أن محمـــد هادي تتري، الابن الأكبر، كان يقوم بزيارات متكررة لمحمد عطا في الشقة الـــتي كـــان يشغلها آنذاك العديد من منفذي الهجمات في خلية هامبورغ. وهذا الأخـــير قال أنه تردد أيضاً على مروان الشاهي، قائد رحلة "يونايتد ايرلاينـــز 175"، وأنه حضر زواج منير المتصدق، المتهم بعلاقته بهجمات 11 أيلول[1].

واعترف الأب عبد المتين تتري من جهته، باستخدام رجلين سوريين أصلهما مـــن حلب، حيث ظهر أنهما قريبان من خلية هامبورغ. وهما محمد حيدر زمار، الـــذي يعتبر أحد مجنّدي القاعدة، ومأمون دركزنلي، والذي يشتبه في أن شركته ساعدت مالياً منفذي هجمات 11 أيلول[2].

واكتشف المحققون الألمان وهم يواصلون تحرياتهم أن محمد حيدر زمار تحديداً هو الـــذي جنّد محمد عطا. وخلال محادثة هاتفية رصدتها الشرطة الألمانية، أشار تتري إلى موظفه بوصفه "صديقاً وأخاً"[3]. إن الرجلين كانا من جماعة الإخوان المسلمين[1].

---

(1) "الدعوى الألمانية Bundes kriminalamt, "Erklärung zur Person: Tatari Mohammed, Hady" هامبورغ"، 12 آذار 2003.

(2) "وزارة الخارجـــية الأميركية تنشر قائمة من 39 إرهابياً عالمياً إضافياً مختارين على نحو خاص"، مكـــتب العلاقـــات العامـــة، في وزارة المالية الأميركية، 12 تشرين الأول 2001؛ انظر أيضاً "الأشـــخاص المختارون هم على قائمة الأمم المتحدة 1390"، الأمم المتحدة، 12 تشرين الأول 2001؛ انظـــر أيضاً "ممولي الجمعيات الخيرية على علاقة بالمشتبه بهم كإرهابيين في هامبورغ"، صحيفة شيكاغو تريبيون، 3 تشرين الثاني 2003.

(3) "الدعوى الألمانية Bundes kriminalamt, "Erklärung zur Person: Tatari Mohammed, Hady" هامـــبرغ"، 12 آذار 2003، انظر أيضاً في صحيفة دير شبيغل 8 آذار 2002: "Syrische Geheimdienst-Connection zu Hamburger Terror-Piloten", Der Spiegel, 8 mars 2002.

ومنذ ذلك الحين، اقتنع المحققون الألمان، في نهاية تحقيقاتهم حول Tatex وحول دور محمد ماجد سعيد، أن... كانت حتماً على اتصال بخلية هامبورغ[2].

في عام 2001، وخلال محاكمة المسؤولين عن الهجمات المرتكبة عام 1998 على السفارتين الأميركيتين في أفريقيا، كان شاهد الحكومة الأميركية، جمال أحمد الفضل، قد كشف النقاب عن وجود تنظيم تابع للقاعدة في سوريا. وكان قد أكد أن القاعدة كانت تمثلها في سوريا جماعة الجهاد السوري، التي يتزعمها المدعو أبو مصعب السوري، وهو شخصية عرضنا لها في الفصل السابق ويتذكر الشاهد أن السوري كان أشقراً، وهذا تفصيل غير اعتيادي بالنسبة لمقاتل إسلامي[3]. إن أبا مصعب السوري لم يكن سوى مصطفى ست مريم نصار، الذي اتهمه في إسبانيا القاضي بالتسار غارزون. وكان، وهو القائد الرفيع في منظمة القاعدة الإرهابية، قد "أدار معسكر تدريب في أفغانستان[4]"، كما كان قد ذهب عام 1996 إلى هامبورغ ليلتقي هناك بالمدعو دركزنلي، الموظف السابق لدى تتري.

إن الأمثلة على تورطات السوريين في شبكات القاعدة كثيرة. وفي إطار هجمات 11 أيلول، فإن العديد من الصلات السورية، المرتبطة بنشاط القاعدة في ألمانيا أو في إسبانيا، قد تم الكشف عنها بشكل خاص. إن تلك التورطات قد ازدادت بعد التدخل الأميركي في العراق، ويبدو اليوم أن سوريا تجد نفسها في تماس مع مختلف الجماعات الجهادية في الشرق الأدنى.

وبعد أربعين عاماً من العلاقات المضطربة مع الحركات الإسلامية الأشد

---

(1) "المشروع الإجرامي في الاقتصاد السياسي للإرهاب الشرق أوسطي" ماثيو ليفيت، متابعة السياسات في معهد واشنطن، 3 كانون الثاني 2003 ؛ انظر "عناصر الاستخبارات السورية على علاقة مع خلية القاعدة في هامبورغ"، نشرة الاستخبارات عن الشرق الأوسط، المجلد الرابع، رقم 9، أيلول 2002؛ انظر روبرت بير، النوم مع الشيطان، نيويورك، منشورات كراون، 2003، صفحة 124.

(2) "Syrische Geheimdienst-Connection zu Hamburger Terror-Piloten"، مقال سبقت الإشارة إليه.

(3) الولايات المتحدة ضد أسامة بن لادن، نص المحاكمة، 6 شباط، شهادة جمال أحمد الفضل.

(4) الدعوى الإسبانية رقم 35/2001، المتعلقة بنشاطات القاعدة في إسبانيا، وثائق المؤلف.

تصلباً، لعل الأمر فيه الكثير من المفاجأة أن يكون بوسع الحكومة السورية حقاً أن يطغى عليها التهديد المتطرف. وقد اشتهر حوالى 15 جهاز أمن سوري، في الواقع، بأنها الأفضل اطلاعاً في الشرق الأدنى. إن كل جهاز يتمتع بصلاحيات واسعة وبمدخل مباشر مع الرئاسة. إضافة لذلك، فإن التشبيكة المنهجية والمنظّمة للأراضي السورية من جانب أجهزة الأمن، تتنافى مع وجود *مناطق رمادية* قد تفلت من السيطرة المركزية. على العكس، كل شيء يدعو للاعتقاد بأن... تحاول عن طريق تسهيل عبور المقاتلين الأجانب وإرسال مقاتلين سوريين، التحكم بحرب العصابات في العراق.

من أجل تلبية المطالب الملحة للولايات المتحدة المطالبة بتحقيق ضبط أكثر فعالية للحدود العراقية- السورية، فإن دمشق قبلت أخيراً بمبدأ الدورية المشتركة السورية الأميركية. مع ذلك، فإن التدفق الكثيف للمقاتلين السُّنة إلى العراق يتواصل عبر الحدود السورية، وهو أمر يبدو غير مفهوم بحدّ ذاته وذلك بسبب إعادة انتشار آلاف الجنود السوريين الذين كانوا متمركزين في لبنان على طول الحدود العراقية.

الفصل السادس

فرنسا في الفخ الإسلامي

في 30 آب 2004، التفتت الدبلوماسية الفرنسية إلى الشيخ يوسف القرضاوي ليُدين علانية اختطاف الرهينتين، كريستيان شينو وجورج مالبرونو. ووجد منظّر الهجمات الاستشهادية نفسه وقد رُفّع في هذه المناسبة إلى مرتبة "ضمير الإسلام الكبير"، إن استعدنا عبارة وزير الخارجية الفرنسي وقتذاك(1). لا ريب أنهم رأوا أن أبسط طريقة للتأثير في الخاطفين ما تزال في التوجه إلى أحد مرشديهم الروحيين.

ولم يذم أحدٌ وقتذاك خطاب الإسلاميين الفرنسيين المزدوج، الذين دعموا علانية مبادرات الحكومة الفرنسية من أجل تحرير الرهائن، بل حتى أنهم أرسلوا وفداً إلى العراق، في حين أنه وفي الوقت نفسه وقع الزعيم الديني "لاتحاد المنظمات الإسلامية في فرنسا" (UOIF)، فيصل مولوي، في الصحافة العربية بياناً يدعو إلى "دعم المقاومة الإسلامية الشجاعة والمشرفة بجميع الطرق المادية والمعنوية" في العراق في وجه الحملة "الاستعمارية الأميركية - الصهيونية"(2).

نحاول دون جدوى فهم الترابط المنطقي في السياسة الفرنسية إزاء الإسلاموية. إن نيكولا ساركوزي، وكان آنذاك وزيراً للداخلية، أبرز أن حجاب المرأة المسلمة رمز إسلامي قديم يزداد أكثر فأكثر راديكالية، حينما حاور علانية طارق رمضان. لكن، وبعد ستة أشهر، التمس وزير الخارجية دعم الشيخ يوسف القرضاوي، المتمسك بلباس المرأة المسلمة، ذاك الذي هو أحد المسلمين القلائل الذين برروا

(1) تصريح وزير الخارجية الفرنسية، عمان، الأردن، 31 آب 2004.

(2) "علماء دين وشخصيات إسلامية في أنحاء العالم يدينون الجرائم الصهيونية الأميركية في العراق وفلسطين"، صحيفة القدس العربي، 23 آب 2004.

هجمـــات الحـــادي عشر من أيلول، وهو، أخيراً، أحد أهم قادة جماعة الإخوان المسلمين[1].

يـــبدو أن فرنسا وقعت في فخ الخطاب المزدوج، السلاح الجدلي المفضل لدى الإخـــوان المسلمين، لعدم ذمٍّ، أو بكل بساطة، لعدم تحليل الأهداف الحقيقية. إن نـــصاً مؤسِّـــساً لهذه الجماعة يوضح أن من الملائم تكييف خطابها تبعاً للبلد الذي ينشط فيه الإخوان المسلمون وذلك من أجل "الانسلال إلى أجهزة النفوذ" و"التأثير على القرارات السياسية[2]". و لم يكن بوسعهم أن يحلموا، في هذا الشأن، بأحوال أفضل. وبعد اعترافهم العلني، هاهم ممثلو السياسة والدبلوماسية في فرنسا الساذجة وقد أصبحت ترتاب حتى من نفسها و لم تعد تجرؤ على ذم المتطرِّفين.

قامـــت عملـــية الاعتـــراف بالإسلام في فرنسا على فكرة أن خطوة كتلك ستؤدي حتماً إلى اندماج الإسلاميين السياسي وبالتالي إلى اعتدالهم. واليوم انقلبت تلـــك الاستراتيجية على مبدعيها وسقطت فرنسا في فخ تناقضاتها. كيف يمكن في الواقـــع أن نفسر الادعاء بمكافحة الإرهاب الإسلامي ونحن نتجنب مقاومة ما هو وقـــود لـــه، أي الإســـلام الراديكالي؟ إن فرنسا وهي إذ تفضل، بل حتى تعترف بـــشرعية التـــيار الراديكالي الإسلامي، تضعف من جانب آخر المسلمين المعتدلين الذين يعيشون فوق أراضينا وتساعد أولئك المتطرفين.

أليس هذا هو المنطق الذي قاد وزير الخارجية الفرنسي، ميشيل بارنييه، إلى أن يطالـــب، في 27 أيلول 2004، في المؤتمر الدولي حول العراق بإشراك "كافة القوى الـــسياسية [العـــراقية]، بما فيها تلك التي اختارت طريق المقاومة المسلحة[3]"؟ ألم تـــذهب الملائكـــية الدبلوماسية الفرنسية إلى حدّ أن قدّمت للزرقاوي مقعداً على طاولة المفاوضات؟ إن هذه الرسالة الرعناء، المبعوثة في سياق فوضوي ومعقد وقد

(1) انظـــر مقابلـــة المرشد الأعلى للإخوان المسلمين في مصر، صحيفة الشرق الأوسط، 15 تشرين الثاني 2002.

(2) وثائق مؤسِّسة للإخوان المسلمين، أرشيف المؤلف.

(3) "فرنـــسا تطرح مسألة انسحاب القوات الأميركية من العراق"، وكالة الأنباء الفرنسية AFP، 27 أيلول 2004.

أفلـــتت مـــن قواعد الدبلوماسية التقليدية، فهمها بعض الناس على أنها شكل من أشكال الاعتراف بالمقاومة المسلحة في العراق. فبعد أسبوع، ها هو حزب الله يقدم تحلـــيله على أثير قناته التلفزيونية المنار فيقول: بوسعنا أن نعلن أن المقاومة الباسلة والمـــشرفة والمحترمة الجانب في العراق قد فازت بالاعتراف الدولي بها. إن فرنسا، أحـــد الأعضاء الخمس الدائمين في مجلس الأمن، تطلب مشاركة قوى المقاومة [في المؤتمر الدولي حول العراق]. إنه اعتراف بشرعية المقاومة وبأنها تتقدم على الطريق الصحيح"[1].

بتصادف غريب، سمح جهاز "الرقابة العليا للسمعي البصري CSA "ببث قناة المنار في فرنسا في 16 تشرين الثاني 2004، مما أثار استنكاراً حقيقياً: إن تلك القناة في الواقع، معروفة بمعاداتها للسامية وبدعمها للمتطرفين الإسلاميين من كل جانب. ومـــنذ الهجـــوم الأميركي على العراق، والمنار تضاعف من جهودها لإدانة الغزاة والمطالـــبة بشرعية استخدام القوة "عبر جميع الوسائل"[2]. ومهما تكن نهاية تلك الحرب الكلامية، فإن الإسلاميين لن يفوتهم أن يروا، في ذلك القرار الأول، علامة إضافية على تسويفنا (الفرنسيون)، إن لم نقل على ارتباكنا.

إن فرنـــسا التي أغشى بصرها النـــزاع العراقي الذي عارضته شرعياً. ترفض اليوم الاقرار بأن حرب العراق الثانية قد تحولت، منذ ربيع عام 2003، إلى مواجهة ضـــد المقاومـــة العراقية والإسلامية، وأن ذلك البلد، وقد أصبح أرض الإسلاميين المفـــضلة، تجري على أرضه معركة حاسمة ضد الشبكات التي تغذيه. وهكذا أصبح العـــراق بالنسبة لفرنسا طيفاً مشوِّهاً، وشبكة رموز قراءة وحيدة للعالم الإسلامي ولـــرهاناته الحقيقـــية، وهكذا جُمعت في نفس شبهة النـــزعة الأميركية للسيطرة الأهـــداف الـــسياسية القابلة للجدل التي كانت قد بررت اجتياح البلد وضرورة مكافحة المقاومة. وليس من المؤكد أننا نكسب هناك السلام.

ذلك أن فرنسا، في الواقع، ليست بمنأى عن تهديد المقاتلين الإسلاميين، ففي حزيران 2004 تم اعتقال العديد من الإسلاميين في المناطق الباريسية. وكان أعضاء

(1) تلفزيون المنار، 6 تشرين الأول 2004، FBIS (وكالة التحقيقات الفيدرالية الأميركية).

(2) تلفزيون المنار، 27 آب 2004، 24 ايلول 2004، 15 تشرين الأول 2004، FBIS.

أو نشطاء مسجد سلفي في (لوفالوا – بيريه) الواقع تحت المراقبة منذ عدة أشهر، قد أنشأوا شبكة تجنيد لإرسال المجاهدين إلى العراق. وفي 15 حزيران 2004، أتاح التفتيش وضع اليد على العديد من عناصر الإثبات: سلاحان، شبكة معلوماتية لتزوير الوثائق الإدارية، أوراق مزورة ومستندات إسلامية، لا سيما تسجيلات لأبي قتادة على أشرطة كاسيت وكذلك منشورات داعية للجهاد.

لكن رجال الشرطة استولوا خصوصاً على دليلين دامغين. أولهما رسالة قصيرة SMS أرسلها فرنسي موجود في العراق في 11 حزيران 2004 على هاتف محمول لأحد أعضاء الجمعية الخيرية اقرأ، التي تسيطر على المسجد السلفي. والرسالة واضحة: "لقد وصلت المجموعة، وسأتصل بكم إن كنتُ بحاجة لمساعدة". إن المجموعة المعنية، والتي تم تحديد هوية ثلاثة من أفرادها، تتألف من فرنسي وتونسيين[1].

أما عنصر الإثبات الثاني فهو توكيل منحته هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية[2] IIRO إلى أحد أعضاء جمعية اقرأ، مخولة إياه جمع أموال باسمها[3]. وخلال الاحتجاز المؤقت لاثنين من المشتبه بهما، اعترفا بتحويلهما أموال إلى الخارج وبإرسالهما متطوعين إلى العراق. بيد أن قاضي المحكمة اعتبر أن "الأدلة غير كافية" لإطلاق صفة جمعية جناة ذات علاقة بمشروع إرهابي على الموقوفين. وتم الاستماع إلى العديد من المشتبه بهم باعتبارهم مجرد "شهود مساعدين"، وتم استنطاق البعض الآخر من أجل "حيازة وثائق مزيفة وإقامة غير نظامية"... وتم لاحقاً إطلاق سراحهم[4].

بيد أن هذا الملف، الذي تمت معاملته في الفترة الأولى على أنه قضية محلية، تضمن بعداً دولياً لا يمكن إهماله. وقد عبرت النيابة العامة في باريس عن اختلافها

(1) "تحقيق أتلفته توترات بين النيابة العامة وقضاة مكافحة الإرهاب"، صحيفة لو موند، 25 حزيران 2004.

(2) International Islamic Relief Organization

(3) المصدر السابق.

(4) "حرب القضاة تنقذ الجهاديين" صحيفة ليبيراسيون، 25 حزيران 2004.

2

1

3

رقاوي مع العائلة، بجانب أمه (مجموعة خاصة).

الدان (مجموعة خاصة).

ورة الزرقاوي وهو تلميذ (مجموعة خاصة).

ورته قبل رحيله إلى أفغانستان عام 1989 (مجموعة صة).

م رسمه الزرقاوي لأمه بينما هو في سجن أردني (Gamm

5

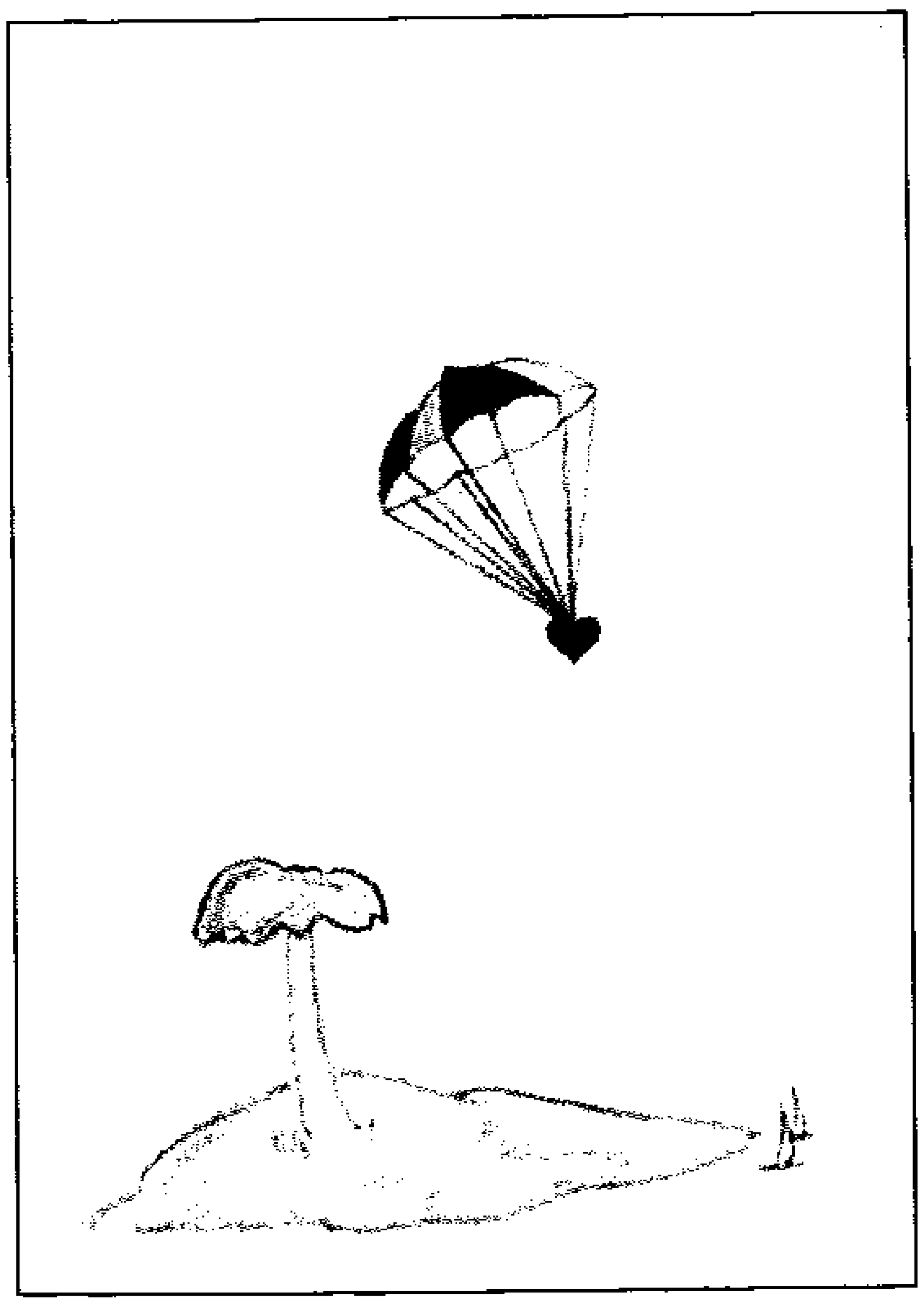

4

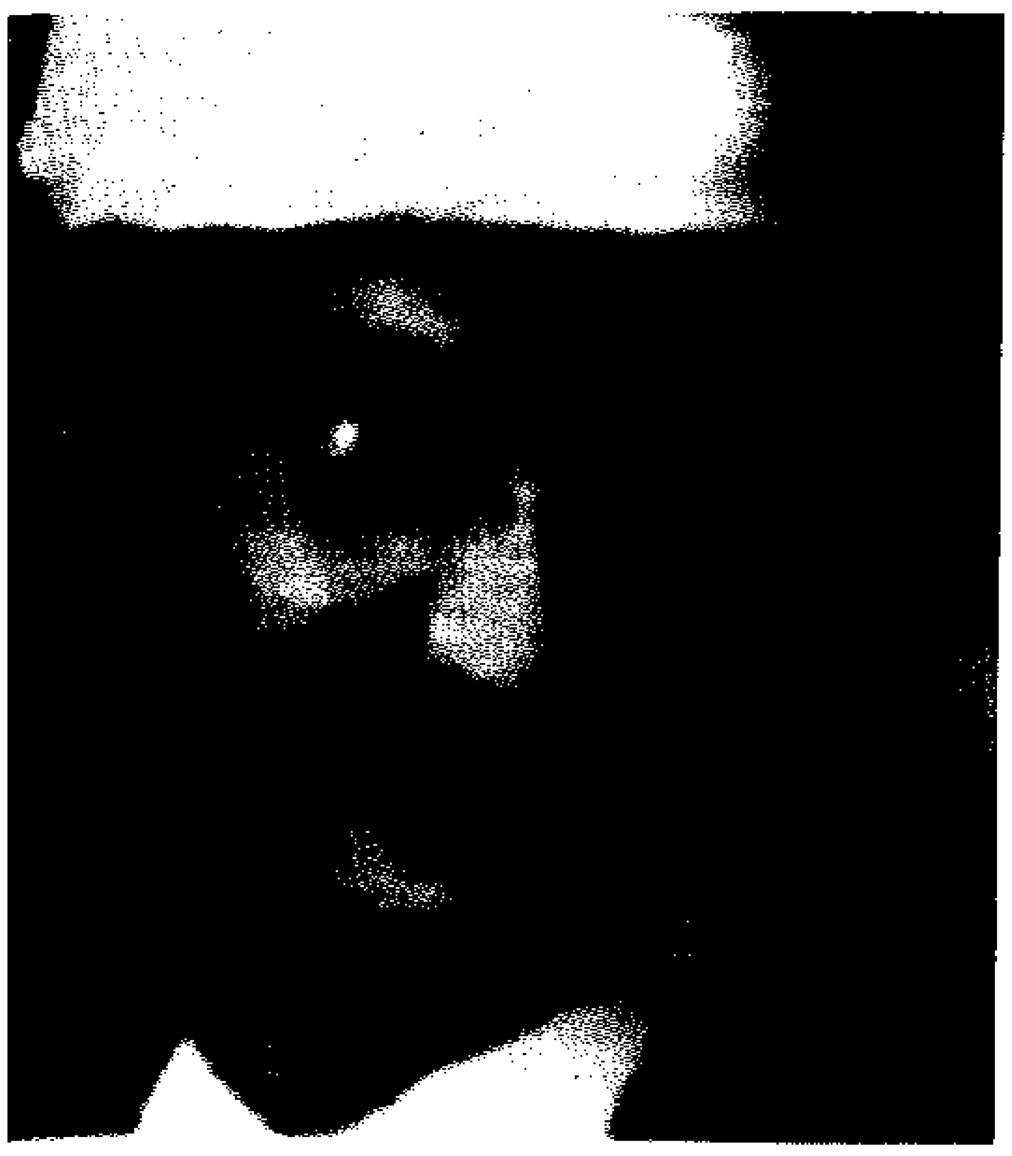

6 – صور هوية (DR) حقوق محفوظة.
7 – أثناء احتفال في أفغانستان عام 1991 (DR) حقوق محفوظة.
8 – قبل رحيله إلى أفغانستان (مجموعة خاصة).
10/9 – في سجن في الأردن (مجموعة خاصة).
11 – إعلان بحث (DR) حقوق محفوظة.

8

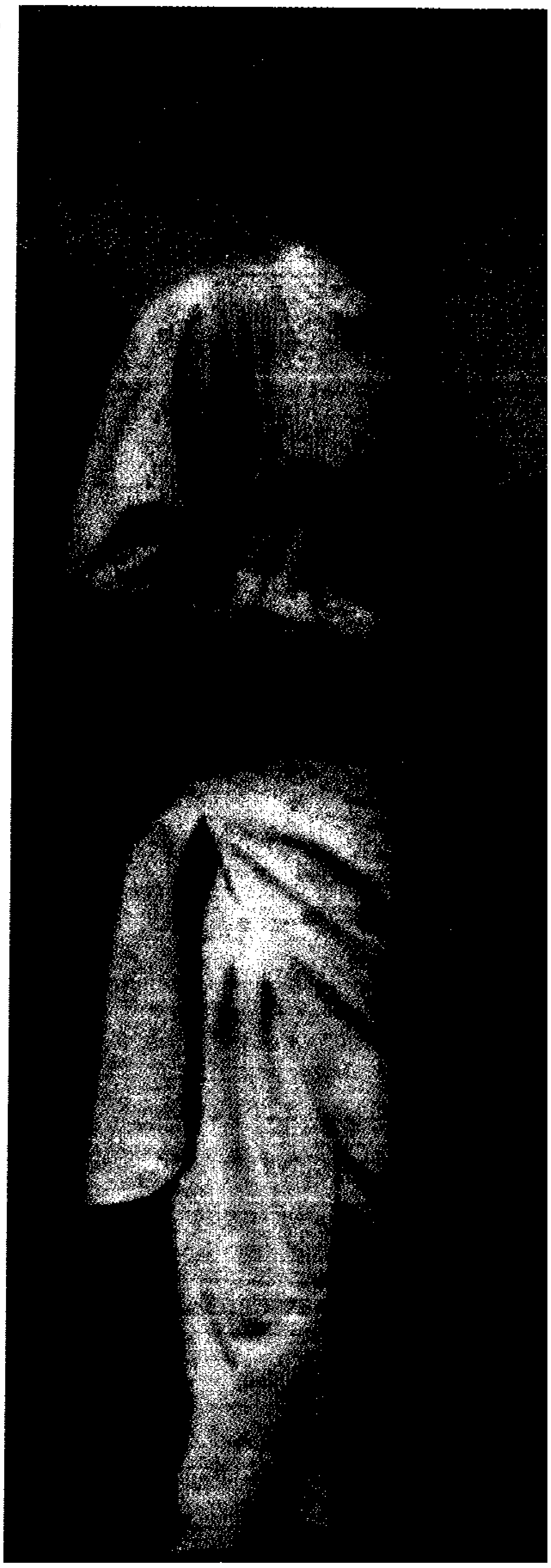

10

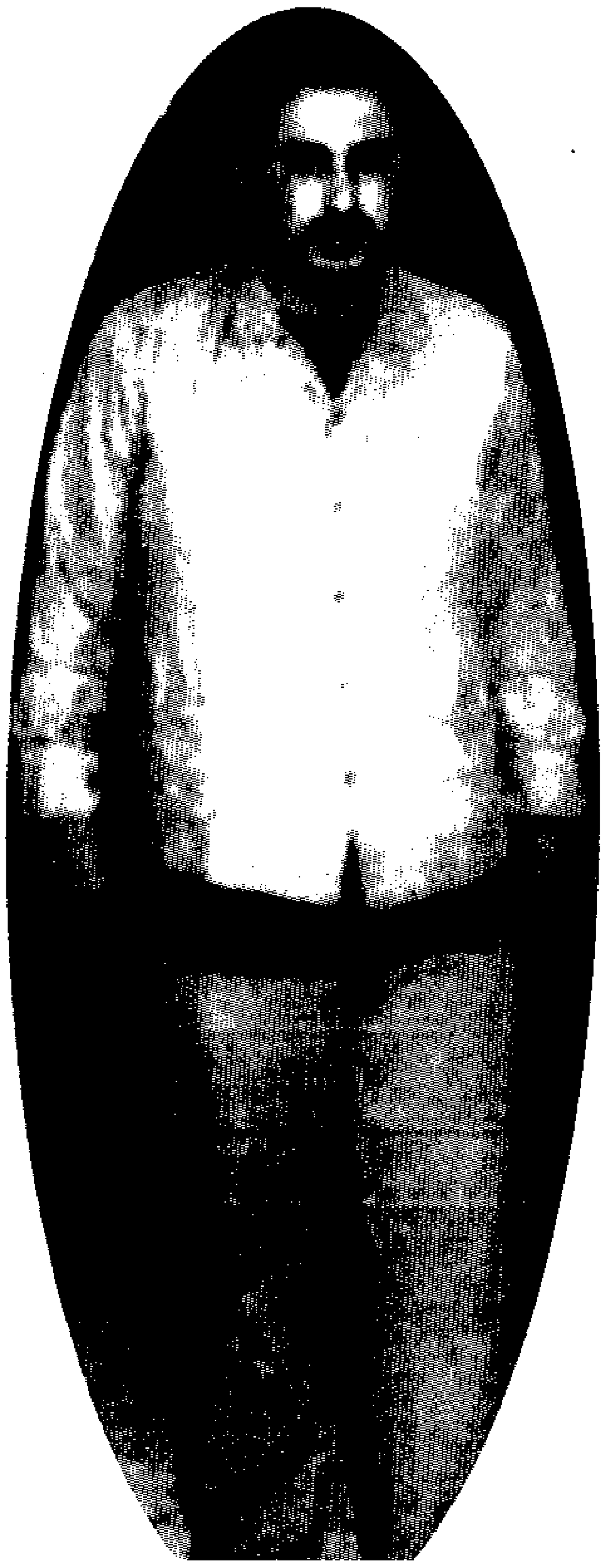

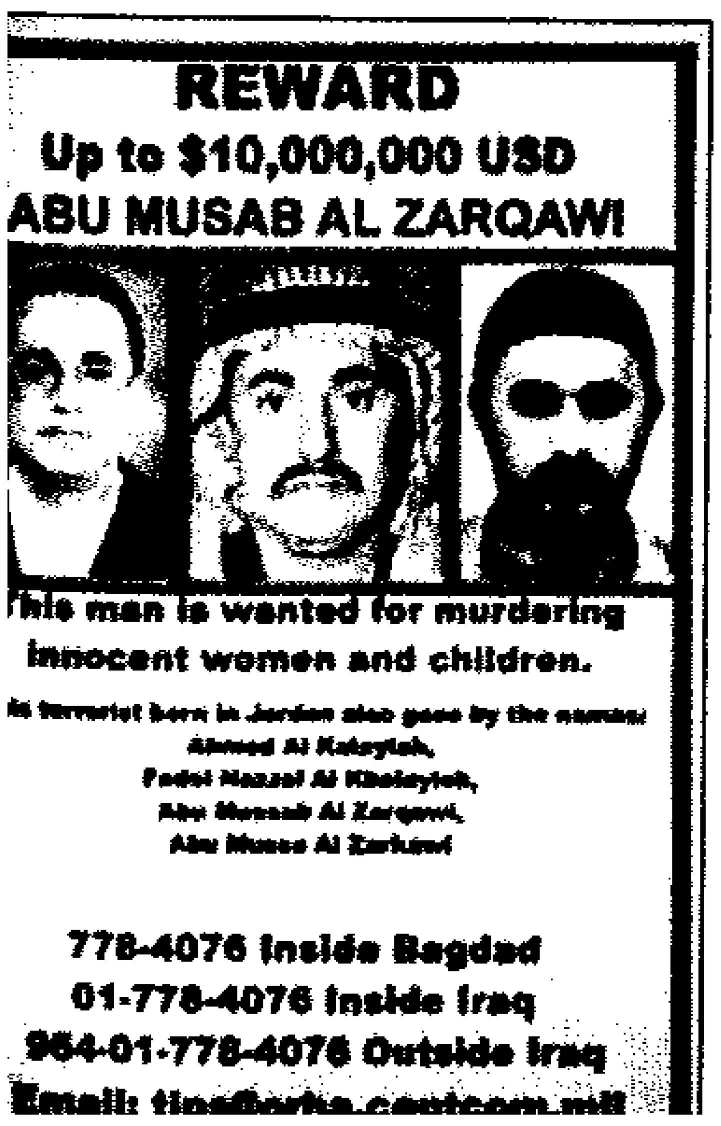

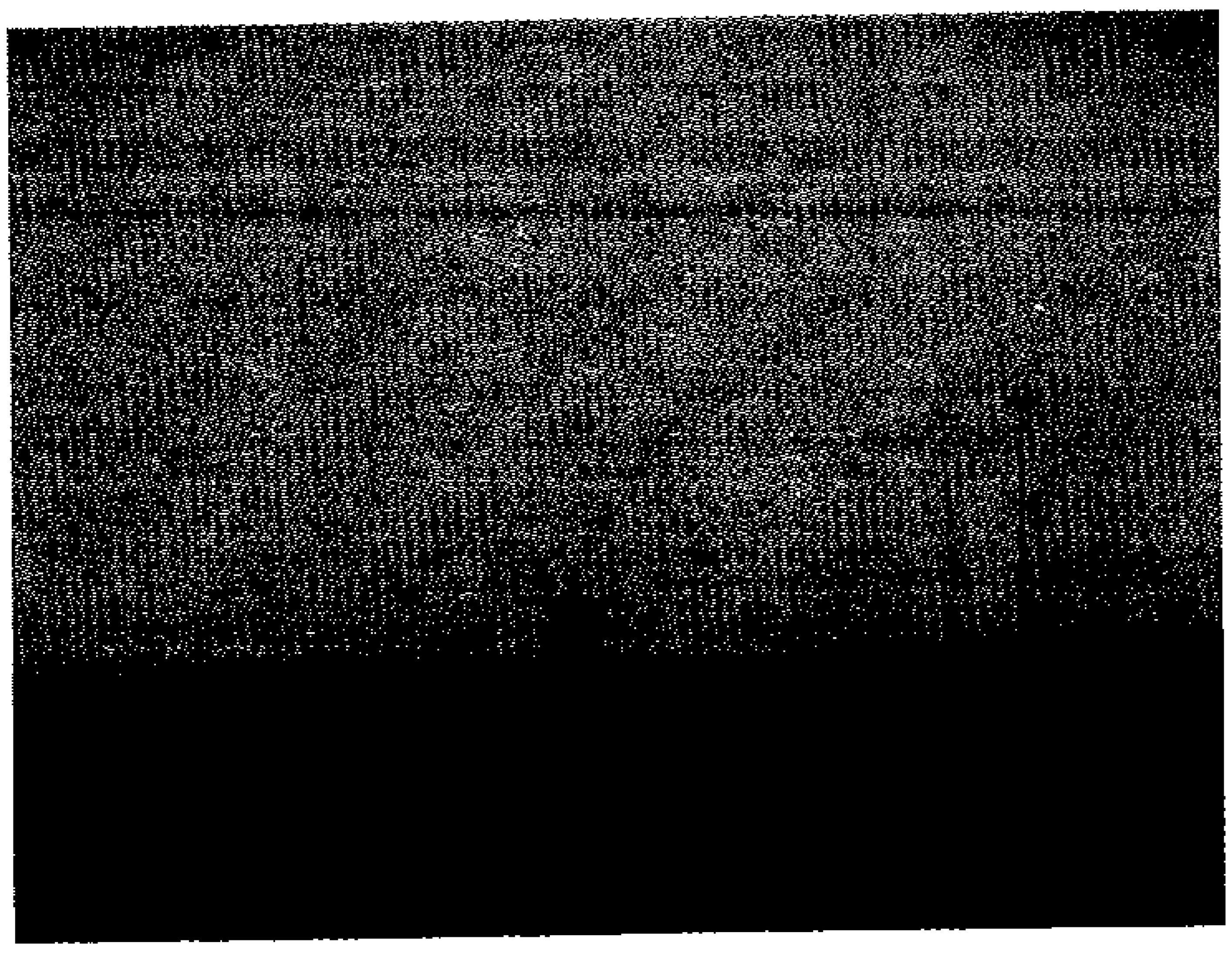

12

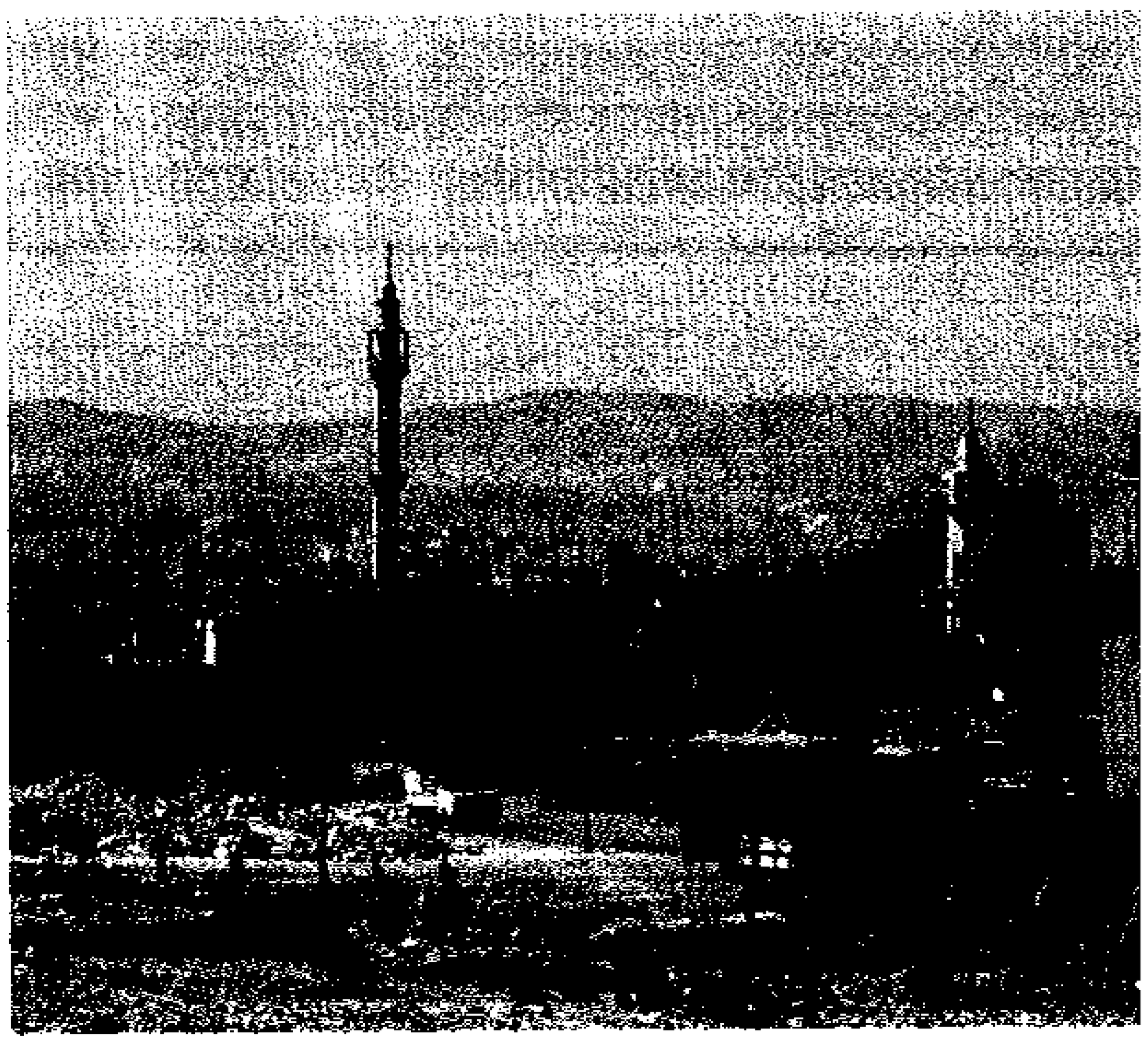

13

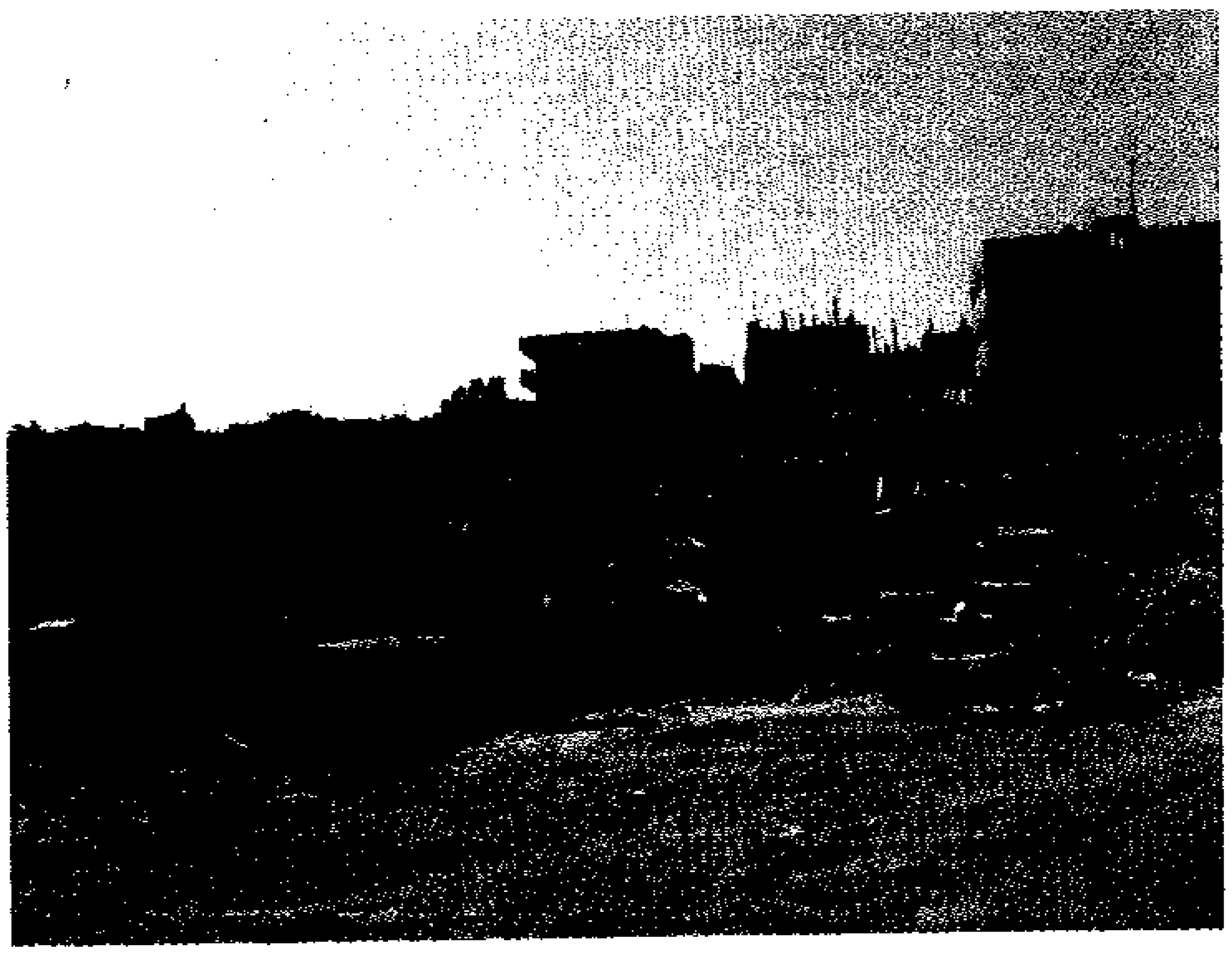

14

ىن سواقه، حيث أمضى الزرقاوي خمس
ت، من 1994 إلى 1999 (مجموعة خاصة).
يم اللاجئين الفلسطينيين في الزرقاء
جد الفلاح (مجموعة خاصة).
ظر للمقبرة التي يطل عليها المنزل حيث
لزرقاوي (مجموعة خاصة).
زل العائلة في حي رمزي في الزرقاء
وعة خاصة).

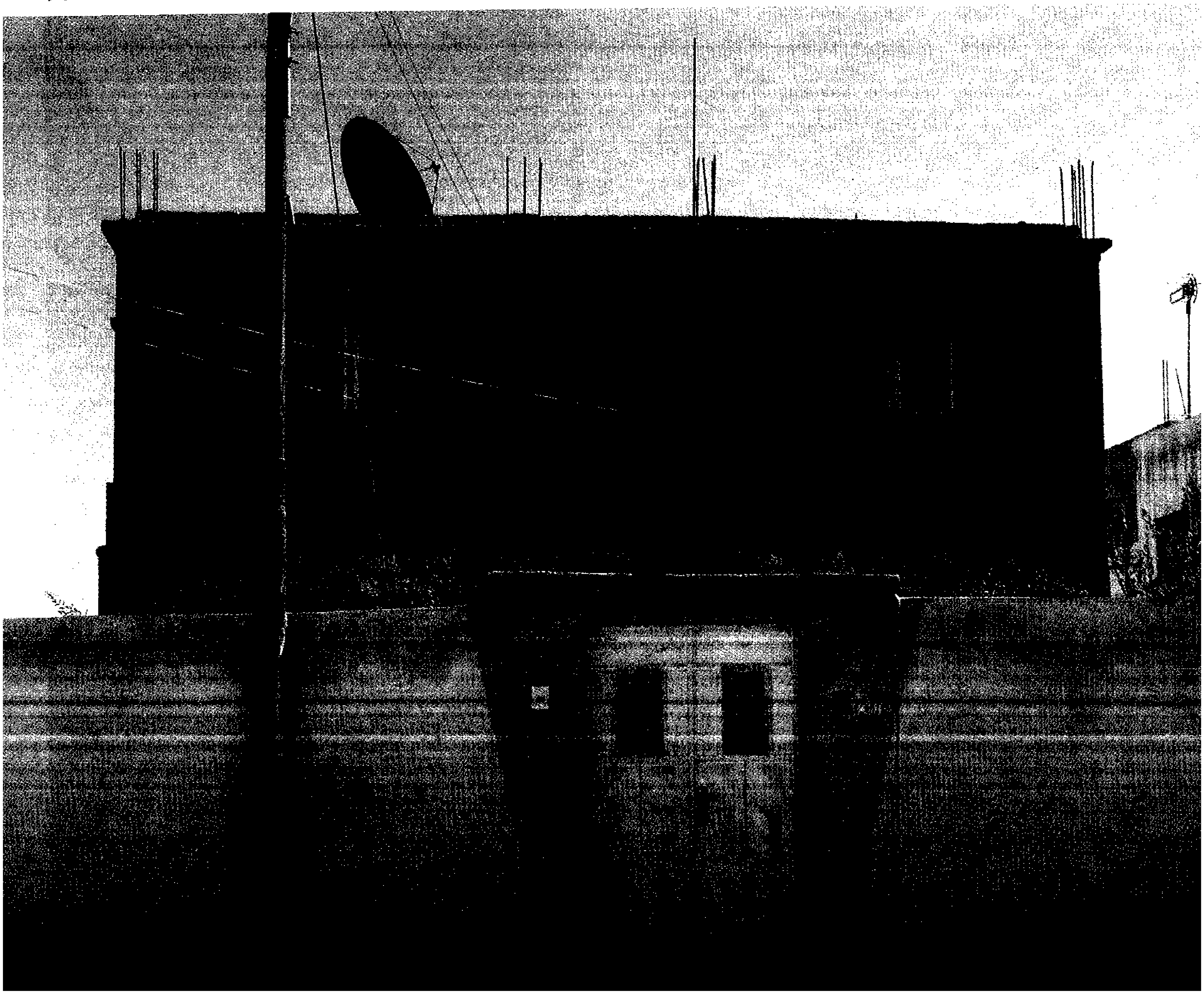

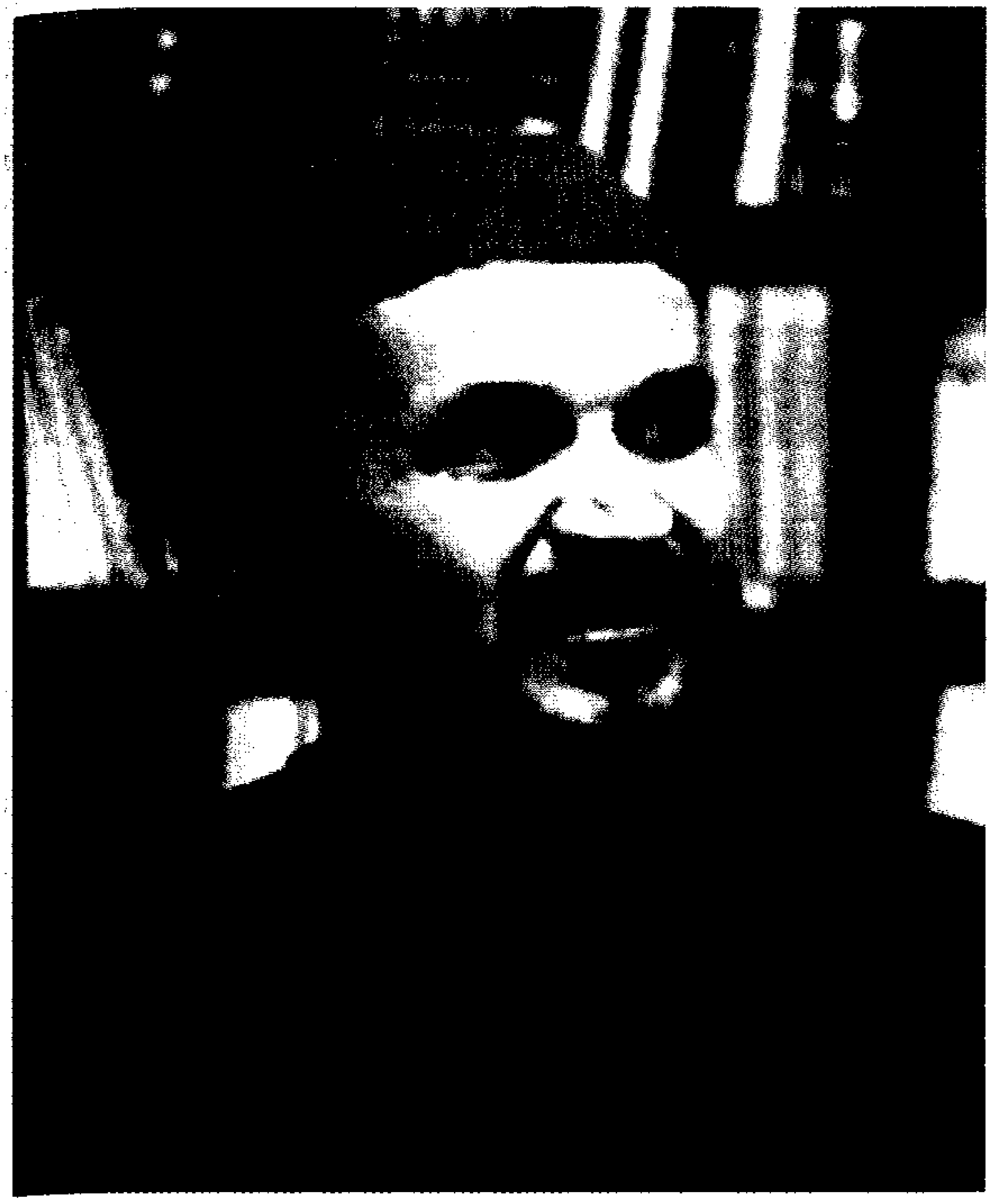

17

18

16 – الملا كريكار، مؤسس أنصار الإسلام (DR) حقوق محفوظة

17 – عصام محمد طاهر البرقاوي، المعروف بأبي محمد المقدسي (DR) حقوق محفوظة.

18 – محمد الخلايلة شقيق الزرقاوي (مجموعة خاصة).

19 – صالح الحامي، صهر الزرقاوي (LynseyAddario/Corbis)

20 – مصطفى ست مريم نصار المعروف بأبي مصعب (1) السوري، الذراع الأيمن للزرقاوي في العراق (مجموعة خاصة).

3

2

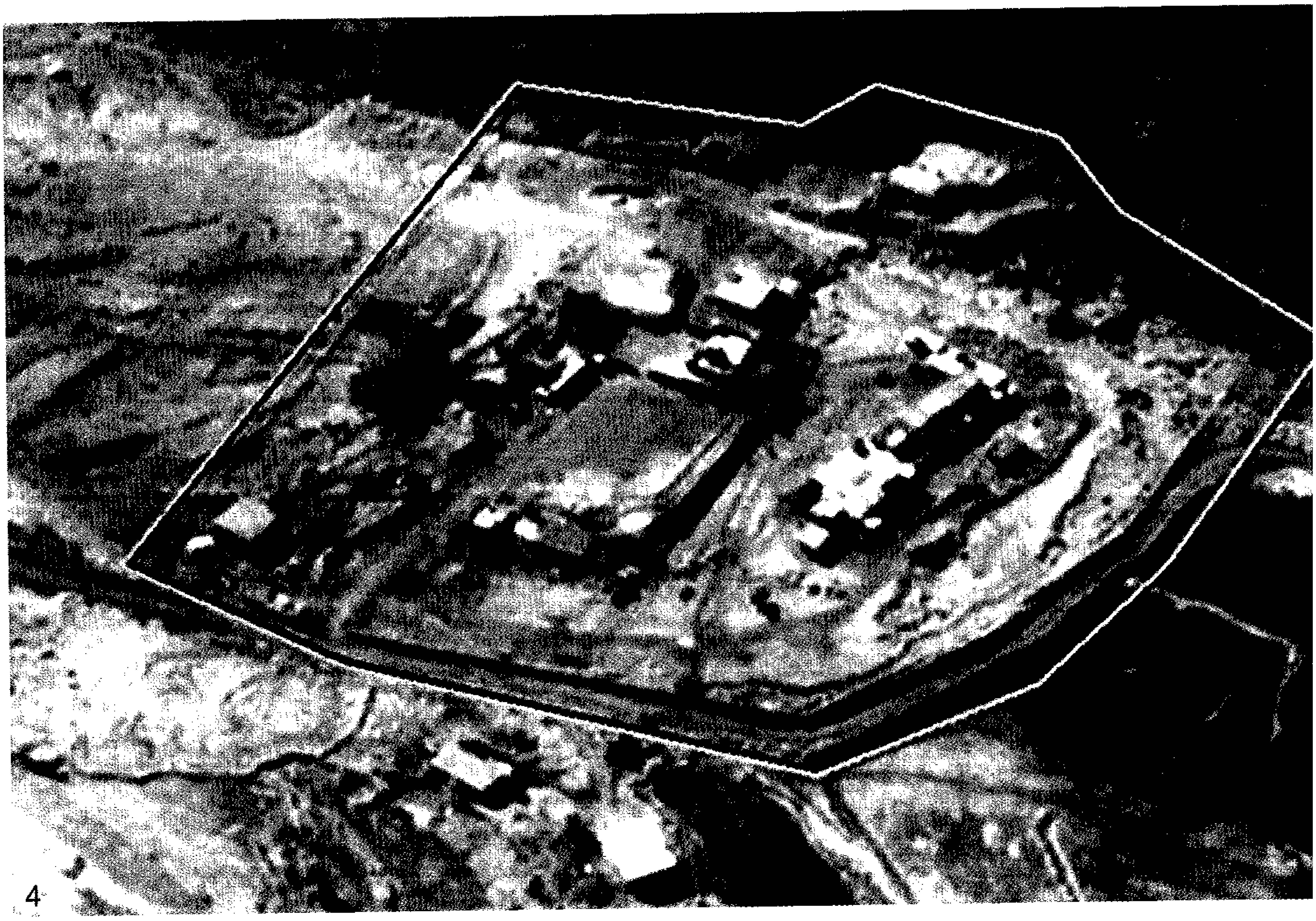

4

5

6

ـز "جند الإسلام" (DR) حقوق محفوظة.
ـز "أنصار الإسلام" (DR)حقوق محفوظة.
ـز "التوحيد والجهاد" (DR)حقوق محفوظة.
ـسكر خورمال، في كردستان العراق (DR)حقوق
ـوظة.

5 – مقاتلو أنصار الإسلام في معسكر تدريب (DR)
حقوق محفوظة.

6 – قبل إعدام نيكولاس بيرغ (DR)حقوق محفوظة.

الشرق الأوسط حالياً

كردستان العراق
تركيا
بحيرة
أورمية
سورية
إيران
صلاح الدين
الموصل
أربيل
السليمانية
العراق
كركوك
سارغات
خورمال
بيارة
غلب
طويله
حلبجة
دجلة
خانقين
بحيرة
الثرثار
0
50
100كلم
حدود منطقة الحكم الذاتي في كردستان العراق

المثلث السّني

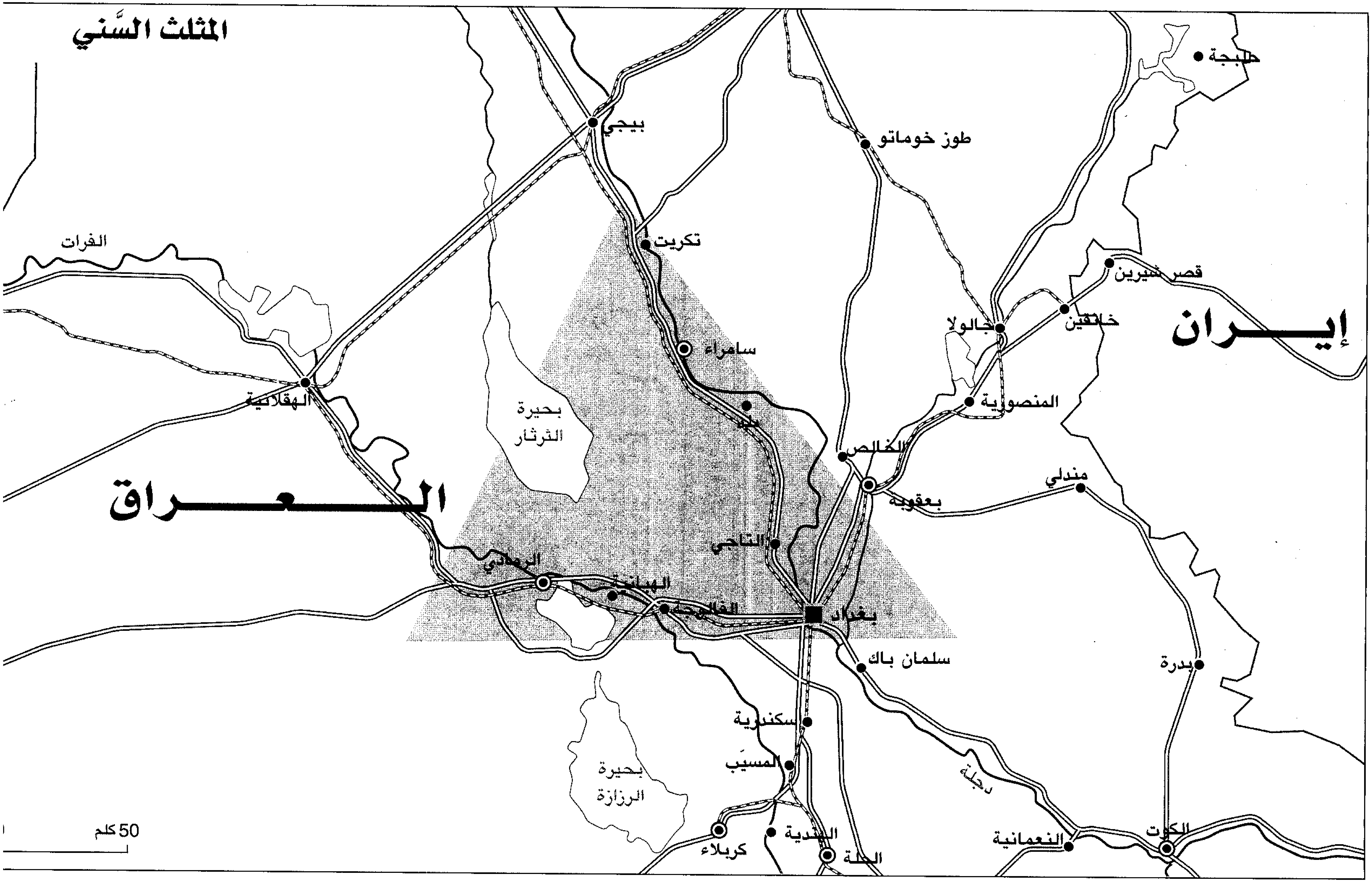

في الــرأي، حينما عزمت على استئناف قرار قاضي مكافحة الارهاب والذي هو على الأقل مثير للدهشة.

وهــناك تقرير للسي آي إي CIA يعود تاريخه إلى العام 1996، ذكر أن هيئة IIRO كانــت مرتبطة برمزي يوسف، الذي أدانته الولايات المتحدة لاشتراكه في الهجــوم الأول علــى مركز التجارة العالمي عام 1993، وبأسامة بن لادن خاصة، الــذي وُصــف في ذلك الوقت على أنه "ثري سعودي يقيم في السودان، ويدعم مختلف الجماعات الإسلامية المتطرفة"(1).

بالنسبة لجمعية اقرأ، فإن المحققين وإن لم يستطيعوا أن يثبتوا تبعيتها إلى المنظمة العالمــية اقــرأ إنترناشيونال، إلا أن صلات مؤسسية توجد بينها وبين IIRO. إن رئــيس اقــرأ إنترناشــيونال، هو في الواقع وعلى نحو موازٍ مدير لجنة استثمارات IIRO(2).

أخــيراً، وفي 20 أيلول 2004، فتحت النيابة العامة في باريس تحقيقاً قضائياً حول الشبكات العراقية، بالاستناد إلى مذكرة DST على وجه الخصوص، المؤرخة بــتاريخ شــهر آب، والــتي أثبتت سفراً مشبوهاً لحوالى عشرة فرنسيين من أصل تونــسي للجهــاد في العــراق عبر سوريا. إضافة لذلك، فإن رجلين فرنسيين تم استجوابهما عند الحدود السورية - العراقية في شهر أيار 2004 قبل أن تتم إعادتهم إلى تركيا(3).

لقــد لاحظت التقارير التي أعدتها أجهزة الاستخبارات الأميركية في العراق، منذ الشهور الأولى للهجوم الأميركي، تزايد التهديد وتدفق المرشحين للجهاد. وفي تشرين الثاني 2003، لقد اعتبر مدير CIA أن الوضع في العراق يتفاقم بسبب عدة عــوامل، مــن بيــنها "تدفق المتطوعين العراقيين أو الأجانب إلى صفوف المقاومة العــراقية"، وكذلك مخزونات الأسلحة التي تمتلكها المقاومة، ودعم المنظمة، وتآزر

---

(1) تقرير CIA حول المنظمات الخيرية الإسلامية في البوسنة والهرسك، 1996، وثائق المؤلف.

(2) "هيــئة IIRO تجمــع تبرعات بقيمة 15 مليون ريال سعودي، صحيفة عرب نيوز، 22 كانون الأول 1993.

(3) القضاء يحقق حول متطوعين فرنسيين في العراق، صحيفة لوفيغارو، 22 أيلول 2004.

المتمردين. وحددت CIA آنذاك هوية 15 جماعة تشارك مشاركة نشطة في المقاومة المسلحة[1].

في شهر حزيران عام 2004، أشارت مصادر داخلية في CIA إلى أنه ومنذ "عدة أشهر"، ازدادت "البراهين على دعم الكثير من المنظمات الخيرية للمتمردين العراقيين". وبحسب أحد عملاء مركز مكافحة الإرهاب في CIA، فإن الأموال المحددة إلى ذلك الحين كانت تأتي بشكل رئيسي من باكستان وأوروبا وتصل إلى العراق بانتظام عن طريق منظمات غير حكومية ONG. واعتبرت CIA نفسها أنها في مواجهة "ظاهرة مشابهة في طبيعتها وأهميتها" لتلك التي لوحظت في بداية الثمانينيات في أفغانستان، عندما كانت كثير من المنظمات غير الحكومية الإسلامية تقدم دعمها للمجاهدين العرب[2]. ولاحظت الحكومة العراقية المؤقتة الظاهرة نفسها فأكدت أن: "الإرهابيين يتدفقون من بلاد عديدة إلى العراق [...]. إنهم يأتون من أفغانستان، ومن باكستان، وأوروبا، والمغرب، وسوريا[3]...".

في 22 تشرين الأول 2004، عُلم أن شاباً فرنسياً عمره 19 سنة، هو رضوان الحكيم، قد قتل في معركة في العراق وكان منضوياً تحت لواء المقاومة الإسلامية. وكان قد ذهب إلى العراق في بداية عام 2004 عبر الأراضي السورية حيث سافر منها رسمياً للدراسة برفقة أخيه، بوبكر. وكان اسم هذا الأخير قد ظهر بالتحديد في تحقيق المفرزة الجنائية حول مسجد "لوفالوا - بيريه"[4]. ومنذ ذلك الحين، قُتل ما لا يقل عن خمسة فرنسيين قاتلوا إلى جانب الإسلاميين في العراق.

---

(1) "وكالة الاستخبارات الأميركية: الوضع الأمني في العراق سيزداد سوءاً"، CNN، 12 تشرين الثاني 2003.

(2) مقابلة مع المؤلف، 22 حزيران 2004.

(3) "رئيس الوزراء العراقي: الإرهابيون يتدفقون على العراق "، CNN، 20 أيلول 2004.

(4) "التحقق من هوية فرنسي قضى في قتال التحالف في العراق"، وكالة الأنباء الفرنسية AFP، 22 تشرين الأول 2004.

خليفة لابن لادن؟

قـــد يكـــون بوسع الزرقاوي أن يجسد تقريباً نقيض أسامة بن لادن، لفرط اختلاف أصولهما، ومسيرتهما، وتعليمهما، وإدراكهما للعالم.

مع ذلك، من المؤكد أن ما استطاع أسامة بن لادن كسبه عن طريق حرب العـــراق الثانـــية هو في الميدان الإيديولوجي، بينما أعاد الزرقاوي تشكيل ذلك المكـــسب بقـــوة السلاح، لدرجة أنه حجب اليوم، وربما على الدوام، زعامة أسامة بن لادن لأنصار التطرف الإسلامي ومقاتليه. لقد استطاع بعنف أعماله أن يفـــرض نفسه على المقاتلين والإسلاميين المتدينين واستطاع أن يطور ويوطد شـــبكاته، لـــيحلَّ محـــل زعامة القاعدة في عدد من الحركات أو الخلايا التابعة تقليدياً لتنظيم القاعدة.

لقـــد امتد تأثير الزرقاوي حتى الآن إلى ميدان رجال الدين: فقد أصبح عدد من الإسلاميين الراديكاليين يحددون وضعهم بحسب آخر تصرفاته في العراق.

إن الـــزرقاوي ليس أسطورة اختلقها الأميركيون، كما يقال أحياناً، ولا هو شـــبح ســـوبرمان حسبما يعتقد الملا كريكار، الزعيم السابق لأنصار الإسلام. إن الـــزرقاوي بالنـــسبة للمقاتلين هو قبل كل شيء زعيم عسكري، وموجه، ولهذا السبب اختاروه. أما بالنسبة للمتدينين الراديكاليين، فهو الذي يلسم "روح الجهاد"، التي جسدها إلى ذلك الحين أسامة بن لادن.

مـــن المعلـــوم أن تلك المرجعية للجهاد هي مصدر القاعدة. وهذا ما تؤكده آلاف عـــدة من الوثائق التاريخية للشبكة التي تم الاستيلاء عليها في آذار 2002 في البوسنة والهرسك من مقر أحد المنظمات غير الحكومية ONG التي يديرها مسؤول ســـابق عـــن الـــشؤون اللوجستية للجماعة. وتشكل تلك الأرشيفات حتى اليوم

الأساس الوثائقي الأهم الذي تم الاستيلاء عليه على الإطلاق، إنه يوضح على نحو مذهل نشأة المنظمة.

لقـد ولدت القاعدة من النـزاع الأفغاني، عام 1988، وسط موجة الحماس الهائلة التي أثارها انتصار المقاتلين العرب على العدو الملحد. وما تزال تلك الحرب تـشكل إلى الـيوم، أسطورة بالنسبة لآلاف المقاتلين المجاهدين. إنها بمثابة أسطورة حول معارك ستبقى في الذاكرة الجماعية لهؤلاء المجاهدين باعتبارها علامات ربانية تشد من عزم عدالة معركتهم.

وجـرى الإعـلان عن الأساس العقائدي للحركة في نيسان 1988 في مجلة الجهاد، مجلة المجاهدين الأفغان. ودعا عبد الله عزام، مرشد أسامة بن لادن ومؤسس أول تنظـيم لتجنـيد المجاهـدين من أجل الجبهة الأفغانية، في مقاله، إلى تشكيل "القاعـدة الصلبة" والتي انطلاقاً منها سيكون بوسع أولئك الذين شاركوا في تلك الحـرب "المحافظة على روح الجهاد"[1]. وبحسب بيان اجتماع تحضيري لإنشائها، فـإن القاعـدة جماعة تدعو إلى "الحفاظ على اتِّقاد روح الجهاد"[2] بين المسلمين، وعلـى الأخـص بين العرب، من أجل "فتح سبل جديدة للجهاد والحفاظ على الاتـصال فيما بينهم"[3]. وعبّر أسامة بن لادن فيما بعد عن فكرة مواصلة الجهاد خلال اجتماع عُقد في 11 آب 1988 مع أبي الرضى، ذلك الاجتماع الذي صدر عـنه أول إشارة معروف في ذلك اليوم للقاعدة، حيث أُطلق اسم القاعدة بحسب النص الحرفي للاجتماع. وأوضح أسامة بن لادن آنذاك أن فترة الحرب "كانت فترة تـربية، وتثبـيت وتدريب للأخوة الذين جاؤوا للقتال"، وأنها أيضاً "برهنت على وجـود العـالم الإسلامي"، وتابع أسامة بن لادن قائلاً: "لما بدأنا تلك المهمة، في أحلـك سـاعات عرفناها، وفي وقت قصير جداً، جنينا فائدة كبيرة من الشعب الـسعودي، وكنا قادرين على أن نقدم للمجاهدين قوة سياسية، وأن نستفيد من تبرعات عظيمة، وأن نعزز النفوذ. ولقد حان وقت التنظيم".

---

(1) "الجهاد"، المجلد 41، نيسان 1988.

(2) وثيقة داخلية في القاعدة، أرشيف المؤلف.

(3) وثيقة داخلية في القاعدة، أرشيف المؤلف.

وخلــص الاجتماع إلى "تقدير أولي" لعدد أعضاء المنظمة: "خلال ستة أشهر من وجود القاعدة، سيكون 314 أخاً جاهزين ومدربين"[1].

وفي 20 آب عــام 1988 انعقد اجتماع حاسم شارك فيه المسؤولون التسعة الرئيــسيون في منظمة القاعدة الجديدة، ومنهم "الشيخ أسامة"، أي أسامة بن لادن نفــسه. وأقر الاجتماع انفصال أسامة بن لادن عن مرشده، الشيخ عبد الله عزام، ووضع أسس المنظمة. وبحسب محضر ذلك الاجتماع، فإن أسامة بن لادن اعتبر أن "مكــتب الخدمات" وهي المنظمة التي أسسها عزام، "سيئ الإدارة وغير فعال". إن القاعدة ينبغي أن تكون "حزباً إسلامياً منظماً"، يهدف إلى "نشر دعوة الله، لتكون كلمــة دينه هي العليا". وحتى أن المشاركين حددوا شروط الانخراط في المنظمة: فعلى هؤلاء المتطوعين أن "يصبحوا أعضاء دون تحديد للزمن "وأن يكونوا "يقظين ومخلصين"، ويتمتعون "بالسلوك الطيب"، وأن يكونوا "مكفولين وطائعين للأنظمة والتعليمات"[2].

وحدد الاجتماع أيضاً القسم الذي يتوجب على كل عضو جديد في المنظمة قراءته وهو الآتي: "أعاهد الله على السمع والطاعة لولاة الأمر، في المنشط والمكره، والعسر واليسر، لتكون كلمة الله هي العليا والغلبة لدينه ".

وأشارت وثيقة أخرى أنه عقب ذلك الاجتماع "استُهلّ نشاط القاعدة في 10 أيلــول 1988"، وذلــك "بمجموعة مكونة من 15 أخاً، منهم 9 إخوان مكلّفين بــالإدارة". وفي 20 أيلــول، كانت القاعدة تضم "30 أخاً قد استوفوا الشروط المطلوبة"[3].

إن الطموح العالمي، والعسكري للمنظمة تجلى سريعاً جداً في بعض الصحف الدعائــية، مــثل المجلتين الجهاديتين: الجهاد والبنيان المرصوص، وتلك الأخيرة هي المجلــة التي ساعد الزرقاوي فيها عام 1999، طبعت المجلتان في باكستان. وفي تموز عــام 1989، بــيَّن مقال افتتاحي بقلم أحد أعضاء القاعدة وبوضوح كبير طريق

(1) وثيقة داخلية في القاعدة، أرشيف المؤلف.

(2) وثيقة داخلية في القاعدة، أرشيف المؤلف.

(3) المصدر السابق.

الجهاد قائلاً: "واجب على كل المسلمين أن ينهضوا بالجهاد إلى أن نصل إلى أميركا ونحررها"(1).

لقد ولدت القاعدة وتغذت من الجهاد، الأمر الذي أتاح لها أن توحد الإسلاميين بدءاً من عام 1996، ولا سيما من عام 1998، عندما تشكلت جبهة ضد اليهود والصليبيين. وهكذا تلاحق الجهاد "المُسارِّي"(2) الأفغاني في البوسنة والشيشان، بوسائل أخرى، وقادة عسكريين وجنود آخرين، لكنه ظل في أساس المنظمة.

إن هجوم التحالف الأميركي على العراق أتاح للزرقاوي أن يظهر بوصفه ممثلاً جديداً للتيار الجهادي. فشخص مثله، على استعداد لكي يؤمِّن البقاء الإيديولوجي للقاعدة، وكذلك دليل التصاق المنظمة بأهدافها. وبدون ذلك النزاع في العراق، لن يكون الزرقاوي أبداً سوى قائد لدى أسامة بن لادن من بين قادة آخرين.

أجل، إن الجهاد هو فعلاً المحرك الأساسي للحركات الإسلامية ذات الاستلهام الأفغاني. وبدون تلك الركيزة الإيديولوجية والعسكرية، ستصبح الجماعات الإسلامية دون أساس ديني حقيقي، وسيحكم عليها أن تفقد على نحو سريع مصداقيتها ومجنَّديها.

إن مستقبل ونهاية الحرب على الإرهاب يكمنان في قدرتنا (نحو الغربيين) على فهمه لنتجنب تخصيب ميادين أخرى ملائمة بالجهاد، وبذلك نسهم في تحويل زعيم حرب مسيطر على الأحداث إلى زعيم روحي. إن الجهاد اليوم هو قوة الزرقاوي الكبرى، ويمكن أن تشكل غداً نقطة ضعفه.

(1) "البنيان المرصوص"، تموز 1989.

(2) المسارة: احتفالات لإيقاف عضو جديد على بعض أسرار الجمعيات السرية الحديثة. (المترجمة).

تسلسل الأحداث

20 تشرين الأول 1966

ولد أحمد فضيل نـــزال الخلايله في حي معصوم، في الزرقاء، في الأردن.

1971

دخل المدرسة الابتدائية في الزرقاء (مدرسة الملك طلال بن عبد الله الابتدائية).

1977

دخل ثانوية الزرقاء.

1982

قرر أن يقطع دراسته ويترك ثانوية الزرقاء.

1983

حصل أحمد فضيل على عمل في مصنع للورق حيث عمل فيه ستة أشهر، ثم سُرّح.

وعمل فيما بعد كتقني صيانة في بلدية الزرقاء، وترك هذا العمل بعد عدة أشهر.

1984 – 1986

أدى خدمته العسكرية في الأردن.

1987

حُكم عليه بالسجن لشهرين لأعمال عنف. ونجا من السجن لقاء دفع غرامة كبيرة.

1988

تزوج زوجته الأولى، انتصار بكر العمري.

15 شباط 1989

انسحاب آخر جندي سوفياتي من أفغانستان.

ربيع 1989

ذهب إلى باكستان، ثم إلى خوست، في أفغانستان.

1989

التقـى مـع عـصام محمد طاهر البرقاوي (المعروف بأبي محمد المقدسي) في بيشاور، في باكستان.

1989

عمل مراسلاً لمجلة جهادية البنيان المرصوص. حيث التقى بصالح الحامي.

1991

زواج أخته في باكستان من الأردني صالح الحامي.

1992 - 1991

شـارك في المعارك بين الفصائل الإسلامية المتنافسة في أفغانستان، إلى جانب الزعيم الإسلامي قلب الدين حكمتيار.

1992

تدريب عسكري في معسكر صدى في أفغانستان.

منتصف عام 1993

العودة إلى الزرقاء حيث أدار متجراً لتأجير أشرطة الفيديو وذلك لعدة أشهر.

1993

وطد صداقته مجدداً مع أبي محمد المقدسي.

29 آذار 1994

اعـتقل في إطار قضية بيعة الإمام التي كونها هو ومن معه. وسجن الزرقاوي في سجن سواقه.

1994

وفاة فضيل نـزال محمد الخلايله، والد أبي مصعب الزرقاوي.

27 تشرين الثاني 1996

حكم القضاء الأردني عليه بخمسة عشر عاماً سجناً. وأودع سجن سواقه، ثم في سجن جفر.

18 آذار 1999

مرسوم ملكي بالعفو أصدره الملك الأردني عبد الله.

29 آذار 1999

خروج الزرقاوي من السجن.

صيف 1999

رحيله مجدداً إلى حياة آباد، في باكستان، من أجل أن يبيع العسل هناك.

التقى الزرقاوي بإسراء ياسين محمد جراد التي ستصبح زوجته الثانية.

تشرين الأول 1999

حملة تطهير تقوم بها حكومة بنازير بوتو ضد المقاتلين العرب. وبعد اعتقال قصير، غادر الزرقاوي باكستان إلى أفغانستان.

آخر عام 1999

استقر الزرقاوي في كابول. وجند في أفغانستان العديد من الأردنيين لشنّ سلسلة هجمات في الأردن.

بداية 2000

تولى إدارة معسكر تدريب القاعدة، الذي يقع على مقربة من مدينة هيرات.

وأنشأ خلية التوحيد في ألمانيا.

تشرين الأول 2000

اتهم غيابياً في الأردن لمشاركته في مؤامرة الألفية في عمان.

آخر عام 2000

أدار معسكر هيرات في أفغانستان. وجند أردنيين ونظم قدومهم عبر إيران.

بداية عام 2001

أدى يمين الولاء لأسامة بن لادن.

منتصف عام 2001

ذهب إلى قندهار حيث استلم مبلغ 35000 دولار من القاعدة لتجنيد أردنيين

وشنّ هجمات على إسرائيل. تم توقيف المكلفين بالعملية في شباط 2002 في مدينة فان، في تركيا.

آخر عام 2001

شكل تحالفاً مع الإسلاميين العراقيين في جماعة أنصار الإسلام. وأسس قاعدة في خورمال، في كردستان العراق.

خريف 2001

بـــدأت في أفغانستان عملية الحرية الدائمة، التي شنّها تحالف تتزعمه الولايات المتحدة ثأراً لهجمات 11 أيلول.

10 كانون الأول 2001

تزعم الملا كريكار جماعة أنصار الإسلام.

12 كانون الأول 2001

أشار تنصت هاتفي إلى أن الزرقاوي كان قد أصيب بجراح في معدته وساقه خلال قصف أميركي. هرب الزرقاوي من أفغانستان إلى إيران.

5 كانون الثاني 2002

وصوله إلى مشهد، في إيران.

منتصف كانون الثاني 2002

دل تنصت هاتفي إلى أنه قد تعافى من جراحه.

11 شباط 2002

حكمـــت علـــيه محكمة الأمن الأردنية بخمسة عشر عاماً سجناً لمشاركته في مؤامرة الألفية.

بداية 2002

جـــرى تحـــويل 40000 دولار مـــن إيـــران إلى ألمانيا لشراء جوازات سفر مزيفة.

اعـــتقلت السلطات الإيرانية الزرقاوي لمدة قصيرة ثم أطلقت سراحه لحيازته جواز سفر سوري.

2 نيسان 2002

أشار تنصت هاتفي إلى أن الزرقاوي في "وضع مالي ميسور".

4 نيسان 2002

غادر الزرقاوي إيران إلى العراق.

23 نيسان 2002

تم تفكيك خلية الدعم التابعة له في ألمانيا.

منتصف حزيران 2002

حدد مكان تواجد الزرقاوي في بغداد وفي شمال العراق.

بداية تموز 2002

التقاء الزرقاوي بالملا كريكار وتوطد تحالفهما.

من تموز إلى أيلول 2002

أقام الزرقاوي في دمشق في سوريا.

9 أيلول 2002

ذهابه من سوريا خفية ليقيم لفترة قصيرة في الأردن.

نهاية أيلول 2002

انتقاله إلى بغداد حيث تواجد في مطعم "الغوطة".

28 تشرين الأول 2002

اغتيال الدبلوماسي الأميركي لورنس فولي في عمان، وهي عملية خططها وصممها الزرقاوي.

كانون الأول 2002

كشف أبو زبيدة عن تورط الزرقاوي في محاولات الهجوم الكيماوي على أوروبا.

5 شباط 2003

خطاب كولين باول أمام مجلس الأمن في الأمم المتحدة، وصف فيه الزرقاوي على أنه صلة الوصل بين القاعدة ونظام صدام حسين.

20 آذار 2003

بدء هجوم التحالف على العراق.

آذار 2003

تفكيك شبكة دعم لجماعة أنصار الإسلام في إيطاليا. كشفت تنصتات هاتفية عن إرسال مقاتلين عن طريق سوريا.

تموز 2003

أكدت إيران أنها تحتجز عدداً كبيراً من أعضاء القاعدة.

7 آب 2003

وقوع هجوم يُنسب إلى الزرقاوي على السفارة الأردنية في العراق ذهب ضحيته 14 قتيلاً و40 جريحاً.

23 كانون الثاني 2004

في رسالة استولت عليها السلطات الأميركية ومنسوبة للزرقاوي، تبنى فيها الزرقاوي غالبية الأعمال التي تُشنّ على قوات التحالف منذ آذار 2003.

كانون الثاني – نيسان 2004

تسجيلان صوتيان للزرقاوي منشوران يدعو فيهما المسلمين للإنضمام إلى الجهاد في العراق.

29 شباط 2004

وفاة والدته، أم صايل.

11 آذار 2004

هجمات مدريد، أدت إلى 202 قتيل، وأكثر من 1500 جريح.

6 نيسان 2004

حكمت محكمة الأمن الأردنية على الزرقاوي بالإعدام شنقاً لمشاركته في اغتيال لورنس فولي.

نيسان 2004

بدء اختطاف الرهائن الغربيين في العراق.

20 نيسان 2004

اعتقال جماعة يوجهها الزرقاوي كانت تخطط لاعتداء كيماوي في عمان.

أيار 2004

ظهور جماعة التوحيد والجهاد.

11 أيار 2004

إعدام جماعة الزرقاوي للمواطن الأميركي نيكولاس بيرغ.

18 أيار 2004

تبنى الزرقاوي اغتيال عز الدين سليم، رئيس "مجلس الحكم العراقي".

من حزيران إلى تشرين الأول 2004

إعدام جماعة الزرقاوي للعديد من الرهائن الغربيين في العراق.

تشرين الأول 2004

اعتبرت قيادة الأركان الأميركية أن الزرقاوي مسؤول عن مقتل 675 عراقياً و40 أجنبياً.

17 تشرين الأول 2004

كرر الزرقاوي يمين ولائه لأسامة بن لادن.

واتخذت جماعته اسم لجنة القاعدة للجهاد في بلاد الرافدين.

8 تشرين الثاني 2004

بدء هجوم التحالف على المعقل السُّني في الفلوجة.

ملاحق

إنذار موجه إلى الزرقاوي
من بلدية الزرقاء عام 1987
(نسخة طبق الأصل)

بسم الله الرحمن الرحيم

بلديـــة الـزرقــــاء

هاتف ٣٩٨٢١٣١-٣٩٨٢١٣٢-٣٩٨٢١٣٣

فاكس ٣٩٨٢٤٥٥-ص.ب.١٤

البريد الإلكتروني : admin@zm.gov.jo

Zarka Municipality

Tel: 3982131 Fax: 3982455
PO.Box: 14
E-mail admin@zm.gov.jo

الرقم : [illegible]

التاريخ : [illegible]/1987

الموافق : ..../......../........

إنذار

العامل :- أحمد فضيل الخلايلة

قسم الصيانة

نظرا لعدم انتظامكم في العمل الموكل إليكم ضمن قسم الصيانة وتكرار التغيب دون إذن مسبق فإنني أنذركم إنذارا ثانيا والالتزام بالعمل دون أية مبررات غير مقبولة والسرر حسم ثلاثة أيام من أجركم .

نسخة / مدير شؤون الموظفين
نسخة / مدير الصيانة
نسخة / للمدير المالي
نسخة / للملف

رئيس بلدية الزرقاء
ياسر العمري

المصدر: بلدية الزرقاء، 1987، وثائق المؤلف.

الزرقاوي يتعهد بالتخلي

عن العنف عام1987.

(نسخة طبق الأصل)

بسم الله الرحمن الرحيم

ة الأردنية الهاشمية
زارة الداخليــة
محافظة الزرقاء
الزرقاء

تعهد

نحن الموقعين ادناه نلتزم باحترام القوانين والانظمة وبعكس ذلك فاننا نلتزم بدفع الكفالة المالية المطلوبة / ١٠٠٠/ الف دينار اردني والتزام الكفلاء بذلك.

١- محمد [illegible] | [illegible]
٢- صالح [illegible] | صالح [illegible]
٣- احمد [illegible] نزال | احمد [illegible]
٤- وليد [illegible] | وليد مسلم

٧/ ١٠/ ١٩٨٧

الكفيل | الكفيل
[illegible] التميمي | [illegible] الرشق
[illegible] | [illegible]

[illegible]
خالد [illegible]
نائب المحافظ

الشاهد

[illegible] المواطنين [illegible]
لقضية الكفالة.

[illegible]
٧/ ١٠/ ١٩٨٧

المصدر: بلدية الزرقاء، 1987، وثائق المؤلف.

محضر استماع الزرقاوي لدى القضاء الأردني، عام 1994، والذي صدَّق عليه بتوقيعه.

(نسخة طبق الأصل)

ما بعد

أحضر المشتكى عليه أحمد فضيل نزال الخلايلة، من الزرقاء، وسكن حي رمزي، بالأردن، مهنته بيع الخضار، عمره ٢٨ سنة، مسلم، متزوج، وبعد أن أفهمته حقوقي بأنني قاضي محكمة أمن الدولة والتهم المسندة إليه وهي الانتساب إلى جمعية غير مشروعة وحيازة مواد مفرقعة (قنابل يدوية) بدون ترخيص قانوني بقصد استعمالها على وجه غير مشروع وحيازة سلاح ناري بدون ترخيص قانوني، وإطالة اللسان على مقام جلالة الملك والتدخل في تزوير جواز سفر واستعمال مزور وبعد أن تفهم مضمون المادة ٦٣ من قانون أصول المحاكمات الجزائية رقم ٩ لسنة ١٩٦١ مقابل التهمة واختيار الإجابة لنفسه وأفاد: أذكر وحوالي عام ١٩٨٩ سافرت إلى الباكستان وخلال وجودي هناك تعرفت على المشتكى عليه عصام محمد طاهر الملقب (أبو محمد المقدسي) حيث التقيته هناك وقد بقيت في الباكستان لغاية عام ١٩٩٢ حيث عدت إلى الأردن وقبل عودتي إلى الأردن فقد تلقيت في مركز صدى الجهاد تدريبًا على حمل السلاح مثل الكلاشنكوف والآربيجي وصنع المتفجرات وذلك من أجل الجهاد في أفغانستان وبعد انتهاء الجهاد هناك فقد عدت إلى الأردن في منتصف عام ١٩٩٢ وبعد عودتي مقدمًا علمت بأن المشتكى عليه عصام محمد طاهر أبو محمد المقدسي قد عاد أيضًا إلى الأردن فقد زرته في منزله وعرفته على نفسي وذكرته في اللقاء الذي تم بيني وبينه في الباكستان وبعد ذلك توطدت العلاقة بيني وبينه وأخذنا نتبادل الزيارات وقد تمت معرفتي على كثير من الشباب في مدينة الزرقاء والذين لديهم اتجاه ديني وأذكر منهم المدعو شريف الملقب أبو شريف والمدعو سليمان طالب خمرة، والذين خالد العاروري والذين ... أخو المشتكى عليه ...

المشتكى عليه

المحقق/ العام

الحاكم/ العسكري

ما بعد

شاكر فايز وكذلك محمد الرواشده وكذلك عامر السراج وشوكت الحمايده وعرض عليه الشباب المذكورين على المشتكى عليه عصام بإعطاء الدروس الدينيه علينا حيث ألقى عدة دروس في منزل المدعو شريف والقى بعض الدروس في منزل شاكر فايز وكانت جميع دروسه عن العقيدة الواسطية وكانت تتحدث هذه الدروس على أن هذه العقيدة تنقسم إلى ثلاث اقسام هي التوحيد الربوبية وقد تعرض من خلال ذلك الى أن من يحكم بغير ما أنزل الله فهو كافر لقوله تعالى ((ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون)) والتوحيد الأسماء والصفات والتوحيد الألوهية وكنا نتعرض خلال جلساتنا والدروس التي كان يلقيها المشتكى عليه عصام بأن الحكام في الوقت الحاضر كونهم لا يحكمون بما أنزل الله فهم كفرة . وفي بداية عام ١٩٩٤ ذهبت مع كل من المدعو المشتكى عليه عصام محمد طاهر والمدعو خالد العاروري والمدعو مصطفى حسن بسيسا المشتكى عليه عصام محمد طاهر بزيارة المدعو فايز نابلس ابو البراء الى معان حيث كان يعيش سابقا في الباكستان وكما قمنا بزيارة المدعو عبد المجيد المجالي وكان يرافقنا خالد العاروري وذلك الى منزله في منطقة العقبة بالكرك . وكانت زيارات ودية لم تنطوي على أي أمور تنظيمية وكان هدف الزيارة من أجل احضار جهاز تسجيل أو شريط لكنت من المطبعة لأجل من أجل بيعه لي إلا أنه لم يستطع بيعه . وبعد مغادرتي من قبل رجال المخابرات العامة فقد قمت بزيارة المدعو فيصل رمزي حيث كنت اسمع عنه أثناء وجودي في الباكستان أنه يحمل أفكار تشبه أفكارنا وأنه يحمل السلاح ويرى حمل السلاح على سيدنا عيسى والسياسيين وقد رافقني في هذه الزيارة المدعو ابن المشتكى عليه عصام محمد طاهر معتقداً صديقنا حول

المشتكى عليه

المحقق

طلبنا منه جهاز المخابرات العامة. قلت أنا أنتم لم أقم بتسليم نفسي
لدائرة المخابرات العامة وما قدمت بحوالي عشاوصتهم بالسلاح إذا
قالوا الاستقبالي كما تحدث يقال بأنه لم يسلم نفسه وإذا قالوا
الاستقالة بأنه سيقاوم، وقد تحدث بشراء رشاش لدائرة من توله
من المدعو نال بمبلغ ثمانمائة دينار، وذلك من أجل مقاومة رجال
المخابرات في حال الاستقبالي واسم الرشاش الذي اشتريته أم. بي
فايف وكذلك ثلاثة مخازن عائده لنفس السلاح وكذلك (٣٥) طلقة
عائده للرشاش مع أنني لم أنتظم الى حركة بيعة الإمام ولم
تشكل تنظيماً أشار المشتكى عليه عصام محمد طاهر واسم الحركة
بحرم التنظيمات وخلال شهر كانون ثاني لسنة ألف وتسعمائة
٩٩٢ زارني المشتكى عليه عصام محمد طاهر ودعاني الى بيته وبعدها
ذهبنا لزيارة أحد أصدقائه صاحب شركة تجارية واشترينا الطعام
وذكر لي بأنه بحوزته ستة قنابل وخمسة ألغام تركية متداولة
من الكويت وبعد ذلك عرضت عليه أن يعطيني إياه لأخفيها
في منزلي موافقة على ذلك وبعد يومين من ذلك فقد ذهبت وكان
برفقتي المدعو خالد العابوري الى منزل المشتكى عليه عصام محمد طاهر
من أجل إحضار القنابل والألغام وبالفعل فقد أحضرت الكيس
خيش وكان بداخله القنابل والألغام المشار إليها أعلاه.
وقد قام بفحصها ثم سلمني إياها وبعد ذلك عدت الى منزلي
في حين ذهب خالد الى منزله وقد بقيت الألغام والقنابل بحوزتي
لمدة أسبوعين تقريباً وبعد ذلك استفسر مني عن القنابل والألغام
فقلت له بأنني لم أجد مكان جيد لإخفاء القنابل والألغام فطلبها
طلب مني إعادتها إليه وبالفعل فقد أخذت القنابل والألغام

المشتكى عليه

المحقق

١١/١/ ...

واعدتها للمشتكى عليه عصام محمد طاهر وكان من طرفي المدعو خالد
العاروري وفي سيارته أيضاً باستثناء وقنبلتين حيث قمنا
بحفرها من أجل استعمالها في عملية متواضعة داخل الأراضي
المحتلة ضد الكيان الصهيوني. وبالفعل وبعد أن أشترينا العبوات
السلاح في المحتلة للمدعو سليمان طالب حمزة والمدعو عبد الهادي دغلس
وذلك من أجل وضعها بالقرب من الحدود الأردنية الإسرائيلية
وكلنا أحضرنا على مسدس لايت واعدنا كذلك من أجل العملية
برتروا وحوالي عشر قطع بلاستيك كونه وتم وضعها بالإضافة
للقنابل مع المدعو سليمان وذلك من أجل وضعها في مكان قريب من الحدود
الأردنية الإسرائيلية من أجل تنفيذ العملية الذي أنوي في اليوم التالي
من أحداث العيد ويوم الخطف فقد اعتقل المدعو عبد الهادي دغلس
ولم نقم بتنفيذ العملية وأخذت أفكر بالهروب من الأردن
متعرف على المدعو محمد حسين الحجاوي والذي يطلعني بنيته الزرقاء
بالقرب من مسجد الحسين أن يدلني على شخص لاجل أن يدلني
على قريبه له يعرف شخصاً يقوم بتزوير جوازات سفر فوافقته على فرضه
هذا فقد تم ذلك وبالفعل فقد أبلغني بأن ذلك الشخص يريد صورة شخصية
لي من أجل تزوير جواز سفر لي مقابل مئة دينار فوافقته على
ذلك وأعطيته صورة شخصية ومبلغ مائة دينار وبعد أسبوعين
تقريباً أحضر لي جواز سفر يمني باسم أحمد عبد الله المالكي
وأن الصورة الملصقة عليه صورتي الشخصية ومحل الرقم (٧٢٥٠٢٠٢)
وهو المعروض علي الآن، وهو لي أنه الجواز ويميز بالحرف
ن.ر/ وبعد ذلك تم ضبط الشرطة على المدعو عصام وخالد العاروري
متواجدين في هذه الفترة وطلبت منهم أحضار صور شخصية وفيه

ن.ر/

المشتكى عليه

المدعي العام

مسا بعد

دينار لقتل شخص وقمت بتسليم صورهم الشخصية والنقود للمدعو
محمود حسن الحياوي وقام بعد ذلك وبعد مرور أسبوع تقريباً
قام بإحضار جوازين سفر مزورين يحملان صورة كل من المشتكى
عليهم عصام والمدعو خالد العاروري وبقي جواز السفر المزور الذي
يحمل الصورة الشخصية العائدة لي [illegible] لحين القبض علي وتم ضبطه
بحوزتي كما جرى التفتيش منزلي وتم ضبط جواز السفر المزور وتم
ضبط رشاش أم بي فايف حيث تم ضبطه في منزل شقيقي
حيث قمت بإخفائه دون علم شقيقي وقمت بالدلالة على مكانه
وتم إحضاره ومعه ثلاثة مخازن وحوالي ٦٠ طلقة عيار ٩ ملم
وحقيبة مخزنين لونه أسود أما بالنسبة للقنبلتين التي كانتا
بحوزتي فقمت بإعطائهما للمدعو سليمان حمزة وتم ضبطهما في منزل
نسيبه سليمان المدعو [illegible] من [illegible] وادي الكرم [illegible]
لجماعة بيعة الإمام وكذلك جماعة جيش الإسلام [illegible]
وكذلك تدخلي في تزوير جواز السفر وهذه إفادتي أصادق
[illegible] بعد تلاوتها علي سماعي حرفياً. ١٩٩٤/٨/٣١.

المشتكى عليه

المحقق العام

المـــصدر: اعتــرافات أبـــو مـــصعب الـــزرقاوي، محكمة أمن المملكة الأردنية الهاشمية، قرار 95/300 31 آب 1994، وثائق المؤلف.

القضاء الأردني يحكم بالإعدام

على أبي مصعب الزرقاوي

(نسخة طبق الأصل)

العقوبـــــــــــــــــــــة

عطفا على ما جاء في قرار التجريم فان المحكمة تقرر بالاجماع ما يلي

٨. بالنسبه للمجرم الثامن احمد فضيل نزال الخلايله الملقب / ابو مصعب { الفار من وجه العدالة } :-

الحكم عليه بالاعدام شنقاً عملاً باحكام المادتين {١٤٧ و١٤٨/٤} من قانون العقوبات رقم ١٦ لسنة ١٩٦٠ وتعديلاته .

قراراً صدر بالإجماع وجاهياً بحق المجرمين الاول والثاني والثالث والسادس والمتهم الرابع وغيابياً بحق المجرمين الرابع والخامس والسابع والثامن والتاسع والعاشر باسم حضرة صاحب الجلالة الملك عبد الله الثاني بن الحسين المعظم قابلاً للتمييز وافهم علنا" بتاريخ ٦/٤ / ٢٠٠٤

عضو	عضو	الرئيس
القاضي	المقدم القاضي العسكري	العقيد القاضي العسكري
توفيق القيسي	احمد عياش العموش	فواز البقور
٤٠١ ع/م.ز ٢٠٠٤/٤/٦		
عضو	عضو	الرئيس

المصدر: المملكة الأردنية الهاشمية، محكمة أمن الدولة، قرار رقم 545/2003، قضية لورنس فولي، وثائق المؤلف.

رسم شامل لشبكة الزرقاوي في أوروبا،

رسمه شادي عبد الله،

أثناء استجواب السلطات الألمانية له عام 2002.

(نسخة طبق الأصل)

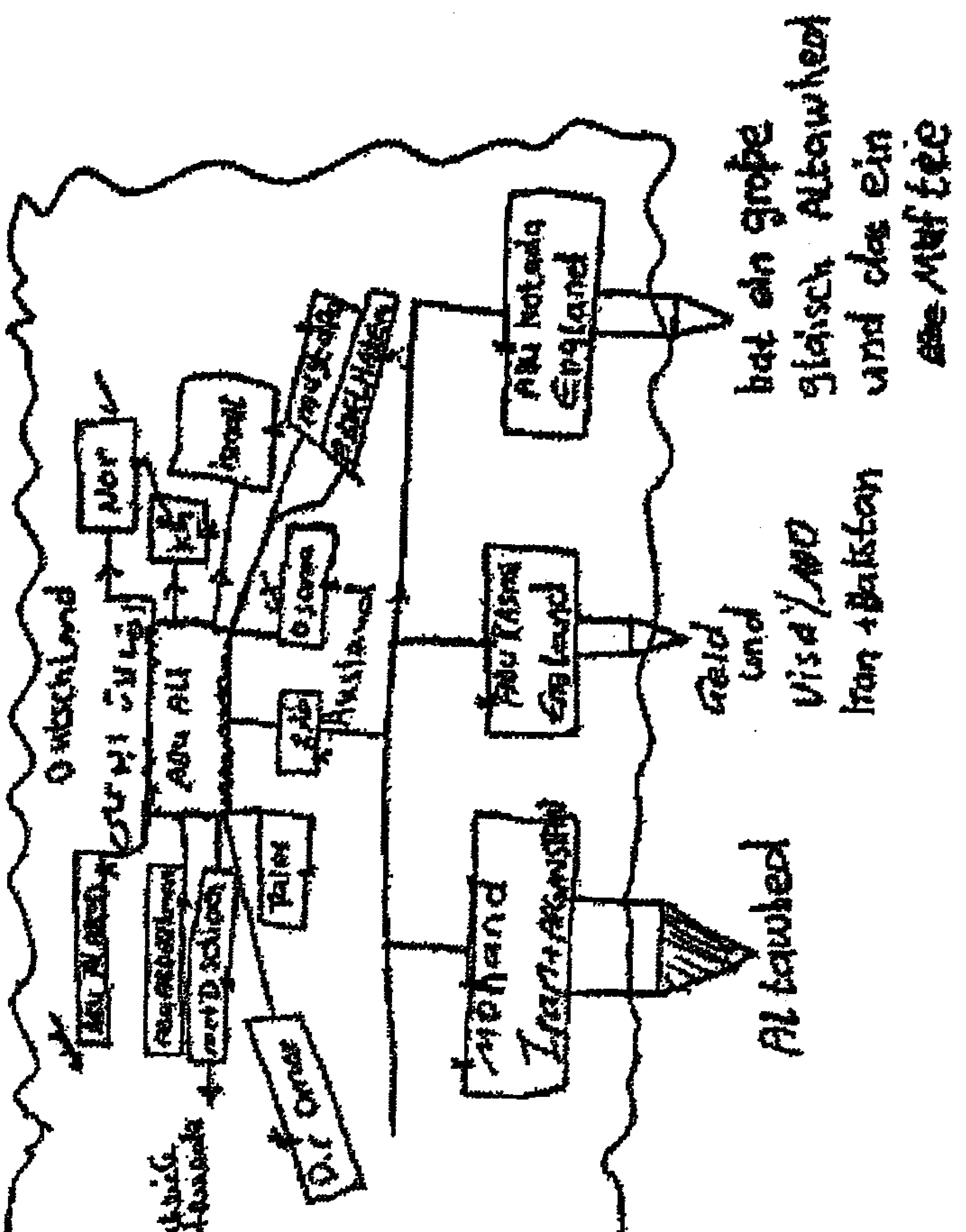

المصدر: الدعوى القضائية الألمانية، قضية التوحيد، شهادة شادي عبد الله، 2002، وثائق المؤلف.

رسم شامل لشبكة الزرقاوي في ألمانيا،

رسمه شادي عبد الله،

أثناء استجواب السلطات الألمانية له عام 2002.

(نسخة طبق الأصل)

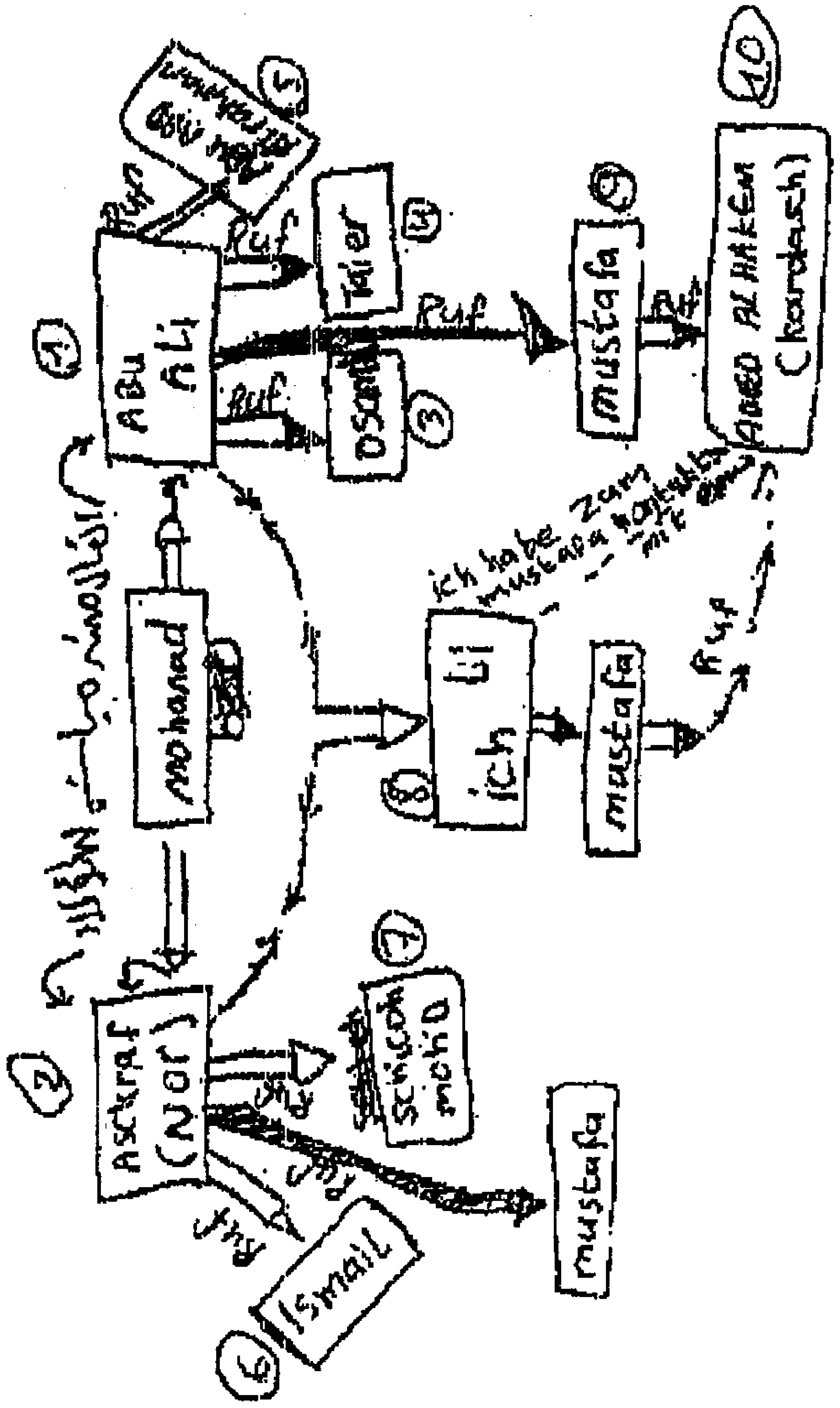

المصدر: الدعوى القضائية الألمانية، قضية التوحيد، شهادة شادي عبد الله، 2002، وثائق المؤلف.

خريطة لكابول مع تحديد موقع منـــزل الزرقاوي،
رسمها شادي عبد الله،
أثناء استجواب السلطات الألمانية له عام 2002.
(نسخة طبق الأصل)

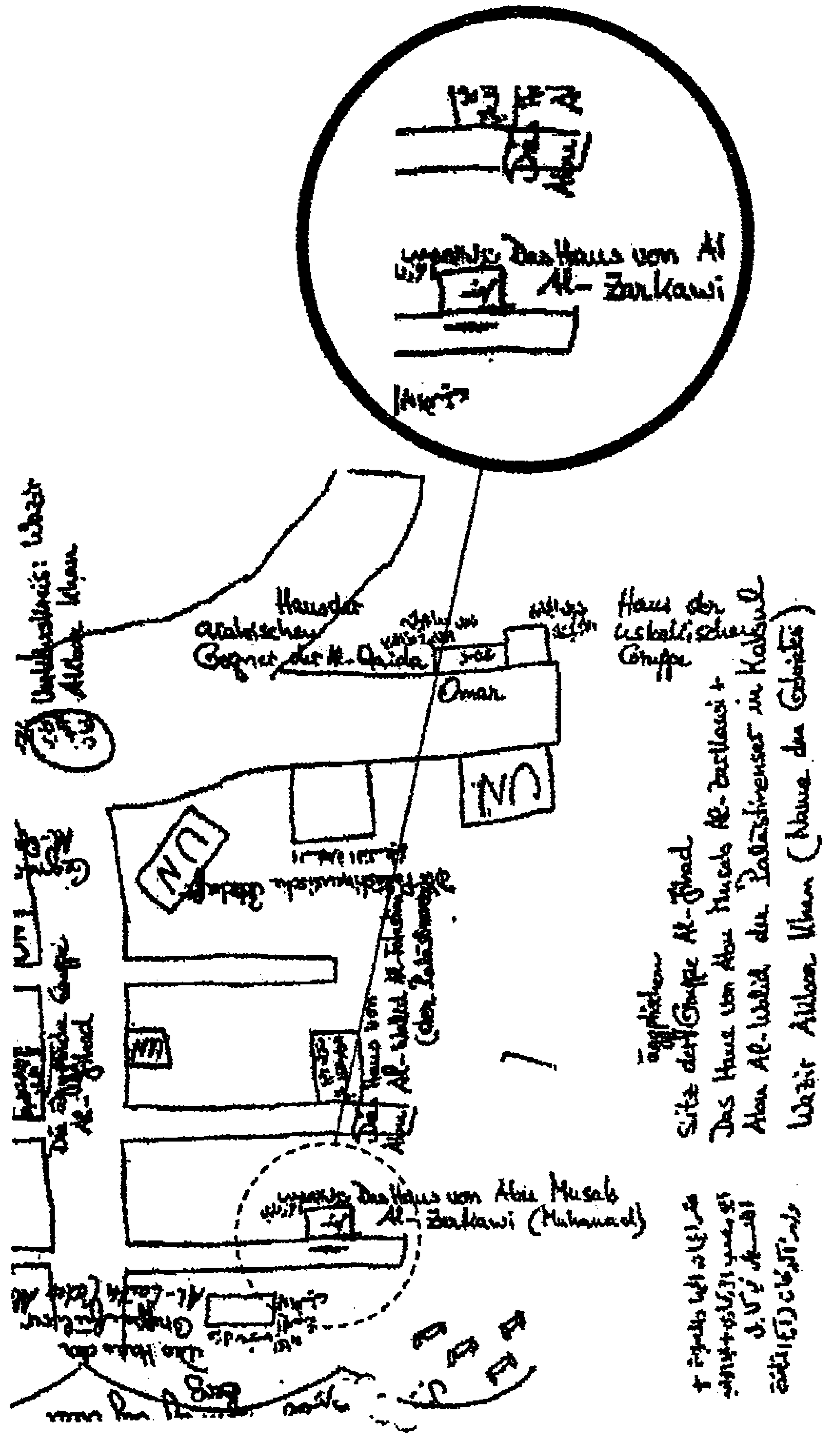

المصدر: الدعوى القضائية الألمانية، قضية التوحيد، شهادة شادي عبد الله، 2002، وثائق المؤلف.